

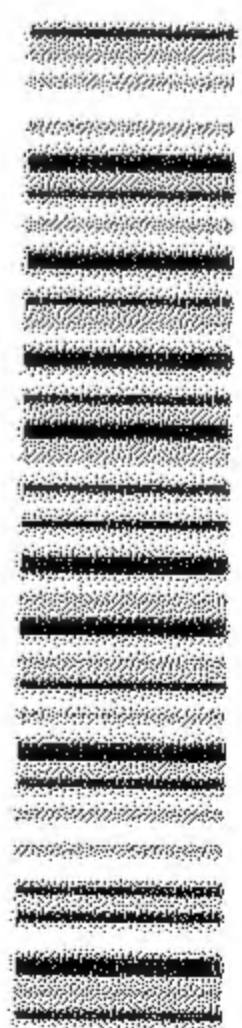
الأدب الإسلامي

ومواكب النور

تأليف
د. عبد العزيز شرف
أستاذ العلوم الإسلامية

دار الحديث
بيروت

0118290



Bibliotheca Alexandrina

89
03

الأدب الإسلامي
ومواكب النور

الأدب الإسلامي ومواكب النور

تأليف
د. عبد العزيز شرف
أستاذ العلوم الإسلامية

دار الحديث
بيروت

جميع الحقوق محفوظة لدار الجليل
الطبعة الأولى
١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الاهدا...

إلى أبي

الشيخ محمد السيد شرف

أهدي هذه الشوارد

في الأدب الاسلامي..

د. عبد العزيز شرف

الاشكال الاتصالية في الدعوة الاسلامية

اتسمت الأشكال الاتصالية في صدر الدعوة الاسلامية بالطابع الشخصي والجمعي والحضاري، وقد تحدّثنا عن رسول الله ﷺ كداعية أمثل في إطار نظرية الوحي التي تمثل نظرية متكاملة للاتصال، وسوف نتحدث هنا عن الاتصال الشخصي الذي يتحقق في الجماعات الأولية التي يرتبط أفرادها بعلاقات شخصية ويتم فيها الاتصال بالمواجهة - سرية كانت أو علنية.

الاتصال الشخصي في الاعلام الاسلامي:

ذلك أن الرسول ﷺ لم يجهز بالدعوة إلا بعد أن أمره الله سبحانه وتعالى بأن ينذر عشيرته الأقربين، وكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أمره واستتر به الى أن أمره الله تعالى باظهار دينه، ثلاث سنوات تمثل المرحلة السرية في الاتصال الشخصي بعد نزول الوحي... اذ قال عز وجل ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾^(١) وقال جل جلاله ﴿وانذر عشيرتک الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾^(٢).

ومن ذلك يتضح ان هاتين المرحلتين السرية والعلنية، كانتا تستندان الى الاتصال الشخصي الذي يكون بطبيعته بين أفراد العشيرة والأقربين من الأهل والصحاب.

(١) سورة الحجر آية ٩٤

(٢) سورة الشعراء الآيتان ٢١٤ - ٢١٥.

فقد اعتمد رسول الله ﷺ في الاتصال الشخصي بمن يثق ويطمئن اليهم، كزوجته خديجة رضي الله عنها، وابن عمه علي كرم الله وجهه، وصديقه أبي بكر، ومولاه زيد بن حارثة، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وأبو عبيدة بن الجراح، وأبي سلمة بن عبد الأسد، وزوجته أم سلمة، والأرقم بن أبي الأرقم، وعثمان بن مظعون، وغيرهم من الصفة الأبرار رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين.

ولقد كان الاتصال يتم خفية وبعيداً عن أعين المشركين من قريش، وظلّ كذلك سنوات ثلاثاً أثمرت فيها الدعوة غرسها، وأصبح حول رسول الله واحد وخمسون مسلماً يمثلون أوائل الدعاة في الاسلام وللإسلام، وهم الذين نزلت فيهم الآية الكريمة ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾^(٣).

وقد تضمنت المرحلة السرية هذه صفحات مشرفة لكل واحد من هؤلاء؛ فأول من أسلم كانت أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها وأرضاها، وقد احتضنت الدعوة في بدايتها منذ هبط الوحي على النبي ﷺ وكلنا يعرف موقفها حينما جاءها وهو يرتجف فطمأنته، ثم آمنت به وصدقت بما جاءه من عند الله، وآزرته على أمره فخفف الله بذلك عن نبيه ﷺ وقد أرسل إليها سبحانه وتعالى تحية طيبة مباركة من السماء، فقد أمر نبيه أن يخبرها على لسان جبريل بأنه عز وجل يقرئها السلام وإن لها بيتاً في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب.

أما علي بن أبي طالب فكان في حجر رسول الله ﷺ قبل الإسلام، ويذكر ابن هشام أن رسول الله كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفياً من أبيه أبي طالب ومن جميع

(٣) سورة الواقعة الآيتان ١٠ - ١١

أعماه وسائر قومه، فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا فمكثا كذلك ما شاء الله ان يمكثا. وقد عثر عليهما أبو طالب يوماً وهما يصليان فقال لرسول الله «يا بن أخي ما هذا الدين أراك تدين به؟ فأجابه ﷺ (أي عم... هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا ابراهيم - أو كما قال - ﷺ بعثني الله به رسولاً الى العباد، وأنت أي عم أحق من بذلت له النصيحة ودعوته الى الهدى وأحق من أجابني اليه وأعانني عليه) فقال أبو طالب «أي ابن أخي اني لا أستطيع أن افارق دين آبائي وما كانوا عليه، ولكن والله لا يخلص اليك بشيء تكرهه ما بقيت».

وقال ابن هشام ان أبا طالب قال لابنه علي «أي بني ما هذا الدين الذي أنت عليه؟ فأجابه «يا أبتى، آمنت بالله وبرسول الله وصدقته بما جاء به وصليت معه لله واتبعته». فقال أبو طالب «أما انه لم يدعك الا الى خير فالزمه».

وأما زيد بن حارثة فقد أسلم كذلك فور نزول الوحي على الرسول ﷺ وصلى معه، يقول ابن هشام ان زيدا كان رقيقاً على عادة الجاهلية اشتراه حكيم بن حزام، ثم وهبه لعمته خديجة رضي الله عنها فوهبته بدورها الى زوجها قبل البعث. فأعتقه ﷺ وتبناه الى أن انزل الله عز وجل ﴿ادعوهم لأبائهم﴾^(٤) وقد بلغ من حب رسول الله لزيد ان ناداه الناس «بحبيب رسول الله». وقد دخل زيد في الاسلام فور دعوة رسول الله له فكان من الأوائل الذين صدقوا به وآمنوا معه.

وكان أبو بكر بن أبي قحافة التيمي صديقاً حميماً لمحمد ﷺ، وكان يقدر أمانته ونزاهته وصدقته وحبه للعدل والحق. وكان رسول الله يبادله الحب والتقدير ويعتز بصداقته ويفضي اليه بأسراره، ولذلك كان أبو بكر أول من تلقى تفاصيل الوحي من رسول الله ﷺ.

(٤) سورة الأحزاب آية ٥

ولم يتردد أبو بكر لحظة واحدة في التصديق والدخول الى الدين الحق. وقد أعلن اسلامه ودعا الى الله والى رسوله، وقد استجاب الكثيرون الى الاسلام بدعوته لأنه كما يقول ابن هشام كان «رجلاً مألُفاً لقومه محبباً سهلاً، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بقريش وما كان فيها من خير وشر، وكان رجلاً تاجراً ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يفتدون اليه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته - فجعل يدعو الى الله والى الاسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس اليه.

أما الاتصال الشخصي في المرحلة العلنية فقد توّسل بالقرآن الكريم والقدوة الحسنة الى جانب الأحاديث النبوية الشريفة.

يقول الرواة: ان النبي ﷺ بعد ان أمر بالجهر وانداز عشيرته الأقربين وخفض جناحه للمؤمنين، جمع بني عبد المطلب وهم يومئذ أربعون رجلاً فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب، فقدم لهم طعاماً صنعه لهم ثم قال (خذوا باسم الله) فأكل القوم حتى ما لهم بشيء حاجة، ثم أراد رسول الله أن يكلمهم فبدره أبو لهب الى الكلام فتفرق القوم ولم يكلمهم. وفي اليوم التالي أمر علياً فصنع لهم طعاماً ودعاهم الى المائدة مرة أخرى، فحضرُوا وأكلوا هنيئاً وشربوا مريئاً. ثم تكلم رسول الله فقال (يا بني عبد المطلب اني والله ما أعلم رجلاً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتمكم به. اني قد جئتمكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم اليه). ويقول الطبري «صعد رسول الله ﷺ ذات يوم الصفا فقال (يا صباحاه!). فاجتمعت قريش فقالوا «مالك؟» قال ﷺ (أرايتم ان اخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أما كنتم تصدقونني؟). قالوا «بلى». قال (فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد). فقال أبو لهب «تباً لك... لهذا دعوتنا وجمعتنا؟» فأنزل الله عز وجل ﴿تَبَّتْ يُدَا أُبَىٰ ۖ ۝٥﴾.

(٥) سورة المسد آية ١

وهكذا يتبين لنا أن الرسول ﷺ قد توّسل بكل الوسائل التي تحقق أهداف الاتصال الشخصي، فقد دعا قومه الى طعامه مرتين، وأقام لهم حفلاً وتحدث اليهم بلطف ولين، ولم يكن فظاً غليظ القلب. ثم قدم لحديثه بأسئلة يعرف اجابتها مقدماً، وذلك ليستدرج القوم لما يريد ويمهد للأمر في نفوسهم.

ولولا معارضة أبي هلب له لانصاع الناس لقوله وآمنوا جميعاً به. ولكن هذه المعارضة في حد ذاتها جاءت لتؤكد أن الأمر ليس أمراً عائلياً أو عصبية أسرة أو اجماع قبيلة تريد أن تسود وأن يكون لها الأمر الديني، ولكنها رسالة رب العالمين الى الناس كافة.

وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ حين نزل عليه قوله تعالى ﴿وانذر عشيرتَكِ الأقربين﴾^(٦)، وقف وقال (يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئاً... يا بني عبد المطلب لا أغنى عنكم من الله شيئاً.. يا صفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً.. يا فاطمة بنت رسول الله سليني ما شئت من مال لا أغنى عنك من الله شيئاً). وهذا الحديث مخرج على شرط البخاري، وروى مثله الإمام أحمد في مسنده.

ولقد جاء في التاريخ الكبير لابن الأثير «لما أنزل الله تعالى على رسوله ﴿وانذر عشيرتَكِ الأقربين﴾^(٧)، اشتد ذلك على النبي ﷺ وضاق ذرعاً فجلس في بيته كالمريض، فأتته عمّاته يعذّنه فقال (ما اشتكيت شيئاً ولكن الله أمرني أن أنذر عشيرتي). فقلن له «فادعهم ولا تدع أبا هلب فيهم فانه غير مجيبك. فدعاهم ومعهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف فكانوا خمسة وأربعين، فبادرهم أبو هلب فقال «هؤلاء عمومتك وبنو عمك، فتكلم ودع الصباة، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة وأنا أحق من أخذك فحبسك.. وان أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يشب بك بطون

(٦) سورة الشعراء آية ٢١٤

(٧) سورة الشعراء آية ٢١٤

قريش وغيرهم من العرب. فما رأيت أحداً جاء على بني أبيه بشر مما جئتهم به». فسكت رسول الله ﷺ ولم يتكلم في هذا المجلس.

وكان رسول الله ﷺ حكيماً غاية الحكمة، مدركاً تمام الإدراك لابعاد الموقف الاتصالي وما تمثله معارضة أبي لهب من معوقات اتصالية أمام الدعوة الجديدة. لهذا بادر بالصمت وأرجأ الحديث الى مجال آخر لا يكون فيه هذا الجو الذي شحنه أبو لهب بالمعارضة.

فلما أتيحت له الفرصة ونهياً له المجال الاتصالي المناسب، قال ﷺ (الحمد لله أحمده واستعينه واثق به وأتوكل عليه، وأشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له). ثم قال (ان الرائد لا يكذب أهله، والله الذي لا اله الا هو اني رسول الله اليكم خاصة والى الناس كافة. والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، وانها للجنة أهدأ أو للنار أهدأ).

ولقد أفحم أبو لهب بهذا القول فلم ينطق بحرف، وتكلم أبو طالب فقال «ما أحب إلينا معاونتك وأقبلنا لنصيحتك وأشد تصديقاً لحديثك، هؤلاء بنو أبيك مجتمعين وإنما أنا أحدهم، غير أني أسرعهم الى ما تحب فامض لما أمرت به، فوالله لا أزال أحوطك وانفعك غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب» وهنا استفز أبو لهب فقال «هذه واللات السوأة.. خذوا على يديه قبل أن يأخذه غيركم». فأجابه أبو طالب بإصرار «والله لنمنعنه ما بقينا».

وتعتبر الأحاديث النبوية الشريفة الدعامة الثانية للاعلام الاسلامي بعد القرآن الكريم. ذلك أن القاعدة الأساسية في نظرية الاعلام الاسلامي تقوم على أساس من الثبات في الأصول والتطور في الفروع.

الأحاديث النبوية الشريفة في الاتصال الشخصي والجمعي والحضاري:

والأحاديث النبوية الشريفة تمثل بطبيعتها وسيلة من أهم وسائل الاعلام الاسلامي ذلك أن «الحديث» من حيث المعنى هو أداة اتصالية، فقد

كان لكلمة الحديث معنى عام هو الخبر أو المحادثة - دينية كانت أم غير دينية - ثم أصبح لها معنى خاص هو ما ورد عن النبي ﷺ من قول أو فعل يروى عنه.

وتأسيساً على هذا الفهم فإن الحديث أصبح يطلق عند المسلمين على ما يروى عن الرسول، ويطلق على العلم الخاص به علم الحديث.

واذ كنا قد تحدثنا في الفصل السابق كذلك عن الرسول ﷺ، كمبلغ للدعوة وقائم بالاتصال فيما يصدر عنه من قول وما يروى عن أفعاله انما يمثل الرسالة الاعلامية، والتي نعني بها في هذا الصدد الأحاديث النبوية الشريفة، والتي كان لها طابعان:

أولاً: طابع التعليم والتوجيه والارشاد.

ثانياً: طابع الاعلام والدعوة والتبليغ.

وهذان الطابعان يمثلان الوظائف الأساسية للاعلام بوجه عام، وللعلام الاسلامي بوجه خاص.

ومن أحاديث الرسول ﷺ جميعاً نجد تحقيقاً لهذه الوظائف سواء أكانت تستهدف التنشئة الاجتماعية أو التوجيه أو الهداية على النحو المستفاد من الدلالة التي ترتبط بلفظ السنة ذاته، والتي كان المقصود بها عند العرب «النهج القديم المأثور الذي يعتاده المرء في كافة المعاملات». وهذا اللفظ كان له احترامه عند الجاهليين الذين يعتبرون السنة فضيلة من الفضائل^(٨).

ولما جاء الاسلام، كان في جوهره ثورة على السنن الجاهلية وما يرتبط بها من وثنية وعادات سيئة وتقاليد ضارة بالمجتمع. وقد استبدل الاسلام سنن الجاهلية وعاداتها وتقاليدها بسنن قوية وعادات سليمة وتقاليد مفيدة يترسمها المجتمع الاسلامي في كل زمان ومكان. ذلك أن الدرس المستفاد من الأحاديث

(٨) ص ٤١، ج ١، تعليق ٨.

النبوية، الى جانب ما أوضحه القرآن الكريم حول الدعوة والتبليغ أن الاعلام الاسلامي انما هو فريضة واجبه يتوجه بها الى العالم كله، لا الى أمة بعينها، وقد جاء عن النبي ﷺ انه قال (نصرت بالرعب من مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيا رجل من امتي أدركته الصلاة فليصل. وأحلّت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث لقومه خاصة وبعث للناس عامة)^(٩).

وقد أكد القرآن الكريم هذا المعنى في أصول الاعلام الاسلامي، اذ قال تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾^(١٠) فأصبح الواجب اذن على القائمين بالاعلام الاسلامي أن يتخذوا من شخصية الرسول وخلفه، وشخصيات صحابته وخلفهم، مثلاً علياً يترسمونها ويحتلون خطواتها في اداء رسالتهم الخالدة العامة.

واذا كان الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين، قد بذلوا كل ما في طاقتهم في سبيل جمع أحاديث الرسول واخباره لتكون نبراساً للاعلام الاسلامي في كل العصور، فان هذه الأحاديث والاخبار ذاتها كانت في حينها تمثل رسالة اعلامية مباشرة للقوم الذين تخاطبهم، وقد استمرت فعاليتها الى يومنا هذا وسوف تستمر الى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وينقسم الحديث الى: حديث إلهي وهو الحديث القدسي الذي يرويه النبي ﷺ عن ربه عز وجل، وحديث نبوي وهو ما تحدث به رسول الله وما روي عنه ﷺ.

وهذان النوعان من الحديث يمثلان الرسالة الاعلامية المفسرة للقرآن الكريم، وقد توّسل بها الرسول ﷺ في كل مراحل الدعوة الاسلامية. وقد طبعت بطابع الاتصال الشخصي الشفهي الذي يؤكد علماء الاعلام أنه ناجح

(٩) رواه البخاري ومسلم.

(١٠) سورة الاعراف آية ١٥٨

في الاقناع، لأنه يتلافى سلبيات الاعلام الأخرى وخاصة مقاومة المستقبل التي تضعف بدورها تأثير الاعلام. فالاتصال الشفهي يتسم بالحوار والاقناع وتبادل الأفكار، ودحض الحجج والبراهين، ومحاولة التغلب على كل أساليب الاحتجاج مما يجعل المستقبل يؤمن تأمناً قليلاً على الرسالة التي تلقاها. بل انه يصبح في أغلب الأحوال داعية لنفس الرسالة بين جماهير أخرى لا يلبث بعضهم أن يتحول بدوره الى دعاة كذلك. وهكذا تدور الدورة الاتصالية في الاعلام الاسلامي.

لذلك لم يكن غريباً أن يتوسل الرسول ﷺ بالاتصال الشخصي في مراحل الدعوة المختلفة وتبليغ رسالة ربه الى الناس. ولقد نجح ﷺ نجاحاً باهراً منجزاً شد انتباه غير المسلمين وكل من تصدى لدراسة حياته والكتابة عنه. وتقول دائرة المعارف البريطانية في مادة قرآن «جاء محمد بدعوة جديدة - هي دعوة الاسلام - وكان هذا الرسول أفضل الأنبياء، والشخصيات الدينية وأكثرهم حظاً من النجاح، فقد أنجز في عشرين عاماً من حياته ما عجزت عن انجازه قرون من جهود المصلحين - يهوداً أو نصارى - الذين كانت تؤيدهم السلطة الزمنية. ورغم أنه كان أمام ذلك الرسول تراث أجيال من الوثنية والخرافة والجهل والبغاء والربا والميسر ومعاقرة الخمر واضطهاد الضعفاء والحروب والمنازعات بين القبائل العربية، ومئات الشرور والآثام الأخرى».

وهذا التأكيد من دائرة المعارف البريطانية الذي نقلناه بنصه يوضح ما نعنيه بنجاح الاتصال الشخصي في دعوة الرسول ﷺ، في مراحلها التي أشرنا اليها.

الاتصال الشخصي بالقبائل العربية:

ومن وسائل الاتصال التي لجأ اليها الرسول ﷺ وسلم لتبليغ دعوة الاسلام، عرض نفسه على القبائل العربية الوافدة الى مكة للحج أو العمرة أو

التجارة، كما كان يحرص على حضور الأسواق خاصة في المواسم والأعياد. ويروى انه ﷺ كان يقف على منازل القبائل من العرب فيقول (يا بني فلان اني رسول الله اليكم يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الانداد، وان تؤمنوا بي وتصدقوا بي وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به).

وكثيراً ما كان أبو لهب يحرك العوامل الوسيطة عند هذه القبائل بأن يتبع ابن اخيه فيقول معقباً على قوله ﷺ «يا بني فلان.. ان هذا انما يدعوكم ان تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم، وحلفائكم من الجن من بني مالك بن اقيش، الى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه».

العوامل الوسيطة ومقاومة الدعوة:

واذا كان علماء الاعلام في عصرنا هذا يقولون ان الاتصال قد ينجح مرة وقد يفشل أخرى أو يحقق عكس المطلوب منه، فإنا نستطيع أن نستقرئ هذا من المواقف التي عرض فيها الرسول ﷺ نفسه على القبائل، وما لقيه من نجاح أو فشل بسبب محاولات أبي لهب المضادة والتي كانت تثير العوامل الوسيطة في النفوس وتستهدفها استهواء عكسياً. ولم تكن المقاومة قاصرة على أبي لهب بل كانت تشتمل الكثير من سادة قريش وأصحاب الرأي والجاه والمال فيها من الذين غلبت عليهم الضلالة فلا يتبعون الحق لذات الحق، وهؤلاء هم المعاندون المكابرون الذين عميت قلوبهم وكان على ادراكهم غشاوة.

يقول ابن كثير ان رسول الله ﷺ «استمر يدعو الى الله تعالى ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، لا يصرفه عن ذلك صارف، ولا يرده عن ذلك راد، ولا يصدّه عن ذلك صاد، يتبع الناس في أنديتهم ومجامعهم ومحافلهم، وفي المواسم ومواقف الحج يدعو من لقيه من حر وعبد وضعيف وقوي وغني وفقير، جميع

الخلق في ذلك شرع سواء وتسلبت عليه وعلى من اتبعه من آحاد الناس من ضعفاتهم، الأشداء الأقوياء».

وكان أشدهم قسوة وضراوة بعد أبي لهب أبو جهل عمرو بن هشام المعروف بأبي الحكم، والذي كان فاجراً في القول والعمل، ولم يدخر وسعاً في مقاومة الدعوة واضطهاد كل من آمن بها خاصة الضعفاء ومن لا حول ولا قوة. أما أبو لهب فهو كما تقدّم قد اختار لنفسه موقعاً يناوئ منه الدعوة الإسلامية، وقد يكون سادة قريش هم الذين وضعوه في هذا الموقع استغلالاً منهم للصلة القويّة بينه وبين ابن أخيه، مما يجعله مصدر ثقة وعاملاً من العوامل الوسيطة الفعّالة في مقاومة النبي ﷺ، واضعاف حجته واصابته بالاجباط وإيلامه في نفسه، لأن الظلم هنا يقع من أقرب المقربين إليه، وهو الذي يفترض فيه أن يكون أول المؤيدين والمساندين لدعوته.

قال ابن اسحاق «كان رسول الله ﷺ كلما اجتمع له الناس بالموسم، أتاهم يدعو القبائل الى الله وإلى الاسلام، ويعرض عليهم نفسه وما جاء به من الله من الهدى والرحمة، وهو لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف الا تصدى له فدعاه الى الله وعرض عليه ما عنده».

وقد لقي رسول الله قوماً من الخزرج في أحد المواسم عند العقبة فقال لهم (من أنتم؟). قالوا «نفر من الخزرج». قال (أمن موالي يهود؟) قالوا «نعم». قال (أفلا تجلسون أكلمكم؟). قالوا «بلى»، فجلسوا معه فدعاهم الى الله عز وجل وعرض عليهم الاسلام وتلا عليهم القرآن فقال بعضهم لبعض «يا قوم.. تعلّموا والله انه للنبي الذي توعدكم به اليهود فلا يسبقونكم اليه». فأجابوه فيما دعاهم اليه بأن صدّقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الاسلام وقالوا «إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك. فسنقدم عليهم فندعوهم الى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك اليه من هذا الدين، فان يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك». ثم

انصرفوا راجعين الى بلادهم وقد آمنوا وصدّقوا.

وكانت هذه بداية نجاح الاتصال الشخصي بين رسول الله ﷺ، وانتصاره على مقاومة العوامل الوسيطة التي أزكاها أبو لهب وغيره من أشباهه. وإذا كان لفظ الجمع في اللغة العربية يعنى تأليف المتفرق، فان الاتصال الجمعي كما يذهب الى ذلك علماء الاعلام يكتسب من هذه الدلالة اللغوية خصائصه ومفهومه من حيث اعتماده على التفاعل المباشر بين الجماعة والداعية أو المرسل.

الاتصال الجمعي:

ولما كان الاسلام هو الدين القائم على جمع الناس تحت راية واحدة هي راية لا إله إلا الله، وتوحيد صفوفهم وبثّ التواد والتراحم والتآزر والتضامن في نفوسهم، كان الاتصال الجمعي من أهم مميزات الاعلام الاسلامي.

قال تعالى ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(١١).

وقال سبحانه ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾^(١٢).

وقال عزّ شأنه ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾^(١٣).

وقال جل جلاله ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾^(١٤).

(١١) سورة آل عمران آية ١٠٣

(١٢) سورة الاعراف آية ١٥٨

(١٣) سورة سبأ آية ٢٦

(١٤) سورة الشورى آية ١٥

هذه الآيات وغيرها تؤكد على أهمية الاتصال الجمعي في الاعلام الاسلامي لما تتضمنه من التأكيد على الألفة والاجتماع على كلمة الحق، والتسليم لأمر الله والاعتصام بحبله سبحانه. وهو الذي يقول عنه المفسرون انه السبب الموصل الى البغية والحاجة، ولذلك سُمِّي الأمان حبلاً لأنه سبب يوصل به الى زوال الخوف والنجاة من الجزع والذعر. كما كره الله الفرقة وحذر المسلمين منها ونهاهم عنها.

وقال رسول الله ﷺ (ان بني اسرائيل افترقت على احدى وسبعين فرقة، وان أمتي ستفترق على اثنين وسبعين فرقة كلهم في النار الا واحدة قيل «يا رسول الله وما هذه الواحدة؟». فقبض يده وقال (الجماعة). ثم استشهد ﷺ بالآية الكريمة. ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(١٥).

ولقد شرع الاسلام صلاة الجماعة في المساجد لحكمة بالغة هي التأليف بين قلوب المسلمين وتوحيد صفوفهم وجمع كلمتهم وتحقيق المساواة بينهم والتمرس على المشاركة العملية والوجدانية، والتدرب على العمل تحت قيادة واحدة، ثم ان صلاة الجماعة فيها حركة السعي الى المساجد، وفيها سهولة اعلام الناس بالأمور العامة والأحداث الهامة أيضاً.

ولذلك أكد الرسول الكريم على طلب صلاة الجماعة التي أصبحت سنة مؤكدة وشعيرة من شعائر الاسلام، بل دعامة من أهم دعائمه. وقد داوم على اقامتها رسول الله ﷺ والخلفاء والتابعون بعدهم، وما زالت الى يومنا في كل مجتمع اسلامي، وستظل الى يوم الدين باذنه تعالى.

(١٥) سورة آل عمران آية ١٠٣

الاتصال الجمعي في الاعلام الاسلامي

قال ﷺ (صلاة الجماعة تعدل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة). متفق عليه. وقال (ما من ثلاثة في قرية ولا بدولا تقام فيهم الصلاة الا قد استحوذ عليهم الشيطان. فعليكم بالجماعة فانما يأكل الذئب من الغنم القاصية). رواه أبو داود باسناد حسن.

أما صلاة الجمعة فقد قال الله عز وجل بشأنها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾^(١).

وقال رسول الله ﷺ (من ترك ثلاث جمع تهاونا طبع الله على قلبه). كما قال (ان أهل الكتابين أعطوا يوم الجمعة فاختلقوا فيه فصرفوا عنه، وهدانا الله تعالى له واخره لهذه الأمة وجعله عيداً لهم، فهم أولى الناس به سبقاً وأهل الكتاب لهم تبع). متفق عليه. وقد أجمع المسلمون كافة على وجوب صلاة الجمعة التي تثبت فريضتها بالكتاب والسنة.

ومن مظاهر الاتصال الجمعي في صلاة الجمعة الخطبة، وهي الرباط الروحي للمصلين والمخبر الاعلامي للمسلمين، ومن خلالها يمكن توجيه الناس وارشادهم وإعلامهم والأخذ بأيديهم الى خير السبل وأسلمها.

(١) سورة الجمعة آية ٩

الخطبة النبوية والاتصال الجمعي:

ويقول ابن القيم الجوزي عن خطب النبي ﷺ «إنها كانت تقريراً لأصول الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه. وذكر الجنة والنار بما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته، وما أعد لاعدائه وأهل معصيته، فيملأ القلوب من خطبه إيماناً وتوحيداً ومعرفة بالله وأيامه.. لا كخطب غيره التي تفيد أموراً مشتركة بين المخلائق، وهي النوح على الحياة والتخويف بالموت، فإن هذا أمر لا يحصل في القلب إيماناً بالله ولا توحيداً له، ولا معرفة خاصة، ولا تذكيراً بأيامه، ولا بعثاً للنفوس على صحبتته والشوق الى لقائه، فيخرج السامعون ولم يستفيدوا فائدة غير أنهم يموتون وتقسم أموالهم ويبيي التراب أجسامهم.. فيا ليت شعري أي إيمان حصل بهذا، وأي توحيد وعلم نافع يحصل به؟ ومن تأمل خطب النبي ﷺ وخطب أصحابه، وجدها كفيلاً ببيان الهدى والتوحيد وذكر صفات الرب جل جلاله، وأصول الايمان الكلية والدعوة الى الله وذكر آلائه تعالى التي تحببه الى خلقه، وأيامه التي تخوفهم من بأسه، والأمر بذكره وشكره الذي يحبهم اليه، فيذكرون من عظمة الله وصفاته واسمائيه ما يحببه الى خلقه، ويأمرون من طاعته وشكره وذكره ما يحبهم فينصرف السامعون وقد أحبوه وأحبهم، ثم طال العهد وخفي نور النبوة وصارت الشرائع والأوامر رسوماً تقوم من غير مراعاة حقائقها ومقاصدها، فأعطوها صورها وزينوها بما زينوها به فجعلوا الرسوم والأوضاع سنناً لا ينبغي الاخلال بها، وأخلوا بالمقاصد التي لا ينبغي الاخلال بها فرصعوا الخطب بالتسجيع والفقر وعلم البديع فنقص.. بل عدم حظ القلوب منها وفات المقصود بها».

أما النووي فيقول «يستحب كون الخطبة فصيحة بليغة مرتبة مبينة من غير تمطيط ولا تقصير، ولا تكون ألفاظاً مبتذلة ملفقة لأنها لا تقع في النفوس موقعاً كاملاً، ولا تكون وحشية لأنها لا يحصل مقصودها، بل يختار ألفاظاً جزلة مفهومة».

أما الخطابة النبوية الشريفة فيتمثل فيها الاتصال الجمعي في اسمى معانيه فقد كانت أداة الدعوة، واللسان الناطق بالرسالة الإسلامية، وأداة الاتصال والتعبير في مجالات العقيدة والشريعة والاخلاق، فإذا كانت الكتابة غير شائعة في هذا العصر، فإن الخطابة كانت تمثل الوسيلة الأساسية للاتصال الجمعي، ولذلك اعتمد عليها النبي ﷺ في دعوته عشيرته والأقربين، وفي اتصاله بأحياء العرب وبالأسواق العامة ومواسم الحج، وكان، عليه السلام، يخطب ويقول (قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)، ثم انتقل إلى يثرب يدعو إلى الله على بصيرة، ويقوم في مجتمعات جديدة يشرح لهم ببيانه وفصاحته رسالة الإسلام، وهي فصاحة فطر عليها وقواها تلمذته للقرآن الكريم. سأل أبو بكر رضي الله عنه مرة «لقد طفت في العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك، فمن أدبك؟». قال (أدبني ربي فأحسن تأديبي). وفي الخطابة النبوية الشريفة تتجلى قيمة الحرية في الاتصال الجمعي، فكان عليه السلام يقول بعد الثناء والتشهد (أما بعد)، وكان يعلم أصحابه في خطبته قواعد الإسلام وشرائعه، ويأمرهم وينهاهم في خطبته إذا عرض له أمر أو نهي.

فالاتصال الجمعي - كما يتضح من دراسة الخطابة النبوية الشريفة - لا يتم من جانب واحد، وإنما كان يتاح فيه للمتلقى توجيه الأسئلة والتفاعل الذي يتيح رجوع الصدى من المستقبل إلى الرسول ﷺ، وهي الميزة التي يفقدها الاتصال الجماهيري المعاصر. ذلك أن الرسول ﷺ كان يقطع خطبته للحاجة تعرض، والسؤال لأحد من أصحابه فيجيبه ثم يعود إلى خطبته فيتمها. وكان ﷺ يأمر بمقتضى الحال في خطبته، فإذا رأى منهم ذا فاقة وحاجة أمرهم بالصدقة وحضهم عليها، ولم يكن يأخذ بيده سيفاً أو خفافه، وإنما كان يعتمد على عصا أو قوس قبل أن يتخذ المنبر، وكان يخطب للنساء على حدة في العيدين ويحرضهن على الصدقة.

ولقد كانت الخطابة من أهم وسائل الرسول ﷺ في الاتصال الجمعي في الإعلام الإسلامي بعد الجهر والدعوة مباشرة، حين صعد على الصفا حاملاً

عبء الجهاد من حين نزل قوله تعالى ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَاعْرِضْ عَنِ
المُشْرِكِينَ﴾^(٢). ويذكر ابن كثير أن أول خطيب دعا الى الله والى رسوله بعد
النبي ﷺ هو أبو بكر رضي الله عنه.

ولما كانت أول جمعة للنبي ﷺ بالمدينة، خطب المسلمين فكان مما قال:
الحمد لله، أحمدده واستعينه، واستغفره، واستهديه، وأومن به ولا أكفر،
واعادي من يكفره، وأشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له، وان محمداً
عبده ورسوله أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل، وقلة من
العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنو من الساعة، وقرب من
الأجل. من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصه فقد غوى وفرط وضل
ضلالاً بعيداً. وأوصيكم بتقوى الله فانه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن
يحضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله. فاحذروا ما حذرکم الله من نفسه،
ولا أفضل من ذلك ذكراً. وان تقوى الله يوقى مقنه ويوقى عقوبته، وان تقوى
الله يبيض الوجه ويرضي الرب ويرفع الدرجة، خذوا بحظكم ولا تفرطوا في
جنب الله، فقد علمكم الله كتابه ونهج لكم سبيله ليعلم الذين كذبوا ويعلم
الكاذبين، فأحسنوا كما أحسن الله اليكم، وعادوا أعداءه. جاهدوا في الله حق
جهاده هو اجتباكم وسماكم المسلمين ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي
عن بينة، فأكثرُوا من ذكر الله واعملوا لما بعد اليوم، فانه من يصلح ما بينه
وبين الله يكفيه الله ما بينه وبين الناس.

(وذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه، ويملك من الناس
ولا يملكون منه، الله أكبر ولا قوة الا بالله).

(٢) سورة الحجر آية ٩٤

خطبة الوداع وحقوق الانسان:

ومن الخطب النبوية الرفيعة خطبة حجة الوداع، وهي مشهورة وتعد بعد القرآن الكريم أقدم وثيقة عالمية بحقوق الانسان.

قال رسول الله ﷺ بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

(أيها الناس اسمعوا قولي فاني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً. أيها الناس ان دماءكم وأموالكم عليكم حرام الى ان تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا. وانكم ستلقون ربكم فيسألکم عن أعمالکم، وقد بلغت. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها، وان كان رباً موضوع ولكن لکم رؤوس أموالکم لا تظلمون ولا تظلمون. قضی الله انه لا رباً، وأن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله، وان كان دم كان في الجاهلية موضوع، وأن أول دمائکم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وكان مستوضعاً في بني ليث فقتلته هذيل، فهو أول ما أبداً به من دماء الجاهلية. أما بعد أيها الناس فان الشيطان قد يش من أن يعبد بأرضکم هذا أبداً، ولكنه ان يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالکم، فاحذروه على دينکم. أيها الناس ان النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا، يحلون عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله. وان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر منها أربعة حرم وثلاثة متوالية ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان، أما بعد ايها الناس فان لکم على نساءکم حقاً ولهن علیکم حق. لکم علیهن ألا یوطئن فرشکم أحداً تکرهونه، وعلیهم ألا یأتین بفاحشة مبينة، فان فعلن فان الله قد أذن لکم ان تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غیر مبرح، فان انتهین فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيراً فانهن عندکم عوان لا یلکن لأنفسهن شیئاً، وانکم انما بأمانة الله واستحللتم فروجهن بکلمات

الله، فاعقلوا أيها الناس قولي فاني قد بلغت. وقد تركت فيكم ما ان اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً.. أمراً بيناً كتاب الله وسنة نبيه. أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه.. تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين اخوة فلا يحل لامرئ من أخيه الا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم، اللهم هل بلغت؟ فقال الناس «اللهم نعم». فقال رسول الله (اللهم أشهد).

ومن خطبة الوداع نستخلص دستوراً للاعلام الاسلامي ينص على الدعوة الى التوحيد الخالص، والايمان بالله، كما ينص على الدعوة الى وجوب احترام حقوق الانسان وبخاصة في النفس والمال والعرض، والغاء التعامل بالربا، وتأكيد حقوق المرأة ووجوب رعايتها ورعاية العلاقة الزوجية والاسرية، وصيانة الروابط الدينية والأخوية والاتصالية بين المؤمنين، كما تنص هذه الخطبة على اعلان المساواة التامة بين بني الانسان في الحقوق والواجبات مساواة تامة، بغض النظر عن اللون والجنس، وهذا النص يمثل عماداً من أعمدة الاعلام الاسلامي الذي أكدت عليه خطبة الوداع، وهي الخطبة التي ارست كذلك من مبادئ الاعلام الاسلامي.. التحذير من فتن الشيطان، والتنبيه الى وجوب التزام اليقظة، والحذر من وسائل افساده للأخوة بين المسلمين وتفريق صفوفهم، وكذلك الدعوة الى وجوب التمسك بكتاب الله وسنة رسوله، لأنها الهدى الذي لا يضل من تمسك به.

وقد نصّت خطبة الوداع صراحة على أن الاعلام الاسلامي انما يقوم على أساس من تبليغ الرسالة للناس كافة، وهذا الأساس يمثل جوهر الاعلام الاسلامي.

صلاة العيدين والاتصال الجمعي:

وصلاة العيدين شعيرة تمثل الاتصال الجمعي في أروع مظاهره، فالأعياد بطبيعتها مواسم اعلامية، والعيذان الكبيران في الاسم هما عيد الأضحى

وعيد الفطر، وأكبرهما هو الذي يأتي بعد مشقة الحج والتقرب الى الله سبحانه وتعالى، وثانيهما هو الذي يأتي بعد شهر الصيام، ويحتفل به الصائم وقد راض نفسه على مغالبة الجوع والظما ومخالفة العادات التي جرى عليها في سائر الشهور، وكلاهما - كما يقول العقاد - رمز واضح الى فضيلة التضحية وفضيلة ضبط النفس، أو الى الفضيلة الانسانية الجامعة لكل الفضائل، وهي حرية الاختيار والقدرة على مغالبة الغرائز والأهواء والعادات.

وصلاة العيدين سنة مؤكدة وشعيرة من شعائر الدين، وفيها نسمع التكبير ثلاثاً نسقاً، فنقول: الله أكبر الله أكبر، الله أكبر كبيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً. لا إله إلا الله وحده لا شريك له، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، وفي هذا التكبير تلخيص لرسالة الاعلام الاسلامي حيث يتم التواصل بين المسلمين ودينهم على أتم ما يكون التواصل، وتصبح الأعياد الاسلامية تجديداً للعودة والألفة والتعارف بين المسلمين.

فالعيد اذن وسيلة أساسية من وسائل الاتصال الجمعي في الاعلام الاسلامي، وقد تكون كلمة العيد باللغة العربية أصدق الكلمات دلالة على ما نعنيه، فالعيد يعود كل سنة في موعد محدود ومعروف، كما انه سيوجب مجتمعاً مستقراً له دينه ونظامه الاجتماعي القائم على أسس راسخة.

وهذه الدورية للعيد أي عودته سنوياً في الموعد المحدد، صفة من أهم صفات الاعلام بوجه عام.

والعيذان الاسلاميان - وهما عيد الفطر وعيد الأضحى - كان لهما أصل قديم قبل الاسلام، فكان العرب يصومون من أسبوع الى أسبوعين في موعد الانقلاب الصيفي الذي يرافق شهر القيظ، أو شهر رمضان، وكانوا يحجون الى الكعبة ويقدمون القرابين الى أربابهم عند منصرفهم من الطواف، وكانوا يؤدون شعائر الحج عراة الا من الكساء الذي يخصصه السدنة للحج في جوار مكة. فلما جاء الاسلام هذب هذين العيدين وأزال عنها بقايا الصبغة المادية

وحولها الى العبادة الالهية، وساعد على زوال الأثر المادي منها ان الاسلام حرم النسيء وهو زيادة شهور على السنة كل بضعة اعوام لاعادة التاريخ القمري الى الحساب الشمسي الذي تنتظم عليه مواسم الزراعة والتجارة.

الحج والاتصال الاعلامي:

ويمثل الاتصال الاعلامي شكلاً من أشكال الاتصال في الدعوة الاسلامية، اذ يعني الاتصال على مستوى الأمة، الأمر الذي يتفق مع جوهر الاسلام كرسالة للناس كافة وليس لقبيلة أو شعب معين، وهو الأمر الذي لاحظته الأستاذ مونتجمري وات عميد قسم الدراسات العربية الأسبق بجامعة «ادنبرة» في كتابه «الاسلام والجماعة المتحدة» حين ذهب الى أن فكرة «الأمة» كما جاء بها الاسلام هي الفكرة البديعة التي لم يسبق اليها ولم تزل الى هذا الزمن ينبوعاً لكل فيض من فيوض الايمان يدفع بالمسلمين الى «الوحدة» في «أمة» واحدة، تختفي فيها حواجز الأجناس واللغات وعصبية النسب والسلالة. وقد تفرد الاسلام بخلق هذه الوحدة بين أتباعه فاشتملت امته على أقوام من العرب والفرس والهنود والصينيين والمغول والبربر والسود والبيض على تباعد الأقطار وتفاوت المصالح، ولم يخرج من حظيرة هذه الأمة أحد لينشق عليها ويقطع الصلة بينه وبينها، بل كان المنشقون عنها يعتقدون انهم أقرب ممن يخالفونهم الى تعزيز وحدتها ولم شملها ونفي الغرباء عنها.

ويذهب العقاد^(٣) الى أن مونتجمري قد أصاب في التنويه بمعنى «الأمة» في العقيدة الاسلامية، واعتباره أنه معنى فريد خلقتة العقيدة الاسلامية ولم يكن له مرادف في لغة من اللغات قبل ولا بعد الاسلام.

فكلمة Nation التي تقابل هذه الكلمة باللغات الأوروبية، مأخوذة في أصلها من معنى الولادة، ومفادها أن الولادة في مكان واحد هي الرابطة التي

(٣) عباس محمود العقاد: المجموعة الكاملة، م ٦، الاسلاميات ٢، ص ٥٢١.

تكسب أبناء الوطن حقوق هذه الوحدة الاجتماعية، وكلمة People تقابل عندهم كلمة الشعب أحياناً باللغة العربية، وترجع في أصلها الى السكن والاقامة، وكلا المعنيين - معنى الولادة ومعنى السكن - قاصر على الدلالة على «الأمة» التي جاء بها القرآن الكريم في معارض كثيرة تفيد معنى الجماعة الكبرى التي تحيط بشعوب كثيرة، ويلزم من دلالتها وحدة الأمة الاسلامية في نهاية الأمر.

وإذا كان الاتصال الاعلامي بالمعنى الحديث، وبشكله التكنولوجي، يتجاوز اللقاء المباشر والتفاعل المواجهي، فإن الحج يمثل قمة الاتصال بين المسلمين الذين يلتقون فيه من كل فج عميق على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم. وتتحقق فيه الدلالة الاسلامية لمعنى «الأمة» على أفضل نحو، حيث جعل الله البيت العتيق مثابة للناس وأمناً، وجعل الحج من بين أركان الاسلام ومبانيه عبادة العمر وختام الأمر وقام الاسلام، وكمال الدين فيه، على حد تعبير الامام الغزالي رضي الله عنه، وقد أنزل الله عز وجل قوله ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً﴾^(٤).

وقال الله عز وجل ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾^(٥).

وقال قتادة: لما أمر الله عز وجل ابراهيم عليه السلام وعلى نبينا وعلى كل عبد مصطفى أن يؤذن في الناس بالحج، نادى: يا أيها الناس ان الله عز وجل بنى بيتاً فحجوه. وقال تعالى ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾^(٦). قبل التجارة في الموسم والأجر في الآخرة. وهذه المنافع تتضمن فوائد اعلامية بطبيعة الحال من حيث تبادل الأفكار والمعلومات في اطار القيم الاسلامية. وقد جعل رسول الله ﷺ

(٤) سورة المائدة آية ٣

(٥) سورة الحج آية ٢٧

(٦) سورة الحج آية ٢٨

طيب الكلام مع اطعام الطعام من بر الحج، والمهارة تناقض طيب الكلام. ولقد اختار الله سبحانه وتعالى أن تكون مكة المكرمة منزل الوحي والدعوة الاسلامية الأولى، وجعلها مصدر الاعلام العربي على قدر ما عند العرب من معرفة، وبها حج بيت الله الحرام، وملتقى العرب في موسمه، وبها أسواق الأدب البقي يتبارى فيها الشعراء والخطباء في عكاظ وذبي مجاز ومجنة. ولذلك كانت الأحداث فيها تنتقل أخبارها الى بلاد العرب، ومنها سار خبر الرسالة الاسلامية ودعوة النبي ﷺ الى الحق وتجاوبت اصداؤها. ومن العرب من كان يجيء الى مكة المكرمة بهدف التعرف على أمر ذلك الرسول الكريم ﷺ، ومنهم من يرسل اليه من يتعرف دعوته كما فعل أكتهم بن صيفي حكيم العرب، اذ أرسل بنيه الى النبي ﷺ يتعرف ما يدعو اليه، فلما حضروا وسألوا النبي ﷺ، تلا عليهم قول الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٧)، فلما بلغه ما تلا عليهم الرسول ﷺ قال: انه ان لم يكن ديناً فهو خلق الناس أمر حسن، يا بني كونوا في هذا الأمر أولاً، ولا تكونوا آخراً.

وقد أسلم أبو ذر الغفاري بهذا الاعلام العام الذي اشتهرت به دعوة النبي ﷺ. كما أسلم على هذا النحو الطفيل بن عمرو اذ جاءه النبا بدعوة النبي ﷺ، وكان رجلاً شريفاً شاكراً، وكذلك فعل الجارود بن المعلى وغيرهم من زعماء القبائل الذين دخلوا في الاسلام.

الاتصال الحضاري في الاعلام الاسلامي:

والاتصال الحضاري من أهم أشكال الاعلام الاسلامي، لأنه يقوم على أسس اسلامية مستقلة من القرآن والسنة، ويرتكز على التوحيد والايان والتسليم والطاعة لله رب العالمين، ويتفياً الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(٧) سورة النحل آية ٩٠

فاذا كان مقياس المدنية الغربية هو التفوق المادي، فإن الحضارة الاسلامية تقوم على حرية الفكر، ودعم حرية الانسان وكرامته، وتشجيع المعرفة والنظام والمساواة بين الناس في ظل اخاء شامل، وعدل تام وروحانية صافية واعتزاز بالمثل العليا والقيم الاخلاقية. ذلك أن الحضارة الاسلامية قد استمدت مقوماتها من الاسلام ذاته، الذي أتم صقل الأمة العربية والاسلامية وتهذيبها، وأودع في شعوبها طاقات جديدة، وصفى طاقاتها الموروثة فاستأصل منها الغريب والشاذ وما لا يتلاءم مع طبيعة المجتمع المثالي الذي يريده الاسلام.

فالاتصال الحضاري في الاسلام لم ينسخ النظرة الواقعية، بل اهتم بتطويرها ودعا الناس الى الاهتمام بدنياهم الى جانب الاهتمام بدينهم. كذلك وجه عنايته الى رفاهية المسلمين، وتكامل سعادتهم بسعادة الروح والجسد، فسعادتهما مكفولتان في الاسلام ولا يطغى حق واحد منهما على الآخر، وهذه التعادلة في الاتصال الحضاري الاسلامي بين المادة والروح، بين الدنيا والآخرة، بين العقل والقلب، مسايرة لطبيعة الانسان وخلقته، فهو مادة وروح، جسد وقلب، ولقد كان المجتمع العربي قبل الاسلام يحيا على واحدة منهما ويهمل الأخرى، فكانت النتيجة الانغماس في الفوضى وعدم الاستقرار والاختلاف في الوصول الى هدف منشود.. وتكفل التعادلة بين القوتين في الاتصال الحضاري البقاء للانسانية والسير قدما، فالقوانين المادية الوضعية وحدها لا تفي برفاهية الخلق، ولا تنهض وحدها بحل مشكلات الانسان.

والمجتمع المتحضر هو المجتمع الاخلاقي أو «المدينة الفاضلة» بتعبير الفارابي. وهنا يغدو الاتصال الحضاري وسيلة لجعل أمور الحياة خاضعة لقانون الأخلاق النابع من جوهر الاسلام، كدين انساني عام يخاطب الأمم جميعاً فلا يفرق بين أمة وأمة بفارق الجنس أو اللون أو اللغة. فكل انسان في جوانب الأرض أهل لأن يأوي الى هذه الأخوة الانسانية حيث شاء وحين يشاء، قال

تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾^(٨).

هكذا أعلنها القرآن الكريم دعوة عامة منذ ألف وأربعمائة سنة، وهكذا أعلنها النبي عليه السلام وخلفاؤه الراشدون وتابعوهم الأبرار في صدر الاسلام. ولم يمض ربع قرن من التاريخ الهجري حتى قامت بينات الواقع على حقيقة الاتصال الانساني في الدعوة الاسلامية، فدان بالدين الجديد أناس من جميع الأقوام والسلالات، ولم تنقض على الهجرة ثلاثة قرون حتى كان في عداد المسلمين ساميون وآريون وحاميون وطورانيون، عرب وفرس وترك وهنديون وأفريقيون من الاثيوبيين.. وهكذا يتأكد لنا أن الاتصال الحضاري في الاعلام الاسلامي يتسم بالشمولية في مخاطبة الناس جميعاً بلا تفرقة.

يقول العقاد:

«ان ديننا من الأديان الأخرى لم يكسب أمة ذات كتاب عريقة في الحضارة وانما كانت الأديان مقصورة على العصبية القومية، أو على تحويل الوثنيين الذين درجوا على عبادة الأصنام وما يشبه الأصنام من رموز القوى الطبيعية.

فالموسوية قصرت دعوتها على العبريين أو اليهود، ولما قام المكابيون ليكرهوا قبائل البادية على قيود الشعائر اليهودية كانت هذه القبائل وثنية مفرقة في الجهالة، وكان المكابيون يؤمنون بالاله «يهوا» ملكاً تجب له الطاعة على رعاياه، وكانوا من أجل ذلك يسمون امراءهم رؤساء كهان ولا يسمحون لهم بلقب الملك وشاراته ومراسمه، فاكراه القبائل على قبول سلطان «يهوا» انما كان عندهم بمثابة الخضوع السياسي الذي يلزم الأجانب والغرباء كما يلزم أبناء الأمة وأهل السلالة.

والبرهمية ظلت ديانة قومية عنصرية حتى خرجت منها النحلة البوذية،

(٨) سورة سبأ آية ٢٨

فنجحت في تحويل الوثنيين اليها في الصين واليابان ولم تحول اليها قط أمة ذات كتاب. والمسيحية حولت اليها الرومان وغيرهم من الغربيين أو الشرقيين، ولكنهم كانوا جميعاً من الوثنيين الذين وقفوا عند خطوات الدين الاولى ولم يجاوزوها الى عقائد أهل الكتاب.

أما الاسلام فقد حول اليه على خلاف ذلك أعرق الأمم في الحضارة وفي الايمان بالعقيدة الكتابية، فأسلمت فارس وأسلمت مصر وهما على التحقيق أعرق أمم العالم يومئذ في تاريخ الحضارة، وأولاهما كانت تؤمن بالله واليوم الآخر والحساب والعقاب وغلبة الخير على الشر وخلود الروح، وثانيهما كانت تدين بالمسيحية وتحمل لواءها في العالم القديم.

هذه المزية ينفرد بها الاسلام بين جميع الديانات، وهي آية العالمية والصلاح لدعوة الأمم جمعاء، سواء منها الأمم المغفرة في الحضارة والدين، أو الأمم التي لم تبلغ بعد مبلغ الارتقاء في التحضر والاعتقاد^(٩).

فالاتصال الحضاري في الاسلام اذن اتصال موجه الى الانسانية جمعاء على توالي العصور واختلاف الأزمان، وهو ملتزم بما أنزله الله للانسانية، وهو سبحانه وتعالى بكل شيء عليم وبعباده رؤوف رحيم، وهو يهدي الناس الى صراط مستقيم^(١٠).

قال تعالى ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١١).

ولقد اشتمل التشريع القرآني على معالم هذا الاتصال الحضاري من مبادئ وقيم تصلح للانسانية جمعاء، فالأخوة الاسلامية أصبحت هي الأساس

(٩) العقائد: المجموعة الكاملة، م ٨، الاسلاميات ٤، ص ٣٣٥.

(١٠) د. ابراهيم امام: الاعلام الاسلامي ص ٤٥.

(١١) سورة الانعام آية ١٥٣

في الاتصال الحضاري بدلاً من العصبية، والاتحاد أصبح هو العباد الذي يقوم عليه هذا الاتصال. وتتمثل هذه الأسس في الآيات الكريمة:

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١٢).

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(١٣).

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيَطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(١٤).

وان كان التشريع القرآني قد رسم على هذا النحو الأسس التي يقوم عليها الاتصال الحضاري القويم، فقد أكد أن تنكب هذا الطريق واختيار السير في طريق الفساد إنما ينتهي بهدم البناء الاجتماعي والحضاري وتقويض أسسه، ويتمثل هذا الانذار للحضارات المنحرفة في الآيات الكريمة:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْيِرُ مَا بَقِيَ بِقَوْمٍ حَتَّى يَغْيِرُوا مَا بَأَنفُسِهِمْ﴾^(١٥).

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقَرْيَ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾^(١٦).

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا

(١٢) سورة آل عمران آية ١٠٤.

(١٣) سورة المائدة آية ٢.

(١٤) سورة التوبة آية ٧١.

(١٥) سورة الرعد آية ١١.

(١٦) سورة هود الآيتان ١١٦ - ١١٧.

القولُ فدمرناها تدميراً﴿١٧﴾.

والأمثلة على انهيار الحضارات كثيرة، فهي هو محمد اقبال يقول «مثلت حضارة الغرب دورها وقد شاخت وهرمت، أينعت كالفاكهة وحان قطافها، وسوف ينهار العالم الذي حوله مقامرو الغرب الى حالة من الفساد، ولقد رأت اوربا بعينها النتائج المخيفة لمثلها الاقتصادية والاخلاقية والعلمية. ولسوف تتمخض الانسانية عن عالم جديد، وهذا العالم لا يحسن تصميمه الا من بنى للبشرية البيت الحرام، وورث محمداً وابراهيم قيادة العالم».

ولقد تنبأ المؤرخ الانجليزي توينبي بانهيار حضارة الغرب المعاصرة كما انهارت حضارة روما، ويذهب كولن ويلسون الى أن عالم اليوم يمر بنفس الظروف التي مرت بها حضارة الرومان. وكتب «جيبون» في كتابه «انهيار الامبراطورية الرومانية وسقوطها» يقول «ان روما تحولت الى حضارة لا تفكر الا في الجنس والحرب».

والتشريع القرآني يبين الأسس القوية للاتصال الحضاري السوي كما يبين عوامل هدم الحضارات المنحرفة، ويذكر المؤمنين على الدوام بنعمة قيام الأمة المتحدة المؤتلفة بعد تنازل، ويحذر من الجاهلية التي تعيد الفرقة بعد الوحدة، ويتضح ذلك في الآيات الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾^(١٨).

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(١٩).

(١٧) سورة الاسراء آية ١٦

(١٨) سورة آل عمران الآيتان ١٠٢ - ١٠٣

(١٩) سورة الأنفال آية ٤٦

وتأسيساً على هذا الفهم نحاول استخلاص مظاهر الاتصال الحضاري في الاعلام الاسلامي فنجد أنه يقوم على الشورى والعدل كركنين أساسيين للوسيلة والهدف.

وتبيّن الآيات الكريمة هذا التحول من النظام القبلي الى الاتصال الحضاري في الاعلام الاسلامي:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (٢٠).

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ (٢١).

والاسلام في تجددته وتجديده وانطلاقه وامتداده ليس الا تفسيراً حقيقياً للطبيعة المتجددة والطبيعة الممتدة في الحياة، فالله جل شأنه قد مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً، كما قال في محكم آياته، والله لم يجعل الليل سرمداً ولم يجعل النهار سرمداً، ولكن جعلهما موصولين امتداداً وانطلاقاً الى أبد الآبدين. ولو وقف الكون عند نهار دائم وحسب أو ليل دائم وحسب، لكان ذلك جموداً لا تصح به الحياة ولا يصح عليه الأحياء.

والاسلام من طبيعته التجديد وليس من طبيعته الجمود، وآية ذلك دعوته الدائمة الى العلم وحثه عليه. وقد أعلى الاسلام من شأن العلم ولم يساو بين عالم وغير عالم، لأنه يريد للناس والانسانية أن يتجددوا مع الحياة، ولا يقفوا بها عند حد معين.

(٢٠) سورة النساء آية ٥٩.

(٢١) سورة آل عمران آية ١٥٩.

ولعل ايراد بعض آيات من مادة «العلم» في القرآن يساند هذه القضية، فالقرآن يقول ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ

درجاتٍ﴾^(٢٢)، ويقول ﴿هَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾^(٢٣)، ويقول ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾^(٢٤)، ويقول ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ﴾^(٢٥)، ويقول ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢٦). فالعلم متغير، متجدد، قابل للتطور والارتقاء وليس كذلك العبادات. ومن هنا كانت دعوة الاسلام الى العلم، لأنها دعوة الى التجديد في الحياة.

وليس المقصود بالعلم هو علم الدين كما فهمه بعض الجامدين من المسلمين، وجاراهم فيه خبثاء المستشرقين والباحثين في الاسلام، من أمثال «سيكار» الفرنسي الذي ملأ مجلة «مراكش الكاثوليكية» في الثلاثينات من هذا القرن بادعاءات وطعون في الاسلام زعم فيها ان الاسلام لم يدع الى العلم بفهمه العام، ولكنه دعا الى علم الدين، وذلك ليجرد الاسلام من فضيلة الدعوة الى العلم مطلقاً والحث عليه... ونسي المسكين الحديث النبوي (اطلبوا العلم ولو في الصين) فلو كان العلم هنا دينياً ما دعا النبي الى طلبه في الصين، لأن أهلها من عباد الأوثان.. وهذا الحديث مما رواه العقيلي، وابن عدي، والبيهقي وابن عبد البر عن أنس.

والاسلام - في دعوته الى التجديد والانطلاق في آفاق الكون، والنظر الى ملكوت السموات والأرض، وعدم الجمود عند حد معين - لم يجر على سنن غريب عليه، وليس منه.. فهو في ذاته مجدد مصلح منذ أن دعا النبي الى سبيل

(٢٢) سورة المجادلة آية ١١

(٢٣) سورة العنكبوت آية ٤٩

(٢٤) سورة آل عمران آية ١٨

(٢٥) سورة البقرة آية ٢٤٧.

(٢٦) سورة الزمر آية ٩

ربه.. وهو أبو التجديد ورائده.. وخاصة في كثير من شئون التشريع، فقد أتى على نظم الجاهلية وأدخل عليها من التجديد والاصلاح ما جعله حرياً بأن يوصف بالتجديد لا بالجمود..

لقد قلل من تعدد الزوجات وكان مطلقاً بلا قيود، وجعل نظام الميراث يتسع ليقبل المرأة والصغار من أبناء الميت، فقد روي عن ابن عباس انه قال «لما نزلت الفرائض التي فرض الله فيها للولد الذكر والانثى والأبوين كرهها الناس وقالوا: تعطى المرأة الربع والثلث، وتعطى الابنة النصف، ويعطى الغلام الصغير، وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم ولا يحوز الغنيمة». وهذا يدل على انهم كانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغار من أبناء الميت وانما يورثون من يلاقي العدو ويقاتل في الحروب.

واذا كان الاسلام قريناً للتجديد وداعياً له، فما بال المسلمين قد تأخروا - وخاصة في القرون الأخيرة الى اليوم؟ الحق أن هذا التأخير ليس من الاسلام ولكنه من المسلمين حين جمدوا وركنوا الى التوقف، بل مالوا الى معاداة العلم، ومحاربة الاصلاح وسدوا على أنفسهم باب الاجتهاد، والا فكيف نعلل ازدهار الاسلام وقوة المسلمين وتقدمهم في القرون الاولى للاسلام، وتأخرهم وهوانهم على الناس وعلى أنفسهم في العصور الأخيرة، مع ان الدين واحد والعبادات واحدة؟ الحق ان طرائق المسلمين الآن غير طرائق المسلمين السابقين، فليس غريباً أن تتفرق بهم السبل عن سبيل الله.

الاعلام الاسلامي بين الاعلام الانساني والاعلام الدولي(*)

ان الاعلام الاسلامي قد أرسى دعائم تتفوق على ما يعرف اليوم بالاعلام الدولي ذلك أن الاسلام قد أرسل للناس كافة، وأكد على الاتصال والتفاهم بين الأمم والشعوب فقال الله جل شأنه في كتابه الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾^(١).
فالاعلام الاسلامي أشمل من مفهوم الاعلام الدولي بالمصطلح الاتصالي الحديث ذلك أن القرآن يؤكد أن الانسانية كلها أمة واحدة.

ويقول سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِأُذُنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٢).

(*) مجلة هدى الاسلام (٣٠)

(١) سورة الحجرات آية ١٣

(٢) سورة البقرة آية ٢١٣

الاعلام الاسلامي والإعلام الدولي:

ومن ذلك يتضح ما نعينه بشمولية الاعلام الاسلامي في المصطلح الحديث ذلك أن القرآن الكريم الذي تنبع منه نظرية الاعلام الاسلامي يؤكد على وحدة الانسانية، يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(٣).

فالاعلام الاسلامي يقوم على أسس من صلة الرحم بين بني الانسان، وعلى أساس من التعارف والمودة وقرار السلام، ولذلك فإن الأصل في الاعلام الاسلامي هو الود والتراحم لا العداوة القاطعة، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ فان زلتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم^(٤).

وتأسيساً على هذا الفهم يمكن القول ان الاعلام الاسلامي يتجاوز مصطلح «الاعلام الدولي» الى أن يكون هو «الاعلام الانساني» الأشمل الذي يدعو الى دين الوحدة والوحدة الانسانية معاً، وان اختلف الناس أجناساً وقبائل، قال جل شأنه في القرآن الكريم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ السِّنِّكُمْ وَالْوُجُوهِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾^(٥).

ونظرية الاعلام الاسلامي الانسانية، التي تتجاوز مصطلح الاعلام الدولي المعاصر، تقوم على أساس المساواة كما جاء في قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾^(٦).

(٣) سورة النساء آية ١

(٤) سورة البقرة الآيتان ٢٠٨ - ٢٠٩

(٥) سورة الروم آية ٢٢

(٦) سورة الحجرات آية ١٣

فالمساواة هي أساس الاعلام الانساني في الاسلام، كما ان التعارف يقتضي من وسائل الاعلام اشاعة المودة والتعاون في كل أنحاء العالم.

والعدالة أساس العلاقات الانسانية في الاعلام الانساني، يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنَّ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أُولَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (٧).

ودستور الاعلام الاسلامي في العلاقة الانسانية العامة، قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٨).

وقوله جل شأنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (٩).

الاعلام الاسلامي والرأي العام العالمي:

وليس من قبيل التعصب ان نذهب الى أن الاعلام الاسلامي قد وضع الحلول الناجعة لكل المشكلات التي يعاني منها اليوم الاعلام الدولي بالمصطلح الحديث والذي يسعى الى تكوين الرأي العام العالمي، في حين ان الاعلام الاسلامي يسعى الى تكوين الرأي العام الانساني في اطار من الوحدة الانسانية، وعلى أسس من العدالة والتعاون والتواد والسلام.

وهنا تتضح الفروق بين ما نعبه بمصطلح «الاعلام الانساني» في الاسلام، ومصطلح الاعلام الدولي المعاصر، ذلك ان الأخير يعاني من الاحتكاك والصراع الدولي، وفي كثير من الأحيان يصبح من أهم عوامل

(٧) سورة النساء آية ١٣٥

(٨) سورة المائدة آية ٨

(٩) سورة النحل آية ٩٠

الصراع الذي قد يؤدي الى الحروب والدمار، لأن الاعلام الدولي المعاصر يسعى الى السيطرة على العقل البشري من خلال عملية الاتصال التطوعية وغيرها من العمليات الاتصالية. فالاعلام الدولي تعبير عن طبيعة العلاقات الدولية المعاصرة والتي يغلب عليها طابع الحرب النفسية وتحطيم الروح المعنوية لدى الشعوب الأخرى، على نحو ما نعرف اليوم من دلالات المصطلحات التي شاعت في عصرنا كالحرب الباردة والحرب الايديولوجية وحرب الأعصاب والحرب السياسية وحرب القوة الفكرية وما الى ذلك، مما يكشف في مجموعه عن عدم موضوعية ما يطلق عليه تجاوزاً بالاعلام الدولي واستهدافه التأثير على آراء وسلوك وعواطف جماعات أو دول أجنبية عدائية أو محايدة أو صديقة. وذلك من أجل متابعة سياسة الدولة ومصالحها.

وعلى هذا الفهم يمكننا أن نتعرف على الحلول الشاملة والجذرية التي يقدمها الاعلام الانساني في الاسلام لمشكلات الاعلام الدولي، والتي تظهر من خلال المؤتمرات الدولية للصحفيين في شيكاغو وبلجيكا عام ١٨٩٣، والتي لم تحقق شيئاً يذكر غير بعض التوصيات التي محتها الدعاية والرقابة خلال الحربين العالميتين. ويمكن أن نجد هذا الصدى كذلك في اهتمام عصبة الأمم بمشكلات الاعلام الدولي من خلال المؤتمرات التي عقدت تحت رعايتها عام ١٩٢٧ في جنيف وعام ١٩٣٢ في كوبنهاجن وعام ١٩٣٣ في مدريد، وكانت أهداف مؤتمر خبراء الصحافة الذي عقد في جنيف ما يلي:

أولاً: البحث في الوسائل التي تكفل الانتقال السريع للأعمال الصحفية بأقل النفقات، مع نظرة الى تقليل مخاطر سوء التفاهم الدولي.

ثانياً: مناقشة جميع المشكلات الفنية التي يرى الخبراء ان علاجها سيؤدي الى تهدئة الرأي العام الدولي في الدول المختلفة وقد ظهرت رغبة عصبة الأمم في القضاء على انتشار المعلومات الكاذبة عن الدول في مؤتمر مكاتب الصحافة الحكومية الذي عقد عام ١٩٣٢، وقد أصرّ المجتمعون على

ألا تكون الاجراءات التي تتخذ لتحقيق هذا الأمر ماسّة بالحريّات الأساسية للصحافة. وقد نوقشت هذه المشكلة ذاتها في مؤتمر مكاتب الصحافة الحكومية الذي عقد عام ١٩٣٣ ولكن شيئاً محدداً لم ينبثق عن هذه المؤتمرات^(١٠).

الاعلام الاسلامي وحقوق الانسان:

واهتمّت هيئة الأمم كذلك بعد الحرب العالمية الثانية بمشكلة حرية الاعلام، وجاء ذلك في ذكر حقوق الانسان ومن بينها حرية الاعلام سبع مرّات في ميثاق الأمم المتحدة، كما نوقشت هذه الكلمة في الجمعية العامة والمجلس الاقتصادي والاجتماعي مرّات عديدة. وتضمّن دستور اليونسكو انه «لما كانت الحروب تبدأ في عقول الرجال فينبغي أن تبنى دفاعات السلام في عقول الرجال أيضاً» وأشارت الى ضرورة الاهتمام بالاعلام عن حقائق العلم والثقافة والتربية من أجل بناء وتدعيم السلام.

وهنا نجد ان النظرية الاعلامية في الاسلام تقوم على أساس انساني، وتؤكد حقوق الانسان قبل كل الايديولوجيات والمواثيق الدولية تأكيداً ينبع من مخاطبة الفطرة الانسانية، وان دستور الاعلام الاسلامي يتجمع ويتبلور في قول الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾^(١١) وفي قوله الكريم الموجه الى الرسول الكريم ﷺ: ﴿أَفَأَنْتَ تَكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(١٢) فالاسلام ليس دين اكراه، ولكنه يفرض على الاعلام الاسلامي أن يبشّر بالهداية والدعوة بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، ومن الحقائق الثابتة انه ما أكره على الاسلام فرد واحد من أصحاب العقائد السهاوية، في حين أن الدعاية الدولية اليوم تحرص على اغتصاب عقول الجماهير باسم الاعلام الدولي تارة، والاتصال الثقافي تارة أخرى، ولكنها تتفق في عمليات غسل المخ الجماعية، وممارسة أسباب الضغط على الجماهير لاعتناق أفكار معيّنة ومعتقدات جديدة، وهذه الأساليب يطلق

(١٠) د. أحمد بدر: الاعلام الدولي، ص ١٣٦

(١١) سورة البقرة، الآية ٢٥٦.

(١٢) سورة يونس، الآية ٩٩.

عليها أساليب قتل العقل، كما يقول العالم النفسي الهولندي ميرلو، لأنها تحيل الانسان الى كائن لا حول له ولا قوة، وتخضعه اخضاعاً للتعاليم الجديدة، اذ تتضافر فنون الضغط الثقافي والعاطفي مرتبطة بالضغط البدني للسيطرة على الانسان.

فالاعلام الدولي بالمصطلح الحديث لا يخرج عن مفهوم الدعاية كنشاط أو فن لاغراء الآخرين بالتصرف بطريقة معينة على نحو ما نعرف عن الدعاية التبشيرية والدعاية السياسية في وسائل الاعلام العالمية، والدعاية الرمزية في الحرب النفسية.. وعلى نحو ما نعرف عن عمليات الانتقام النازية التي كان يقصد منها ارهاب الفئات الأخرى التي قد تحاول المقاومة، وما نعرفه عن الغارة الانجليزية التي وجهت الى برلين في أثناء اللقاء الوزير جورنج خطاباً له من الاذاعة، اذ كانت أصوات القنابل الانجليزية وهي تنفجر في سماء برلين تكذب ما كان يزعمه جورنج من أن سماء برلين لا يمكن أن تقهر، فالدعاية الدولية مفهوم متدهور للاعلام لا يرمي الى الاقناع بقدر ما يرمي الى انتهاك حقوق الانسان. فأصبح الاعلام الدولي وفقاً لهذا المفهوم من وسائل جعل الانسان يعيش في فراغ وضياح، وأدى به الى ان فقد جوهر انسانيته فأصبح على الرغم من التكنولوجيا الحديثة مفقداً انسانيته، وهنا لا مفر من الرجوع الى الاسلام في الوصول الى نظرية اعلامية تواجه حقوق الانسان. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾^(١٣).

وفي سورة الفاتحة الدعاء الذي يتغياها الاعلام الانساني في الاسلام: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾^(١٤).

(١٣) سورة الصف آية ٩

(١٤) سورة الفاتحة الآيتان ٦-٧.

الاعلام الانساني في الاسلام:

والاعلام الانساني في الاسلام اعلام إيجابي يصل بين الانسان وخالقه، ويوضح حقائق الهداية، ويوجه الانسان الى البناء من أجل الدنيا والآخرة.

ويقوم الاعلام الاسلامي على أساس من الخير الشامل الذي لم يستطع مذهب من المذاهب الاخلاقية الاعلامية أن يكفله مبرأ من الانسانية، أو الاستجابة لنوازع الأهواء الدعائية سياسياً أو دينياً، ذلك أن الاعلام الاسلامي ينهل من الاخلاق المثلى التي وضعها الاسلام لتحقيق الخير المحض للانسان في كل زمان ومكان، كما تمتاز نظرية الاعلام الاسلامي بأنها نظرية صالحة لكل الشعوب في كل زمان ومكان، لا ارهاق فيها ولا اعنات.

يقول الله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾^(١٥) ويقول جلّ شأنه: ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا أَلَا وَشَعَهَا﴾^(١٦).

وانطلاقاً من هذا الفهم يمكن أن نتناول هنا في ضوء دراسة هذا المنهج الاعلامي المبادئ التي قام عليها الاعلام الاسلامي وفي مقدمتها دعم نظرية الاعلام الانساني:

الصدق:

ذلك أن الاسلام جعل الصدق فضيلة الانسان، بوجه عام، وهي بالقياس الى الاعلام الاسلامي تكون أهم مقومات تصديق المصدر أو المرسل الذي يبلغ دعوة الله كما جاءت، ويبين غوامضها، وينقل كل بيان قيل في شأنها. ولذلك كانت أهم صفة اشتهر بها الرسول عليه الصلاة والسلام هي صفة «الصادق الأمين».

ولما سأل هرقل أبا سفيان - ولم يكن قد أسلم بعد - عن محمد قائلاً:

(١٥) سورة البقرة آية ١٨٥

(١٦) سورة البقرة آية ٢٨٦.

وهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ أجابه: لا.. فقال هرقل: اعرف انه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله^(١٧).

وهرقل هنا يمثل دور المستقبل - في نموذج الاعلام الدولي خاصة - الذي يشترط الصدق في المصدر، لأن من يلتزم الصدق مع الناس يكون صادقاً مع ربّه سبحانه وتعالى، وكان النبي ﷺ يؤكد على هذا المعنى الاتصالي في بدء الدعوة والجهربها حينما قال للناس: «لو أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل، أكنتم مصدقي؟»، قالوا جميعاً: «ما جرّبنا عليك كذبا»^(١٨).

وفي القرآن الكريم يؤكد الله تعالى في أكثر من آية على التزام الصدق في كل شيء، فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾^(١٩)، وقال تعالى: ﴿انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا﴾^(٢٠)، وقال سبحانه: ﴿وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾^(٢١)، وقال جل شأنه: ﴿والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون﴾^(٢٢)، ويقول النبي عليه الصلاة وأزكى السلام: «عليكم بالصدق فان الصدق يهدي الى البر والبر يهدي الى الجنة»^(٢٣).

والمرسل في الاعلام الاسلامي يظهر صدقه في وجهه وصوته وما يخطه قلمه، فقد كان ﷺ يتحدث الى من لا يعرفونه فيقولون: «والله ما هو بوجه كذاب ولا صوت كذاب»^(٢٤).

(١٧) صحيح البخاري: ج ١، ص ٥ - ٦، باب بدء الوحي.

(١٨) صحيح البخاري: ج ٦، كتاب التفسير.

(١٩) سورة التوبة آية ١١٩

(٢٠) سورة مريم آية ٥٤

(٢١) سورة الحشر آية ٨

(٢٢) سورة الزمر آية ٣٣

(٢٣) موطأ مالك: ج ٤، ص ٢٢٧، ما جاء في الصدق.

(٢٤) تذكرة الدعاة للبهى التحولي.

وليس من شك في أن ظهور أثر الصدق في القائم بالاعلام الاسلامي يؤثر في الجمهور المتلقي ويحمله ذلك على قبول رسالته الاعلامية واحترامها.

الصبر والثبات:

فالمثابرة على الدعوة من أهم صفات الإعلامي المسلم، وهذه المثابرة تقتضي الصبر الذي يعد نصف الايمان، وهو لغة: الحبس والكف، وشرعاً، على ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على المصائب والبلاء. ذلك ان الاعلاميين والدعاة مبتلون بأذى الكفار والمارقين بالقول والكيد.. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢٥)، وقال جل شأنه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (٢٦)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ (٢٧).

فالصبر والثبات هما عدّة الاعلاميين والدعاة في الاسلام، وقد أودى أصحاب الرسول عليه السلام أشد الأذى، وكان ﷺ يأمرهم بالصبر (صبراً آل ياسر ان موعدكم الجنة)، فالاعلاميون والدعاة المسلمون يقابلون الأذى بالصبر الجميل، ولذلك يؤكد الدارسون المسلمون في علم الدعوة على ضرورة توافر عدد من الشروط في المرسل في نظرية الاعلام الاسلامي:

١ - أن يدعو الاعلامي المسلم الى الله على بصيرة بالوسائل والكيفيات المشروعة التي بينها القرآن الكريم وطبقها النبي عليه السلام، فاذا أدّت

(٢٥) سورة الانعام آية ٣٤.

(٢٦) سورة الحجر آيات ٩٧ - ٩٩.

(٢٧) سورة الروم آية ٦٠.

هذه الوسائل الى أذى يصيب الداعي فعليه أن يتقبله بالصبر لا بالجزع، وبالثبات لا بالفرار.

٢ - إذا كان الاعلامي المسلم قادراً على توقي الأذى، فعليه أن يتوقاه حسب الظروف والأحوال، لأن فيه فتنة مهولة العاقبة، جاء في الحديث الشريف (لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه).

قالوا: «وكيف يذل نفسه يا رسول الله؟».

قال: «يحتمل من البلاء ما لا يطيق»^(٢٨).

٣ - من الأدعية الماثورة ان يسأل المسلم ربّه العفو والعافية، وفي وصيته عليه السلام لأسامة بن زيد وقد جعله أميراً على الجيش لغزو الروم قبل وفاته عليه السلام بأيام، قال له «ولا تتمنوا لقاء العدو فانكم لا تدرون لعلكم تبتلون بهم، ولكن قولوا اللهم اكفناهم واكف بأسهم»^(٢٩)، وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾^(٣٠).

ولقد هاجر المسلمون من مكة الى الحبشة فراراً بدينهم وتخلصاً من أذى قريش فدل ذلك على جواز دفع البلاء والأذى وعدم الاستسلام له، لأن نفس المسلم ليست ملكه وإنما هي ملك لله، فلا يجوز ائلافها بلا فائدة تعود الى الاسلام، والاعلامي أو الداعي المسلم لا يستدعي الأذى لنفسه، بل يعمل على عدم وقوعه. وإذا وقع عمل على دفعه بكل وسيلة مشروعة في ضوء القرآن والسنة.

٤ - اذا وقع الضرر والأذى على الاعلاميين والدعاة المسلمين رغم التزامهم بالسير المشروعة في الدعوة والاعلام الاسلامي، فعليهم أن يستعينوا بالله ويصبروا الصبر الجميل، وليعلموا ان الأمور كلها بيد الله تعالى^(٣١).

(٢٨) إمتاع الاسماع، ص ٢٨.

(٢٩) سيرة ابن هشام، ص ٣٣.

(٣٠) سورة الأحزاب، آية ٢٥.

(٣١) د. عبد الكريم زيدان: اصول الدعوة، ج ١، ص ٥٣.

الرحمة والعفو والتواضع:

وهذه الأخلاق الإسلامية جميعاً تعد من صفات الداعية المسلم ورجل الاعلام الإسلامي - محلياً ودولياً - فقد قال عليه الصلاة والسلام «لا يرحم الله من لا يرحم الناس»، «لا تنزع الرحمة إلا من شقي»، «الراحمون يرحمهم الله تعالى، ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم من في السماء».

ذلك أن رسول الاسلام عليه أفضل الصلاة والسلام قد وصفه الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٣٢).

فالرحمة اذن مبدأ من المبادئ المثلى في الاعلام الإسلامي، لأنها تؤدي في نهاية الأمر الى تحقيق التواصل في كيان الأمة الإسلامية على أرفع مستوى تحلم به نظريات الاتصال والاعلام في القديم والحديث.

عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «مثل المؤمنين في توادهم وتعارفهم وتراحمهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»، أخرجه البخاري ومسلم.

والتراحم لغة: التواد والتعاطف، وكلها من باب التفاعل الذي يستدعي اشتراك الجماعة في أصل الفعل، وكذلك التواصل، وبينها - وإن تقاربت في المعنى - فرق لطيف، فالتراحم: رحمة بعضهم بعضاً بأخوة الإيمان لا بسبب آخر، والتواد: التواصل الجالب للمحبة، والتعاطف إعانة بعضهم بعضاً كما يعطف الثوب على الثوب تقوية له. وتداعوا: دعا بعضهم بعضاً، وهكذا يستخدم الرسول عليه الصلاة والسلام هذه الألفاظ الدالة على جوهر الاتصال والاعلام ودلالة التراحم فيها، فيمثل ﷺ المؤمنين في هذه الخلال بالجسد الواحد، فكما أن الجسد اذا مرض منه عضو تألم له كل أعضائه، فكذلك

(٣٢) سورة التوبة آية ١٢٨

المؤمنون يسعون بالتعاطف لدفع الألم عن أي مصاب فيهم، ويحبون له الخير، فالمسلمون في نظرية الاتصال الانساني - على الصعيدين المحلي والدولي - كشخص واحد، وكل فرد منهم بالنسبة للمجموع كعضو بالنسبة للشخص، فالخير يصيب الواحد منهم كأنما أصابهم كلهم، والشر يصيبه كأنما أصابهم جميعهم.

ونخلص مما تقدّم الى أن نظرية الاعلام الاسلامي تذهب الى العمل على نشر الدعوة الاسلامية بكل الوسائل المشروعة، لأفراد الأمة الاسلامية ولغيرها من الأمم الأخرى.

الاسس الاعلامية للأدب الاسلامي(*)

في تاريخ الرسالات نرى أن الدعوة الاسلامية هي الرسالة العامة الى كل الخلق، وأن الرسالات السابقة تعتبر تمهيداً للإسلام، وقد صور النبي ﷺ هذه الحقيقة بقوله «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون ويقولون: أهلاً وضعت هذه اللبنة.. فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»^(١).

ومع هذا الترابط بين دعوات الله في الناس فإن الدعوة الاسلامية تتميز عن سائر الدعوات الالهية بميزات نرى انها تمثل سمات الاعلام الاسلامي، ومنها:

١ - أن الاعلام الاسلامي وسيلة لدعوة اكتملت فيها نعمة الله باكتمال دعوته في العالمين، ومناسبتها للرقى الانساني في أرقى مظاهره في كل زمان ومكان.

٢ - أن الاعلام الاسلامي يحقق الفردية والجماعية، وبذلك يخالف التعادلية بين المادة والروح في حياة الماديين الذين يتجهون الى نيل أكبر قسط من المادة مع اغفال كثير من المعاني الانسانية، ويخالف الروحانيين الذين ينادون بقتل النفس بالزهد والحرمان.

وعلى ذلك فإن التحليل الوظيفي للاعلام الاسلامي يذهب الى أن

(*) مجلة الفن الاذاعي في القاهرة ١٩٨٧.

(١) صحيح مسلم ج ٧ ص ٦٤، ٦٩.

يرضى ضرورات الجسد والروح معاً: النفس والنسل والعقل والدين والمال، وهي الضرورات التي تتعلق بها مصالح الدنيا والآخرة، ويتحقق بها السلام والسعادة، يقول الشاطبي: «وبمجموع الضرورات خمس: وهي حفظ الدين، النفس، النسل، المال، والعقل.. وهذه الضرورات ان فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة بل على فساد والرجوع بالخسران المبين».

٣- ان الاعلام الاسلامي - كما تقدّم - ينبع من شمول التشريع الاسلامي لأنواع الناس ولكافة مراحل تطور الانسان، وبذلك يشمل كيان الفرد كله والمجتمع بأسره، ولا تفرقة بين ذكر واثى ولا ميزة للون أو الجنس، أو لعارض من عوارض الدنيا، وبذلك يسعى الاعلام الاسلامي لتحقيق الاخاء والعدل والحرية والمساواة.

٤- يراعي الاعلام الاسلامي طبيعة الانسان ويتفق مع فطرته في كل أمور دينه ودنياه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾^(٢).

الاعلام الاسلامي والفطرة الانسانية:

تقوم الأسس الاتصالية للاعلام الاسلامي على قوانين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهي القوانين التي تدفع بمفكري العصر الى المناداة بدراسة الانسان، فالاعلام الاسلامي إذن يقوم على «انسانية الانسان»، يقول سبحانه وتعالى في سورة العلق: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ • خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ • اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ • الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ • عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ • كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَ طَافٍ • أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى • إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾^(٣).

وعبادة الانسان لله سبحانه وتعالى إرادية وواعية في جانب منها على

(٢) سورة الأحزاب، آية ٧١.

(٣) سورة العلق، آيات ١ - ٨.

الأقل، بخلاف عبادة غيره من الكائنات، فإذا كانت الذرة تعبد الله بالطاعة لا إرادة فيها ولا وعي، وإذا كان الكون والأرض وما عليها من نبات وحيوان تعبد الله على نفس الطريقة، فإن الانسان الى جانب هذا اللون من الطاعة قد ألهم طريقين لا طريقاً واحداً؛ طريق الطاعة وطريق العصيان، وأعطى القدرة على التمييز بين الطريقين واختيار أحدهما والمضي فيه ﴿وهديناه النجدين﴾^(٤) ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾^(٥).

﴿ونفس وما سواها . فآلهمها فجورها وتقواها . . قد أفلح من زكّاه .
وقد خاب من دسّاه﴾^(٦).

ومن ثم فالانسان هو المخلوق الوحيد من مخلوقات الأرض - الذي يعبد الله عن وعي وفهم وإدراك، وهو كذلك المخلوق الوحيد في الأرض الذي يعصي الله حين ينحرف عن طريق الهداية ويختار طريق العصيان. ولكنه في الحالين «يدرك» وجود الله سبحانه وتعالى، ويدركه بالفطرة.. ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا﴾^(٧).

وللفطرة طريقة خفية في ادراك وجود الله سبحانه وتعالى والايمان بوجوده والاتصال به، والاستعانة به، والتزود من زاده.

وانطلاقاً من هذا الفهم، فإن الاعلام الاسلامي يقوم على الفطرة، ويخاطب العقول ويقنعها بالدليل، ذلك أن الاسلام يقدر العقل المدرك، وقد حفل القرآن الكريم بخطاب «العقل» كل ملكة من ملكاته، قبل أن يصبح العقل «درساً» يتقصاه الدارسون كنهاً وعملاً، وأثراً في داخله وفيما يخرج عنه،

(٤) سورة البلد، آية ١٠.

(٥) سورة الانسان، آية ٣

(٦) سورة الشمس، آيات ٧ - ١٠

(٧) سورة الاعراف، آية ١٧٢.

وفيما يصدر عنه، وفيما يصدر منه، وما يثول اليه.. على حد تعبير العقاد.. فالعقل وازع «يعقل» صاحبه عما يأباه التكليف، والعقل فهم وفكر يتقلب في وجوه الأشياء وفي بواطن الأمور.. والعقل رشيد يميز بين الهداية والضلال، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبُّنَا مَا خَلَقَتْ هَذَا بَاطِلًا﴾^(٨). ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾^(٩).

فالإيمان بالعقل المستول، إذن، هو أساس الاعلام الاسلامي على نقيض ما يحدث اليوم في أنحاء العالم من ضغوط على الجماهير لاعتناق أفكار معينة والإيمان بمعتقدات جديدة، وعلى نقيض ما يسميه عالم النفس الهولندي قتل العقل Mentecisal وهنا يصبح الاعلام الاسلامي هو النموذج الأمثل في تحقيق ما تسعى اليه النظريات الاعلامية من جعل الاعلام يزود الناس بالاخبار الصحيحة والمعلومات السليمة والحقائق الثابتة التي تساعد على تكوين رأي صائب في واقعة من الوقائع أو مشكلة، بحيث يعبر هذا الرأي تعبيراً موضوعياً عن عقلية الجماهير واتجاهاتهم وميولهم.

فالاعلام الاسلامي يقوم على الوضوح والصرامة ودقة الاخبار والمعلومات، لأنه يخاطب العقل في المحل الأول، انطلاقاً من فهم القرآن الكريم، حيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(١٠).

ومن فهم الآيات الكونية التي خاطبت العقل، والتي منها قول الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجْمُ مَسْخَرَاتُ بَأْمَرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(١١).

(٨) سورة آل عمران، آية ١٩١.

(٩) سورة الروم، آية ٨.

(١٠) سورة يوسف، آية ٢.

(١١) سورة النحل، آية ١٢.

ويعيب القرآن الكريم على من يهمل عقله، يقول تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ
النَّاسَ بِالْإِثْمِ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(١٢).

فتراه سبحانه ينكر تعطيل العقل عند من يفعل ذلك، ويوضح
الزمخشري في تفسيره هذا وهو يقول: أفلا تفتنون لقبح ما أقدمتم عليه حتى
يصدكم استقباحه عن ارتكابه، وكأنكم في ذلك مسلوبو العقول فانها في الواقع
تأباه وتدفعه.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا
يَعْقِلُونَ﴾^(١٣).

ومن أجل ذلك يشترط الاعلام الاسلامي الالتزام بمعايير الصدق
والأمانة، وتزويد الناس بالمعلومات الصحيحة والحقائق الواضحة التي يمكن
التثبت من صحتها أو دقتها بالنسبة للمصدر الذي تنبع منه أو تنتسب إليه، وقد
بين الله تعالى ذلك فقال جل شأنه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَإِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(١٤).

يقول ابن كثير - بعد أن عدد بعض ما في هذه الآيات من عجب - انها
لأصحاب العقول التامة التي تدرك الأشياء بحقائقها على طبيعتها، ذلك لأن
اللب هو كمال حال العقل.

وتأسيساً على هذا الفهم يمكن القول ان الاعلام الاسلامي يخاطب
الفطرة الانسانية، ذلك ان الله سبحانه وتعالى قد خلق الانسان في أحسن
تقويم، وكرمه على كثير من خلقه، ورزقه من الطيبات وابتلاه بالخير والشر
فتنة، ونفخ فيه من روحه، ووهبه العقل، ومنَّ عليه بالرسول والأنبياء ينبرون

(١٢) سورة البقرة، آية ٤٤.

(١٣) سورة الأنفال، آية ٢٢.

(١٤) سورة آل عمران، آية ١٩٠.

له طريق الحياة ويهدونه سواء السبيل، ثم جعله مستولاً وان أحسن فلنفسه وان أساء فعليها.

والصفات الآتية هي الصفات التي فطر الله الناس عليها كما وردت في القرآن الكريم:

- كرمه الله ورزقه وفضله على كثير من خلقه: ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾^(١٥).

- خلقه الله تعالى في أحسن تقويم.. خلقاً وخلقاً وعقلاً: ﴿يا أيها الانسان ما غرَّك بربك الكريم . الذي خلقك فسواك فعدلك . في أي صورة ما شاء ركبك . كلا بل تكذبون بالدين . وإن عليكم لحافظين . كراما كاتبين . يعلمون ما تفعلون﴾^(١٦).

﴿ولقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجرٌ غيرٌ ممنون﴾^(١٧).

- نفخ الله فيه من روحه: ﴿ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم . الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين . ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والابصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾^(١٨).

- استخلفه الله تعالى في أرضه: ﴿واذ قال ربك للملائكة اني جاعل

(١٥) سورة الاسراء، آية ٧٠.
(١٦) سورة الانفطار، آيات ٦ - ١٢.
(١٧) سورة التين، آيات ٤ - ٦.
(١٨) سورة السجدة، آيات ٦ - ٩.

في الأرض خليفة قالوا أتجعلُ فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن
نُسبح بحمدك ونقدسُّ لك قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴿١٩﴾.

- مكنه الله تعالى في الأرض: ﴿ولقد مكنناكم في الأرض وجعلنا لكم
فيها معاشاً قليلاً ما تشكرون﴾ ﴿٢٠﴾.

- الصالحون منهم يرثون الأرض: ﴿ولقد كتبنا في الزُّبور من بعد
الذِّكْرِ أن الأرض يرثها عبادي الصَّالحون﴾ ﴿٢١﴾.

- مستول: ﴿ومن يَكْسِبْ أثماً فإِنما يَكْسِبُهُ على نفسه وكان الله عليماً
حكيماً﴾ ﴿٢٢﴾.

- ﴿وقُلِ الْحَقُّ من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ ﴿٢٣﴾.
- ﴿ولا تَقِفْ ما ليس لك به علمٌ ان السَّمْعَ والبَصَرَ والفؤَادَ كل
أولئك كان عنه مستولاً﴾ ﴿٢٤﴾.

- ﴿وَأَنْ لِّسَ لِلانسانِ الا ما سَعَى * وَأَنْ سَعِيَّهٖ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ
يَجْزَاهُ الْجِزَاءَ الْاَوْفَى﴾ ﴿٢٥﴾.

- ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ﴾ ﴿٢٦﴾.

- فقير الى الله: ﴿يا أَيُّها الناس أنتمُ الفقراءُ الى الله والله هو الغنيُّ
الحميد﴾ ﴿٢٧﴾.

(١٩) سورة البقرة، آية ٣٠.

(٢٠) سورة الاعراف، آية ١٠.

(٢١) سورة الأنبياء، آية ١٠٥.

(٢٢) سورة النساء، آية ١١١.

(٢٣) سورة الكهف، آية ٢٩.

(٢٤) سورة الاسراء، آية ٣٦.

(٢٥) سورة النجم، آيات ٣٩ - ٤١.

(٢٦) سورة المدثر، آية ٣٨.

(٢٧) سورة فاطر، آية ١٥.

- خلق في كبد: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ • وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ • وَوَالِدَ مَا وَلَدَ • لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾^(٢٨).

- مبتلى من الله تعالى: يبتليه الله بالخير والشر فتنه، ليعجم عوده ويبين الغث من السمين، والمؤمن الصابر من الكافر الجزوع. ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا • إِنَّا هُدَيْنَاهُ السَّبِيلَ أَمَّا شَاكِرًا وَأَمَّا كَفُورًا﴾^(٢٩).

- ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾^(٣٠).

- ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ﴾^(٣١).

ومن هذه الآيات القرآنية الكريمة يتضح لنا ان للاعلام الاسلامي في مخاطبة الانسان خصائصه المميزة، التي تقر به من سائر النظريات الاعلامية، وتجعل له الريادة والكشف والسبق لكل ما يستحدث من نظريات، تتطور في إطاره وتنمو وتتقدم.

وهذه الخصائص التي تخاطب الفطرة الانسانية، هي التي جعلت الدراسات الاعلامية المعاصرة تذهب الى أن الناس يقبلون على الاعلام اذا كانوا يجدون فيه فائدة محققة لهم، أو اشباعاً لحاجاتهم، وقد تفيد المعلومات فائدة عاجلة كما تفيد فائدة آجلة، على النحو الذي يجعل الناس في وسائل الاتصال بالجماهير يجدون معلومات ترشدهم وتفيدهم، وفضلاً عن ذلك تساعد المعلومات على تأكيد الثقة بالنفس وتحقيق الانسجام الداخلي والائتلاف

(٢٨) سورة البلد، آيات ١ - ٤.

(٢٩) سورة الانسان، الآيتان ٢ - ٣.

(٣٠) سورة البقرة، آية ١٥٥.

(٣١) سورة محمد، آية ٣١.

الاجتماعي، وهو الأمر الذي تحقّقه مبادئ الاعلام الاسلامي التي تنبع من الايمان بالله، من حيث تنظيم علاقة الفرد بنفسه، وعلاقة الفرد بالفرد الآخر، ثم علاقة الفرد بأُمّته ومجتمعه، وبالكون الذي يعيش فيه. كما ان الاعلام الاسلامي يخاطب المجتمع العالمي الانساني بالوشائج القويّة من الاخاء والمحبة والتسامح والتعاون والتكامل.

واذا كانت الدراسات الاعلامية الحديثة تذهب الى أن الرسالة الاعلامية التي يحتاجها المستقبل ويشعر بأنها تلبي حاجاته، تظفر منه بالتقبل والاهتمام والسعي للحصول عليها.. فان الاعلام الاسلامي يدور في اطار يشمل الانسانية في كافة أقطارها وأزمانها، ويمنح قلب المستقبل راحة وهدوءاً، ويتيح لعقله طمأنينة واستقراراً، حيث يجد أنه - اذ يتصل بالله سبحانه وتعالى - يتّصل بحقيقة المؤثرات الفاعلة في هذا الوجود، كما هي في عالم الحقيقة والواقع، كما يصفى ضمير المستقبل من الغرور، ويخلص نفسه من الكبرياء، ويمحو ما أصاب عقله من جهالة، ومن ثم يدور الاعلام الاسلامي في صور متعدّدة، تتناول كل صورة منها بعداً من أبعاد الانسان المستقبل بالتهذيب والتوجيه حتى تتناسق الجماعة كلها، وتتلاقى في مجمع حي الضمير، متماسك البنيان، واعي الفكر، مرهف المشاعر، واقعي النظرة، خير النزعة، مستقيم السلوك، يشيع بين أفرادهِ احساساً بالمسئولية، ويسودهم شعور بالتساوي يلزمهم بالحرية.

واذا كان الاعلام يقبل عليه الناس في عصرنا لأنه يعطيهم من الأفكار والمعلومات ما يستخدمونه في رفع مستوى معارفهم، فان الاعلام الاسلامي قد أكد على ذلك، وأدى الى دعم اتجاهاتهم النفسية وتعزيز قيمهم ومعتقداتهم، قال رسول الله ﷺ: «بني الاسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان».. رواه البخاري ومسلم.

فعن هذا الحديث الشريف يتّضح أن الاسلام الذي ينبع منه الاعلام الاسلامي يعني التصديق بالقلب، والتصديق باللسان، مع الوفاء بالفعل

والاستسلام لله في جميع ما قضى وقدر. والشهادة قول صادر عن علم حصل لمشاهدة بصر أو بصيرة، وتقال لمطلق الاقرار والاعتراف بالاله المعبود والصلاة في الأصل الدعاء، وتقال للعبادة، وتقال للعبادة المعروفة لما فيها من الدعاء والتوجه الى الله، واقامتها تقويمها بالخشوع فيها، والتفكير في معانيها، وتذكر ما أقيمت له، فهي من: أقام العود اذ قومه. والصلاة اذن توثق صلة العبد بربه، فيفيض عليه من خيره، وتطهر نفسه من التكالب على أعراض الدنيا، وتعوده الاخلاص والابتعاد عن النفاق، أما الزكاة فقد أطلقت في عرف الشارع على ما يخرجها الانسان من ماله حقاً لله تعالى ليصرف لذوي الحاجات وفي الصالح العام والمصالح العامة.. والصوم يذكر في الانسان روح التفكير اذ البطنة تذهب بالفطنة، ويذكره في كل لحظة بالله رب نعمته، فترطب بذكره لسانه، والحج في اللغة القصد، والمراد به في لسان الشارع قصد البيت الحرام- الكعبة- وفيه يتجلى الاعلام الاسلامي في أوضح صورته، والوقوف على حال المسلمين في الأقطار المختلفة، والاعلام أول خطوة الى العمل بدعائم الاسلام وقيمه الأصيلة.

الأسس الاتصالية في الاعلام الاسلامي:

وانطلاقاً من هذا الفهم يتضح أن الاعلام الاسلامي يقوم على أسس اتصالية رائدة بالقياس الى النظريات الاعلامية المعاصرة، ذلك أنه خاطب الفطرة الانسانية على نحو غير مسبوق، وهو الأمر الذي تسعى اليه جاهدة نظريات الاعلام في عصرنا هذا بهدف دراسة وتحليل محددات Determinants Behaviour السلوك.

وبعض هذه المحدّات هي: المحدّات الوراثية الخاصة بالجينات: المحدّات البيولوجية والمحدّات اللاواعية أو اللاشعورية... الخ.

ومن هذه الدراسة المعاصرة يحاول علماء الاتصال (من أمثال البورت

١٩٤٧ - وشارتليت ١٩٥٨ - وبرونر ١٩٥٨ - وهوفلاند - وشرام (١٩٥١)
التعرّف على التعرّض للاتصال وتفسير للاتصال وتفسير المضمون وتذكر
الاتصال والنتائج السلوكية والوقفية المترتبة على الاتصال، كل ذلك بحكمة -
بصفة خاصة - الاستعداد المسبق لدى الشخص المستقبل.

وتركّز هذه الدراسات على التغيير السلوكي من خلال دراسة مكونات
عملية الاتصال والمتغيّرات التي ترتبط بكل منها، وتتضمّن عملية الاتصال.

(أ) المصدر.

(ب) الرسالة.

(ج) المستقبل.

(د) قناة الاتصال.

ونحاول في هذه الصفحات دراسة العناصر المتعلقة بالمصدر، مرجئين
دراسة قناة الاتصال لمقال تالٍ على اعتبار أنها تمثّل القاسم المشترك بين
العصور المختلفة في تطوّر الاعلام الاسلامي، وعلى اعتبار اننا درسنا عنصر
الرسالة في مقالات سابقة.

مصدر الاتصال:

ان مصدر الاتصال - كما تقول الدراسات الحديثة - هو منشئ الرسالة
وفي مجال الاعلام الاسلامي فان المصدر هو القرآن الكريم والسنة المطهّرة
ويكون الدعاة الاعلاميون هم الذين يمثّلون عناصر «المرسل» الذي يؤدّي
رسالة المصدر، ولذلك فان الدراسات الحديثة تركّز في هذا العنصر على قابلية
المرسل أو المصدر للتصديق، فقد وجد هوفلاند ورايس (١٩٥١) وكليمان
وهوفلاند (١٩٥٣) في تجاربهم على المصادر عالية وقليلة القابلية للتصديق، ان
المعرضين للاتصال يكتبون نفس الكميّة من المعلومات بغض النظر عن درجة
قابلية المصدر للتصديق، وإذا كان الاتصال منسوباً بالمصدر قليل القابلية

للتصديق، فإن المعرضين للاتصال سيحكمون على المعلومات بصورة أقل عدلاً وسيجدون أن الاستنتاجات تبريرها أساسه ضعيف.

وتوضح هذه الدراسات أن أمانة المصدر وجدارته بالثقة جانب هام من جوانب قابلية المصدر للتصديق.

ولقد أكد الاعلام الاسلامي على ضرورة توافر الصفات المثلى في الدعاة ورجال الاعلام لكي يكونوا موضع تصديق، ذلك أن هؤلاء هم ورثة النبي ﷺ في مهمته الاعلامية، والقائمون مقامه في ابلاغ دين الله. وكان النبي ﷺ يؤكد للمسلمين على ذلك، فقال لأصحابه «ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب»^(٣٢)، وقال ﷺ: «تسمعون ويسمع منكم ويسمع من يسمع منكم»^(٣٣)

ويقول تبارك وتعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(٣٤).

هذه الصلاحية وهذا اليسر محققان في الاعلام الاسلامي، على حين أن مذاهب «السلطة» الاعلامية أو «الحرية» أو «المسئولية الاجتماعية» المذكورة في الاعلام الاسلامي.

والاسلام دين يصلح لكل المجتمعات لأنه دين المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات، وفي الثواب والعقاب، وفي الحسنات والسيئات، الأمر الذي يجعل الاعلام الاسلامي مستهدفاً للحض على الأخلاق الكريمة، والفضائل العليا التي تصلح للأفراد والمجتمعات في كل مكان وزمان.

وهذه الصورة المثلى التي ينشدها علماء الاعلام لا تتحقق الا في نظرية الاعلام الاسلامي، ذلك ان النظريات الاعلامية الوضعية في عالم اليوم انما هي

(٣٢) صحيح البخاري جـ ١ ص ٣٧ كتاب العلم - باب ليبلغ الشاهد منكم الغائب.

(٣٣) الفتح الرباني جـ ١، ص ٢٦٤ كتاب العلم - باب فضل تبليغ الحديث.

(٣٤) سورة الأنعام آية ١٥٢.

خضم عجيب.. الاخلاقيات أصبحت تحكمها المصالح، والوطنية أناشيد رثانة يطرب لها الناس، والمصالح المشتركة شبك تطلق من الجانبين يصطاد بها كل جانب ما وسعه أن يصطاد على حساب الطرف الآخر، والوفاق الدولي شبكة كبيرة تقع تحت طائلتها مصالح الدول والدويلات المسكينة التي يسمح لها بالعيش في اطار حماية العملاق أو العملاقين أصحاب الشبكة التي تم صنعها بالوفاق، وكذلك حماية المصالح.

الاعلام الاسلامي والمذاهب الوضعية:

يتأثر تشكيل النظام الاعلامي بالبيئة الفكرية الى حد كبير، فالأفكار السائدة في مجتمع ما تشكّل مؤسساته، كما تشكّلها كذلك القوى الاقتصادية والاجتماعية، ولذلك شاع اصطلاح «النظام الاعلامي» وخاصة منذ اتخذه البعض معياراً.

فالدعاية الدولية مفهوم متدهور لا يرمي الى الاقناع بقدر ما يرمي الى الاغتصاب النفسي وانتهاك حقوق الانسان، ولكن الاعلام الانساني في الاسلام ينطلق أساساً من الحرص على حقوق الانسان، ويتوسّل بالاقناع والتعبير الموضوعي عن عقلية البشر في وضوح وصدق وأمانة، وهو لذلك يبحث على التنوير والتثقيف، وضمان حريّات الناس وأمنهم على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم، فالاسلام الذي حرّر العبيد، هو نفسه الذي رسم السبيل لتحرير الانسان وضمان حقوقه ولذلك فان نظرية الاعلام في الاسلام هي النظرية المثلى في معالجة مشكلات الانسان المعاصر التي حار في علاجها المفكّرون والفلاسفة في شتى بقاع العالم.. إذ ان الاعلام الاسلامي هو الذي يسكب في النفس الطمأنينة والرضا ويحفظ على الانسان كرامته وحرّيته وينشئ لديه رقابة ذاتية تحميه وتحمي مجتمعه وأُمّته الانسانية.

ولذلك يمكن القول ان النظريات الاعلامية المعاصرة هي نظريات تهتم

بالمجانب المادّي للانسان، والتقدّم العلمي للسيطرة على عقول الناس، وتروج للرسالات المادية والاحادية والنزوات الشريرة لكي تطفئ على الانسان، فأصبح الانسان أسيراً لوسائل الاعلام المعاصرة التي جعلته يعيش في فراغ وضيق، وفقد للتفرقة بين البلاد التي تعتنق أي ايدولوجيات مختلفة، كالرأسمالية والاشتراكية مثلاً.

و«النظام الاعلامي» اصطلاح متشعب العناصر، ويكاد يشمل كافة جوانب الحياة المجتمعة، بغض النظر عن الايدولوجية التي يدين بها سواء عن اقتناع بضرورتها أو كانت مفروضة عليه بفعل القهر والاكراه من قوى في الداخل أو بالضغط من الخارج «تقول هذه لأنه كثيراً ما تكون ظروف المجتمع العامة لا تسمح بالأخذ بمذهبية معينة، أما لأن الذين يدعون اليها قلة، وأما لأنها مستوردة من مجتمع خارجي، ولكي تنجح قوى معينة، لسبب أو آخر، في القفز الى ذوي السلطة فتكره الناس على اتباع هذه المذهبية فيرضخون ويستسلمون».

من أجل ذلك نرى أن العصر الحديث أحوج ما يكون الى دراسة النظم الاسلامية بعامة والاعلامية بخاصة، لعدد من الأسباب منها:

أولاً: الهجوم السياسي والثقافي على العالم الاسلامي بسبب الدعايات الرأسمالية (الليبرالية) والاشتراكية، فان كلاً من المعسكرين - الرأسمالي والاشتراكي - يحاول جاهداً أن يضم البلاد الاسلامية إليه، وكانت أخطر هذه المحاولات هي التي تحاول التقريب بينها وبين الاسلام، وادعاء كل من الفريقين - الرأسمالي الليبرالي والاشتراكي - ان الاسلام ينتمي اليه، فلما رفض المسلمون ذلك احتاجوا الى اظهار النظام الاسلامي في الاعلام والسياسة والاجتماع والاقتصاد وبيان الفرق بينه وبين هذين النظامين.

ثانياً: ان ميل بعض الدول الاسلامية المعاصرة الى النظام الرأسمالي الليبرالي وميل بعضها الآخر الى النظام الاشتراكي أدى الى الخلاف والشقاق،

بل والصراع المسلح أحياناً مما كان له أسوأ الأثر في التضامن الاسلامي وأدى الى عجز المسلمين عن مواجهة المشاكل التي تبدد مصالحهم المشتركة، وقد فطن المسلمون أخيراً الى خطورة هذا الانقسام وحاجتهم الى كلمة سواء تجتمعهم جميعاً.

ثالثاً: فشل الشعارات القومية والعنصرية في تجميع المسلمين العرب وعدم كفايتها في اقامة صرح الدفاع عن مصالحهم.. ففي مستهل القرن الحالي - عندما أزمعت الدول الأجنبية تصفية الدولة العثمانية - جنح المسلمون الى احياء أصولهم القديمة - كالفرعونية والحيتية والفينيقية ونحو ذلك - فقضوا بذلك على وحدتهم الاسلامية، ثم عادوا وتمسكوا بالقومية العربية ولكنها لم تشر كثيراً، لأن العروبة ليس لها نظام أو نظرية خاصة بها، بخلاف الاسلام الذي ينطوي على جميع القيم الحضارية بدون عنصرية.

ولذلك فقد تطلبت هذه الظروف مجتمعة - وغيرها - الاهتمام بابراز النظام الاسلامي وتحديدده لصدّ الغزو السياسي والفكري - من ناحية - وإقامة أساس للتكامل السياسي والاقتصادي بين المسلمين العرب من ناحية أخرى. ولم تتقبل الأفكار الوضعية في الدول الاسلامية هذا المنافس الجديد - وهو النظام الاسلامي - بسهولة.. بل واجهته بالعنف والشدة أحياناً، أو باللامبالاة أحياناً أخرى.

ويمكن القول بأن هذه المواجهة اتخذت ثلاثة أدوار متميزة:

الدور الأول: الانكار التام لوجود نظم اسلامية سياسية أو اقتصادية أو غيرها، والادعاء بأن الدين عقيدة وعبادة فقط ولا شأن له بالحياة العامة. وكان ذلك في بدء ظهور الوعي الاسلامي بالنظم الاسلامية والمطالبة بأن تطبق هذه النظم على البلاد في الثلاثينات من هذا القرن، وكان المنكرون لوجود النظم الاسلامية من أصحاب الثقافة الأوروبية التي تشبعت بالفصل بين الدين والدنيا بعد انتصار الحكومات على الكنيسة في صراعها الطويل على السلطة.

فلما تبين - من مراجعة الكتب الفقهية الاسلامية - ان الحقيقة هي أن الاسلام هو نظام اجتماعي ومنهج للحياة، وأنه ليس قاصراً على العقيدة والعبادة فقط، لم يجد المنكرون بداً من التسليم بهذه الحقيقة الواقعة والاعتراف بوجود النظم الاسلامية.

الدور الثاني: الادعاء بأن النظم الاسلامية هي نظم قديمة رجعية، وكان ذلك عقب التسليم بوجود هذه النظم، وقالوا انه لا يعقل ان نظاماً ظهر منذ أربعة عشر قرناً يصلح للتطبيق في هذا الزمان.

ولكن تبين من الحوار الذي دار حول هذه المسألة الهامة أن النظام الاسلامي ليس متخلفاً ولا متأخراً وأنه صالح لهذا الزمان، بل هو أفضل من سائر النظم المطبقة في العصر.

الدور الثالث: محاولات التقريب بين الاسلام والنظم المعاصرة، فانه لما تبين فضل النظام الاسلامي ومثانيه، اتجهت الأفكار الوضعية الى تملق الاسلام والالتصاق به، فأشاد الرأسماليون الليبراليون بما يتميز به الاسلام من الحرية في القول بالتشابه بين النظامين، وأشاد الاشتراكيون بما يتميز به الاسلام من النظام والتضامن للقول بتشابههما واستند كل فريق بحجج من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية المشرفة وأقوال الفقهاء لتدعيم ما يذهب كل منها إليه.

وإزاء هذا اللبس اتجهت جهود علماء الاسلام ومفكره الى الفصل بين الاسلام والنظم الحديثة والتمييز بينها، وصدر في مصر الدستور عام ١٩٧١ ناصاً على ان مبادئ الشريعة مصدر أساسي للتشريع وأعدت مشروعات قوانين متعددة على الأساس الاسلامي، وأسست بنوك اسلامية ونشطت فكرة التضامن الاسلامي ثم فكرة الاعلام الاسلامي من بعد.

الاعلام الاسلامي وهندسة العادات والتقاليد

يقوم النظام الاجتماعي في كل مجتمع بأربع مهام أساسية، حدد هارولد لازويل ثلاثاً منها هي: مراقبة البيئة، وربط فئات المجتمع في استجابتها للبيئة، ونقل التراث الاجتماعي. وقد استخدم «ولبور شرام» اصطلاحات أبسط وهي: الحارس، والمنبر، والمعلم، ويضيف شرام وغيره مهمة رابعة وهي: الترفيه.

ذلك أن المجتمع يستخدم نظامه الاتصالي استخداماً وظيفياً. وهو لذلك في حاجة إلى طريقة للوصول إلى اتفاق عما ستكون عليه أساليبه. والتغيرات التي تطرأ عليها. وبدون اتفاق قد يصاب النظام الاجتماعي بالانهلال. ولذلك يقول «ريفرز» إن المجتمع يقدر عادة اتجاه التغيير لكي يعمل الأفراد والجماعات معاً كمجتمع. وقد تصل المجتمعات البسيطة إلى الاتفاق عن طريق النقاش الشخصي وجهاً لوجه، ولكن المجتمعات الصناعية المركبة تعتمد عموماً على وسائل الاعلام.

ويستخدم المجتمع نظامه الاعلامي كمعلم لنقل التراث الاجتماعي، من جيل إلى الجيل التالي، بما يتضمنه هذا التراث من أنماط سلوكية، ومعلومات وعادات وتقاليد معينة يكاد يكون لها قوة القانون؛ ذلك أن التراث الاجتماعي أساس هام في كل نوع من أنواع النشاط، واليه يرجع الفضل في تنظيم حياة المجتمع تنظيمياً يقرب عن وسائل حياة الأفراد ويجعل منهم مجتمعاً متناسكاً.

ولذلك يذهب علماء الاجتماع إلى تقسيم التراث الاجتماعي قسمين:

قسم منها غير مادي، ويشمل اللغة، والعبادات، والعرف والتقاليد، والدين، والمعتقدات، والقانون، والنظم الاجتماعية المختلفة، ويطلقون عليه اسم الجانب الثقافي أو الجانب غير المادي في التراث الاجتماعي. والقسم الآخر مادي، يشمل كل ما يستطيع الانسان إدراكه عن طريق الحواس، ويطلقون عليه اسم الجانب الحضاري المادي في التراث الاجتماعي. ويستخدم الغربيون اصطلاحاً واحداً هو Culture ليدل على الجانبين الثقافي والحضاري معاً، ولكن علماء الاجتماع العرب يفضلون استخدام كلمة «ثقافة» لتدل على الجانب غير المادي في التراث الاجتماعي، وكلمة «حضارة» لتدل على الجانب المادي في التراث الاجتماعي.

والتراث الاجتماعي يعتمد في أساسه على أفكار تتركز في عقول الأفراد؛ وهنا تقوم وسائل الاعلام بوظيفة ربط عناصره المادية في أذهان الناس بالأفكار والقيم، التي تجعلهم يستخدمون هذا العنصر المادي أو يهملونه. وهكذا تتغير أفكار الناس بالتدريج، ويقبلون على استعمال العناصر المادية النافعة التي تروج لها وسائل الاعلام، حتى يصبح استعمالها شائعاً بينهم بعد مرور فترة من الزمان؛ مثل الهاتف، ومكبر الصوت.

ويذكر المؤرخون للملك عبد العزيز موقفاً هاماً في هذا السياق؛ حينما بدأ يأخذ بأساليب الحضارة الجديدة، فاعتبر الاخوان قبوله المخترعات الحديثة كالسيارة واللاسلكي والهاتف والمذياع خضوعاً منه للانجليز. وفي سنة ١٩٢١ م اضطر الملك عبد العزيز أن يأمر بايقاف العمل باللاسلكي الموجود في المدينة المنورة وعوقب خادم الملك الذي يركب الدراجة - عربية الشيطان - على اعتبارها بدعة لأنها تسير بقوة السحر. ولم يرضوا عن تنظيم الملك عبد العزيز للحكومة حديثة في الحجاز بمعارضتهم التنظيمات الجديدة وبمعارضتهم للمخترعات الحديثة وبمعارضتهم لسن الضرائب التي لا غنى عنها.

ومن ذلك يتضح كيف عارض الاخوان أفكار الملك عبد العزيز الرامية

لانشاء دولة حديثة منظمة تعتمد على الآلات الميكانيكية؛ ولكن الملك عبد العزيز بوعيه الاسلامي وفكره الأصيل تمكن من القضاء على ثورة الاخوان، التي أعاقَت الكثير من مشروعاته الاصلاحية التي تحتاجها دولته الناشئة وقال رحمه الله: «من اليوم سنحيا حياة جديدة». وبالفعل، ترتب على ذلك أن قبل البدو مشروعات التوطين والاستقرار التي بدأت في الجزيرة العربية لأول مرة زمن الملك عبد العزيز آل سعود؛ وكسر المجتمع القبلي وأبدله بمجتمع حضري مقيم حول موارد الماء والواحات؛ وعمل سكانه في الزراعة، وكان هذا أكبر تغيير اجتماعي اقتصادي في الجزيرة العربية نجم عنه تأثير كبير على حياة المملكة العربية السعودية، حاضراً ومستقبلاً وفتح الباب أمام تحول اجتماعي كبير، وتأكيد مفهوم الدولة المنظمة بدلاً من سيادة القبيلة، وبهذا يكون الملك عبد العزيز قد أوجد مجتمعات زراعية دينية تدين بالطاعة للدولة. وعمّ البلاد سلام وازدهار اقتصادي.

وقد أدرك الملك عبد العزيز دور التعليم والتثقيف الديني في هذه المرحلة التحولية الخطيرة؛ فأرسل الى البدو العلماء والمطوعين، وغرس قياً جديدة جعلت عند البدو نظرة واعية للحياة. وعندما دارت المناقشة حول المخترعات الأوروبية الحديثة كالسيارة والهاتف والبرق... الخ، قال الملك للشوار من الاخوان: «تطالبوني بعدم استعمال هذه لأنها من صنع الافرنج، فأنا أوافق معكم على شرط أن تحرقوا جميع بنادقكم لأنها من صنع الافرنج كذلك».

وبهذه الرؤية العلمية، استطاع الملك عبد العزيز أن يوحد دولته وأن يبدأ فيها عهداً من الاصلاح والتجديد؛ فالى جانب اهتمامه بالتعليم انتشرت مجموعة من المكتبات العامة والمكتبات المدرسية الى جانب مجموعة من المكتبات القديمة. ولقد أنشأت الحكومة السعودية دار الاذاعة في مكة سنة ١٩٤٩ م ولأول مرة في تاريخ الجزيرة العربية تدخل الاذاعة ومع أنها كانت من بداية الأمر مقتصرة على قراءة القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة،

وما يتصل بهما من تفسير، الا أنها غدت من عوامل نشر الثقافة الدينية والمدنية في البلاد السعودية.

ولعبت الصحافة دوراً هاماً في هذا المجال؛ ففي العهد السعودي وحتى فترة حكم ابن سعود كانت في البلاد مجموعة من الجرائد والمجلات، فكانت جريدة أم القرى وجريدة البلاد السعودية وقد حررتا بعد دخول ابن سعود الحجاز. وجريدة صوت الحجاز وجريدة المدينة المنورة. ومن المجلات: مجلة المنهل ومجلة الحج ومجلة الاصلاح والمجلة الزراعية.

ومما تقدّم يتّضح لنا كيف حاول الاخوان ربط أفكار منفرة ببعض عناصر التراث الاجتماعي المادية الجديدة التي أدخلها الملك عبد العزيز؛ لأنهم يجهلون قيمتها، ويخشون منها؛ وكان ردّه السابق أبلغ رد في سياق الحديث عن التراث الاجتماعي؛ وسرعان ما سار بعجلة الاصلاح معتمداً على التعليم والتثوير والاقتناع بفائدة العناصر الجديدة. وهكذا اتسم منهجه الاصلاحى بالعلمية في تغيير أفكار الناس بالتدريج؛ واقبالهم على استعمال العناصر المادية بالتدريج أيضاً، حتى يصبح استعمالها شائعاً بينهم بعد مرور فترة من الزمان.

وقد اتخذنا من التجربة السعودية نموذجاً يوضح ارتباط العناصر المادية بغير المادية في التراث الاجتماعي؛ الأمر الذي يجعل لوسائل الاعلام دوراً وظيفياً في تنوير الناس، من جهة، وفي دعم العناصر الثقافية في التراث الاجتماعي وأهمها: الدين، واللغة، والعادات، والعرف والتقاليد المختلفة. وسنركز هنا على الجانب الخاص بالعادات والتقاليد، التي تخضع لمنهج «الدعم» و«التغيير» لما تحتوي عليه من عناصر «إيجابية» وأخرى «سلبية».

أما العادات، فهي أنواع من السلوك اليومي لأفراد الجماعة تتعلق بنظام معيشتهم من مأكّل وملبس، ومسكن، وعمل، وترويح عن النفس، ومعاملات اجتماعية أخرى. ولذلك يذهب علماء الاجتماع الى أن من أهم وظائف الجماعة الاسرية تعليم أفرادها الصغار أنماطاً مختلفة من الأفعال والسلوك. فإذا تكرّر

! حدوث أفعال معيّنة في مناسبات معيّنة، تأصلت هذه الأفعال في نفوس الأفراد وصارت نظاماً رتيباً لا يتغير، ويصعب عليهم التحرر من القيود، وبخاصة اذا كانت تصادف قبولاً عاماً من أفراد الجماعة.

ومن الخصائص الايجابية للعادات انها تسير الحياة وتجعل الأفراد يؤدون الأفعال ويتصرفون في المواقف بسهولة وسرعة، معتادين في ذلك على ما اعتادوا في مثل هذه المواقف. ولذلك كانت العادات اقتصادية في نتائجها، إذ تختصر الوقت وتقلل الجهد الذي يبذل في التفكير في تفاصيل كل فعل يتكرر حدوثه.

فالعادة الجمعية، صورة من صور السلوك الاجتماعي استمرت فترة طويلة من الزمان، واستقرت في مجتمع معيّن، وأصبحت تقليدية، واصطبغت الى حد ما بصبغة رسمية. والعادات الجمعية أساليب للفكر والعمل ترتبط بجماعة فرعية، أو بالمجتمع بأسره. وقد اكتسب المصطلح مكانة خاصة في الانثروبولوجية كمفهوم محدد يمكن الاستعانة به في التأويل الوصفي للثقافة.

وقد أسبغ علماء الانثروبولوجيا على مصطلح العادة الجمعية، مستويات مختلفة من التجريد، فهو يعني الاهتمام بالأفعال المتكررة في الحياة اليومية، والقواعد التي تكمن خلف هذه الأفعال، والنماذج الثقافية المميزة التي يمكن استخلاصها من كل ذلك. ويؤكد «مورتس» ان الاهتمام الرئيسي للانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية ينصب على العادات الجمعية، إذ يتعيّن على الباحثين في هذين العلمين ملاحظة وتسجيل العادات، وأنماط السلوك الأخرى المرتبطة بها، كما نظر «مالينوفسكي» الى دراسة العادات الجمعية على أنها تمثل موضوعاً رئيسياً يجب أن تركز عليه الملاحظة المباشرة.

ويمثل تحليل العادات الجمعية، في ارتباطها بالعرف، والطرائق الشعبية، أحد الاهتمامات الرئيسية لعالم الاجتماع الأمريكي «وليام سومنر Sumner» فهي كلها من القوى التي تمارس على الأفراد قدراً من القهر والالزام. أما

«كليور» فقد أدخل «العادة الجمعية» ضمن تعريفه للثقافة، وأشار «سابين» إلى أن المصطلح له قيمة خاصة في تطوير التصور الانثروبولوجي للثقافة وقد بذلت بعض المحاولات لتحديد مفهوم العادات الجمعية، والفرقة بينها وبين مفاهيم أخرى مثل: الطرق الشعبية Folkways والأعراف Mores، لكن هذه المحاولات اعتمدت على محكات غامضة مثل التقليدية، والتلقائية، والدوام، والمعنى الاجتماعي، ولذلك لم تظهر كثيراً في تعريفه وتحديده وربما كان ذلك هو السبب الذي دفع «ماكيفر، وبيج» إلى اعتبار العادات الجمعية جانباً فرعياً للطرق الشعبية والأعراف. على حين جعل «كنجزلي دافيز» من المصطلح مفهوماً شاملاً تتفرع عنه الطرق الشعبية والأعراف. و«الأعراف» Mores يقصد بها المعايير الاجتماعية التي توفر المستويات الأخلاقية للسلوك في الجماعة والمجتمع ويشعر أعضاء الجماعة بارتباط عاطفي بأعرافها، ويرون أن الحفاظ عليها ضروري لرفاهية الجماعة، ويشير المصطلح في الغالب إلى مستويات السلوك التي تعتمد على الجزاءات غير الرسمية، والتي تندرج تحت قانون محدد. وعند عدد ضئيل من المؤلفين تعرف «الأعراف» على أنها كل قواعد السلوك التي يوافق عليها أعضاء المجتمع أو الجماعة. وقد يشير المصطلح إلى أنماط السلوك المقبولة والتقليدية التي يمكن التنبؤ بها. ويعاقب الفرد إذا نقض عرفاً معاقبة أشد وأكثر صرامة مما لو تجاوز العادات الشعبية. ولا يتغير العرف إلا ببطء شديد، نظراً لأهميته البالغة في حفظ النظام الاجتماعي.

وعلى ذلك يوصف «العرف» بأنه عادات مقتبسة اقتباساً أفقياً في الجيل الواحد، أي تنتقل بين الأفراد من واحد إلى آخر عن طريق الاختلاط والتجاور في زمن معين وكلما ذاعت العادة وانتشرت تعارف الناس عليها أي صارت عرفاً بينهم وأصبح لها صفة الالتزام.

أما التقاليد، فيمكن تعريفها بأنها عادات مقتبسة رأسياً؛ أي من الماضي إلى الحاضر، ثم من الحاضر إلى المستقبل. فهي تنتقل من جيل إلى جيل ومن سلف إلى خلف على مر الزمان. وبينما يصادف الاقتباس الأفقي للعادات «أي

العرف» مقاومة شديدة ممن لا يسهل استهواؤهم بسرعة، فان اقتباس التقاليد لا تقف في طريقه الموانع، لما بين المقتبس والمُعطي من التباين الكبير في التأثير. فالطفل مثلاً يميل الى التقليد كما أنه سريع التأثير بما يشاهده من سلوك الكبار الذين يتعاملون معه ولذلك كان تأثيره بوالديه وبالكبار وبالتليفزيون ووسائل الاعلام كبيراً، وكذلك الحال بين الأمي والمتعلم والقروي والبدوي والمتحضر.

ويزداد تمسك الانسان بالتقاليد مع مرور الزمن لأن ما يفعله الانسان مرة ويستحسنه يميل الى فعله مرة أخرى فمرات. واذا ما تكرر فعله، وكان لا يزال يستحسنه ويستسهله فانه يودّ لو أن غيره يفعله أيضاً، ولا سيما اذا كان هذا «الغير» عزيزاً عنده، كابنه مثلاً. واذا استمر هذا الميل من جيل الى جيل قوي التقليد كثيراً.

وهكذا يمكن القول: إن التقاليد والعادات كالطريق الذي كلما سلكه الناس تمهد وسهل السير فيه حتى إنهم يستضعبون في آخر الأمر العدول عنه الى طريق آخر غير مطروق.

ولذلك يطلق مصطلح «التقاليد» على انتقال بعض المعتقدات وأنماط السلوك والأنشطة من جيل الى آخر، كما تقدم، وقد يستخدم بمعنى «التراث» Tradition أو كعنصر ثقافي ينتقل عبر الزمان ويحقق درجة من الدوام والاستمرار. والتراث قد يكون شفاهياً، أو مأثوراً شعبياً، أو رواية شعبية. وبالنسبة للنظم الاجتماعية ينتقل التراث عن طريق عمليات التنشئة الاجتماعية حيث يكتسب الطفل العرف وأنماط السلوك المعتادة من الأسرة، والمدرسة وجماعة الرفاق، ووسائل الاعلام. وقد يطلق المصطلح أيضاً على بعض العناصر الثقافية التي تنتقل من جيل الى آخر، وهنا يستخدم - كما تقدم بمعنى التقاليد Traditions أي أنماط السلوك المقننة التي تنتجها الجماعة، وتعمل على تدعيم تماسكها ووعيها بذاتها، كما تحظى بالقبول من جانب الأعضاء.

وتأسيساً على هذا الفهم، نستطيع أن نقول إن نظم الاعلام لكونها تعمل على الاستقرار؛ فانها تميل دائماً إلى عرض القيم والمعتقدات في المجتمع الذي تعمل فيه. وعلى ذلك فإن مضمون الاعلام - في أي مجتمع - يصطبغ بالعادات والعرف والتقاليد، في هذا المجتمع. ولكن وسائل الاعلام في الجانب المقابل تقوم باحداث التغيير؛ ذلك أنها إحدى الوسائل التي تسير وفقاً لقانون «التحدي» في مقابل قانون «الاستجابة». ومن ثم فوسائل الاعلام - بالقياس الى مفهوم العادات والتقاليد في المجتمع - تميل إلى المحافظة عليها من جهة، وإلى تقويضها من جهة أخرى.

ولنظام الاعلام - كمؤسسة - سلطة كبرى في حد ذاته؛ وهو كذلك وسيلة تستطيع بها المؤسسات الأخرى أن تجعل قوتها ملموسة. ذلك أن قدرة النظام الاعلامي على نشر الرسائل الى الجماهير - كما يقول «ريفرن» تجعل هذا النظام الاعلامي مصدراً للسلطة، بصرف النظر عما يحمله من معلومات وأفكار. ولذلك تسعى المؤسسات الأخرى الى استخدام النظام الاعلامي لأغراضها الخاصة، عن طريق التأثير على ما يحمله ذلك النظام من رسائل.

وهناك بعض المفكرين الذين لا يذهبون الى نهاية الشوط في اسناد تلك القوة الكبيرة الى وسائل الاعلام، ومع ذلك فهم يعتبرون وسائل الاعلام أداة قوية للضبط الاجتماعي، وذراعاً للنظام الحاكم في المجتمع؛ وفي ذلك خروج كبير على النظرية الليبرالية، التي تنظر الى الصحافة على أنها تحرر الناس من طغيان الجهل والخرافات الموروثة، وبذلك تمكنهم من حكم أنفسهم بالفكر السليم والضمير الفردي. وان كانت النظرية الحديثة لا تنفي بالضرورة الأهمية التقليدية للصحافة في تنوير الجماهير. ولكنها لا تقدّم زاوية رؤية جديدة للنظر الى وسائل الاعلام دون مراعاة لما ينبغي أن تفعله أو تكون عليه.

ووظيفة الضبط الاجتماعي عن طريق وسائل الاعلام - في اطار التصور الاسلامي - تجعلنا نذهب إلى كونها الوظيفة الرئيسية للعادات والتقاليد في

التراث الاجتماعي الذي تعمل من خلاله هذه الوسائل، بهدف تحقيق التماسك بين الأفراد، حينما يشعرون شعوراً متشابهاً في معظم الظروف والمناسبات؛ ويخضعون في سلوكهم للغة ولعادات ولعرف ولتقاليد ول معتقدات ولأفكار متشابهة تجعلهم يختلفون عن غيرهم من أفراد المجتمعات الأخرى.

ولذلك نرى أن «اصطلاح هندسة الرضا» الذي يطلقه «جوزيف كلابر» على عملية الضبط الاجتماعي، من أهم ملامح وسائل الاعلام. ومحاولات هندسة الرضا ليست جديدة أو مقصورة على الدوافع الشريرة طبعاً. وقد كانت إحدى مهام وسائل الاعلام دائماً: هندسة الرضا الضروري للمجتمع المستقر.

غير أن بعض علماء الاجتماع يرون انه لم يحدث من قبل ان كانت هندسة الرضا على مثل هذا النطاق الواسع، وعن طريق وسائل الاعلام التي تشترك في العمل بنغمة واحدة لا تسمح سوى بالقليل من الهندسة المضادة.

وقد تؤدي هذه الهندسة المضادة الى التقليل من أهمية العادات والتقاليد، لأنها تعنى عناية كبيرة بحاضر المجتمع كما هو، بغض النظر عن أصوله السالفة. ولكن استقرار أي مجتمع من المجتمعات لا يمكن أن يتم الا نتيجة وجود العناصر التي تكون التراث الاجتماعي ذلك أن الفرد يولد فيجد عناصر التراث موجودة فيقتبسها ويخضع لها كما اقتبسها وخضع لها غيره من الكبار. وهذا يبين قيمة التراث الاجتماعي في تماسك المجتمع وتحقيق الاستقرار فيه.

ولذلك لا يجمع المراقبون على أن الضبط الاجتماعي الذي تقوم به وسائل الاعلام له ذلك الاتساع وتلك الخطورة التي يتحدث عنها «كلابر» و«لازرسفيلد» و«ميرتون». وينضم الى المخالفين لهذا الرأي كثيرون ممن يتحدثون عن وسائل الاعلام حديثاً مفعماً بالخوف.

فمثلاً، يعترف «لويس ويرث» بأن المواطن يزداد اعتماده على وسائل الاعلام من أجل الحصول على المعلومات والارشادات ولكنه يقول ان الدرجة

العالية من الاتفاق، الموجود من قبل في المجتمع، يعطي لوسائل الاعلام الكثير من تأثيرها الظاهري. ويذهب الى أن وسائل الاعلام تعمل في مواقف معدة لها من قبل في العملية الاجتماعية. ومن السهل أن نحصل على «انطباع خاطئ» انها هي، أو مضمونها ورموزها التي تنشرها تقوم بالعمل».

ويذهب «رتشارد ت. لاين» في كتابه «نظرية الضبط الاجتماعي» الى أن عضوية الجماعات الصغيرة الأولية كالأسرة والكنيسة والدائرة الحميمة من الأصدقاء - أقوى تأثيراً في تقرير قيم الفرد، واتجاهاته، وسلوكه، من أي تأثيرات تقوم بها وسائل الاعلام. فيلجأ الناس الى وسائل الاعلام سعياً وراء ما يريدون منه، وليس ما تريد وسائل الاعلام أن تحدث فيهم من آثار. وللناس في ذلك خيار ضخم، نظراً لتعدد وسائل الاعلام وكثرة وحداتها. كما أن للناس دفاعاتهم، فهم يدافعون عن معتقداتهم الراسخة. ويميل الناس الى أن يعتمدوا اعتماداً كبيراً على فئاتهم الاجتماعية ومرشديهم الخصوصيين. وتعمل القنوات الشخصية للاعلام جنباً الى جنب مع وسائل الاعلام، وتقوم بتصفية الرسائل الصادرة عن وسائل الاعلام. ولما كان كل فرد مطموراً في شبكات من الاتصال الشخصي، فإن نجاح أي رسالة صادرة عن وسائل الاعلام، يتوقف على مدى تأييد البيئة الاجتماعية أو الشبكة أو معارضتها للرسالة.

وتستطيع وسائل الاعلام أن تحدث تغييراً، وتقوم به فعلاً، ولا سيما عند ما تتفق العديد من الوسائل على ذلك، وعندما يحسن استخدامها؛ حتى لا تنشر الأكاذيب أو تضلل الرأي العام؛ مما يؤدي الى إثارة القلق واشاعة الاضطراب في هندسة الاتفاق الاجتماعي.

ان وظيفة «التغيير» في الاعلام الاسلامي حينما تستهدف العادات والتقاليد، يجب أن تؤدي بوعي شديد، حتى لا يكون المستهدف «الايجابي» منها بل «السلبى» والسلبى وحده؛ وحتى تؤدي دورها في «التغيير الاجتماعي» الذي يتسم بالسرعة في جانبه الحضاري والبطيء في الظواهر الثقافية التي تشمل في

أعطافها؛ العادات والتقاليد، والمثل العليا عند أفراد المجتمع. ولذلك ينبغي أن يكون المنهج التعادلي هو الأساس الذي تنطلق منه وسائل الاعلام، حتى لا يحدث اختلال في التوازن بين الظواهر الحضارية والظواهر الثقافية، وحتى تجنب النظام الاجتماعي الذي تعمل في اطاره خطر «الانحلال أو التفكك بين العلاقات الاجتماعية».

ومعنى ذلك أن الجوانب المادية في التراث الاجتماعي تصبح ذات قيمة إذا استطاعت وسائل الاعلام أن تربط في الأذهان بينها وبين بعض المعاني أو القيم المستمدة من الدين والعادات والتقاليد. ذلك ان قيم المجتمع هي الأساس الذي يبنى عليه نظامه الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية التي يرتبط بها الأفراد.

وهكذا نقول مع أحد الدارسين، ينبغي الا ننظر الى قوة وسائل «الاعلام كموجة عالية، وإنما كنهر عظيم يغذي الأرض التي يلمسها متبعاً خطوط التضاريس الحالية، ولكنه يهد الطريق للتغير على المدى الطويل. وقد يجد أحياناً بقعة تكون فيها الأرض رخوة ومهيأة، وهناك يشق مجرى جديداً، وأحياناً يكتسح أمامه جزءاً من الأرض، مما يعطي مجرى النهرى شكلاً جديداً».

الرسول ومنهج الدعوة

الداعية الأول والأمثل في الاسلام هو محمد بن عبدالله ﷺ، الذي اختاره الله وأدبه وأعدّه الاعداد الصالح اللازم للدعوة.. فكان مثلاً في الأمانة والشجاعة والصدق وكرم الأخلاق. ويكفي ان الله سبحانه وتعالى وصفه في القرآن الكريم بقوله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١). لقد كان خلقه القرآن، والله تعالى يقول ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾^(٢).

ولما كان رسول الله ﷺ قد تخلّق بالقرآن، فان فعاله كانت تفسيراً له. ولما كان قد انفعل بالقرآن فان نطقه كان تعبيراً عنه. وعلى المسلمين جميعاً خاصة رجال الاعلام والدعاة والمشتغلين بالاتصال الجماهيري في الدول الاسلامية كافة، أن ينسجوا على منواله وأن يسيروا على نهجه قدر استطاعتهم، وأن يحاولوا الوصول الى القمة الشاخنة السامقة التي تربّع عليها.

وأول ما اشتهر به رسول الله ﷺ هو الصدق والأمانة، حتى لقد سمي الصادق الأمين.. وحق ان أعداءه من المشركين كانوا يشهدون له بالاجماع بهذه الصفات، ويذكر أصحاب الاخبار أن أبا سفيان الذي كان من زعماء الشرك في الوقت الذي جرى فيه حديث بينه وبين «هرقل» ملك الروم عن النبي ﷺ، وقد سأله عن نسبه الكريم قال «انه من أوسطنا نسباً»، ولما سأله

(١) سورة القلم آية ٤

(٢) سورة الاحزاب الآية ٢١.

عن أخلاقه ﷺ قال «لولا اني أخشى أن يحفظ عني كذبة في العرب لكذبت، ولكنني أقولها ناصعة انه الصادق الأمين في القول وفي الفعل».

ولما اختلفت قريش ووصل الخلاف بهم الى حد التهديد بسفك الدماء، حكموا بينهم أول داخل من باب المسجد. فلما دخل محمد بن عبدالله صاحبوا جميعاً «هذا هو الصادق الأمين». وقد استطاع بعقله وحكمته وسداد رأيه أن يفض النزاع.

وكثيراً ما احتكم إليه المتخاصمون من العرب قبل بعثته ﷺ وقد روى له «الربيع بن خيثم» كان يتحاكم له رسول الله في الجاهلية قبل البعث، وذلك لما عرف به من الصدق والأمانة وحبّه للعدل وكونه لا ينطق إلا بالحق. ولقد بلغ من احساسه ﷺ بالعدل والأمانة أنه قام في مرض الموت وقد بلغ به الأعياء أشده وقال «أيها الناس من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليقتد منه، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليقتد منه، ومن أخذت منه مالا فليأخذه مني ولا يخشى الشحنةا فانها ليست من شأني، ألا وإن أحكم لي من أخذ مني حقاً ان كان له، أو حللني فلقيت ربّي وأنا طيب النفس».

ولقد كان عليه الصلاة والسلام ينهى عن الظلم ويحض على العدل، وكثيراً ما نبه أصحابه والمسلمين الى العدل وقال «إتقوا دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب»، وقال «من مشى مع ظالم فقد سعى الى النار». وقال أيضاً: «لا يأخذ الله تعالى العامة بظلم الخاصة إلا اذا رأوا ولم ينكروا». وقال كذلك «والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرن على الحق أطراً، أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ثم تدعون فلا يستجاب لكم».

ويقول القاضي عياض في فضل عقل الرسول ﷺ وآثاره في الدعوة الاسلامية «انما وفور عقله وذكاء لبه وقوة حواسه وفصاحة لسانه واعتدال حركاته وحسن شأئه فلا مريّة أنه كان أعقل الناس وأذكاهم، ومن تأمل

تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم، وسياسة العامة والخاصة مع عجيب شائله
وبديع سيره، فضلاً عما أفاضه من العلم وقرّره من الشرع دون تعلّم سبق،
ولا ممارسة تقدّمت، ولا مطالعة للكتب منه.. لم يتر في رجحان عقله وثقوب
فهمه لأول بديهة وهذا ما لا يحتاج الى تقريره لتحقيقه. ولقد قال «وهب بن
منبه» قرأت في أحد وسبعين كتاباً فوجدت في جميعها ان النبي ﷺ أرجح
الناس عقلاً وأفضلهم رأياً، وفي رواية أخرى فوجدت في جميعها ان الله لم
يعط جميع الناس من بدء الدنيا الى انقضائها من العقل الى جنب عقله ﷺ
إلا كحبة رمل من بين رمال الدنيا».

أما بلاغته ﷺ وبراعته في الاتصال بالجمهير ومقدرته على اقناعهم،
فقد كانت مثلاً يحتذى في هذه النواحي أيضاً، وقد وصف الجاحظ بلاغته فقال
«الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجلّ عن الصفة ونزه عن
التكلف. استعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر
الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق الا عن ميراث
حكمة، ولم يتكلّم الا بكلام حف بالعصمة وشدّ بالتأييد ويسرّ بالتوفيق. وهذا
الكلام الذي ألقى الله تعالى المحبة عليه، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهاية
والحلاوة وبين حسن الالهام وقلة عدد الكلام. وهو مع استغنائه عن اعادته،
وقلة حاجة السامع الى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولا زلت له قدم، ولا بارت
له حجة، ولم يبرز له خصم ولا أفحمه خطيب، بل يبدأ الخطب الطوال
بالكلام القصير، ولا يلتمس اسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتاج الا
بالصدق، ولا يطلب الفج الا بالحق، ولا يستعين بالخلابة ولا يستعمل المواربة.
يهمز ولا يلمز، ولا يبطئ ولا يعجل، ولا يسهب ولا يحصر، ثم لا يسمع
الناس بكلام قط أتم نفعاً، ولا أصدق لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً،
ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح في معناه، ولا
أبين عن فحواه من كلامه ﷺ».

وقالت عائشة رضي الله عنها في وصف كلامه ﷺ «ما كان رسول الله

ﷺ يسرد الكلام كسر دكم هذا، ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل يحفظه من جلس إليه».

وما قاله القاضي عياض في وصف بلاغة الرسول وفصاحته ﷺ «وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يحل سلامة طبع وبراعة منزع وإيجاز مقطع ونصاعة لفظ وجزالة قول وصحة معان وقلة تكلف. أوتي جوامع الكلم، وخص ببدايع الحكم، وعلم السنة العرب فكان يخاطب كل أمة بلسانها، ويحاورها بلغتها ويباريها في منزع بلاغتها، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله. ومن تأمل حديثه وسيرته علم ذلك وتحققه وليس مع قريش والانصار وأهل الحجاز ونجد هدف كلامه مع (وطيفة الهندي) و(قطن بن حارثة العليمي) و(الأشعث بن قيس) و(وائل بن حجر الكندي)... وغيرهم من أمثال (حمير وملوك اليمن).

ومن الذين وصفوه وصفاً دقيقاً صادقاً «ام معبد» فقد قالت تحدث زوجها عنه «مر بنا رجل مبارك، ما مسح ضرع الشاة الجاف بيده حتى تفاجت ودرت واشترت فأتيت له بالاناء فحلب فيه فجاء حتى غلبه الثال، وقد شربت حتى رويت فسقى صاحبيه حتى رويأ وشرب هو آخرهم». وقالت في وصف النبي «هو رجل ظاهر الوضأة، متبلج الوجه، حسن الخلق، وسيم قسيم، في عينيه دعج، وفي صوته صحل، ليس بالطويل المغط ولا بالقصير المتردد ولا بالجعد الققط ولا السبط، شديد سواد الشعر، في عنقه سطع وفي لحيته كثافة. اذا مشى تقلع كأنما يمشي في طيب، واذا صمت فعليه الوقار، واذا تكلم سما وعلاه البهاء، حلو المنطق فصل لا نذر ولا هذر، غصن بين غصنين»... الخ.

وإذا كانت نظريات الاعلام الحديثة تؤكد على ضرورة وجود الثقة كاملة بين المصدر والمتلقي بل إن النتائج التي وصل إليها الباحثون أخيراً في

جامعة ييل Yale تشير الى أن أهم مكوّنات تصديق المصدر تتلخّص في ثلاثة أشياء هي: النية والخبرة والثقة.. فان هذه الصفات كانت من أسس الدعوة المحمدية قبل هذا بأربعة عشر قرناً من الزمان. فقد كان ﷺ على خلق عظيم حُبّ الناس فيه وجعلهم يثقون به ثقة كاملة.

وقد قال عن نفسه «انما بعثت لأتم مكارم الأخلاق». وقد وجهه الله سبحانه وتعالى الى أسلوب الدعوة القائمة على الخلق العظيم في قرآنه الحكيم ﴿فبما رحمة من الله لئن لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فاذا عزمتم فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين﴾^(٣).

ولقد أحبّ الناس محمد بن عبدالله وتآلفوا معه، وأقبلوا على دعوته لما اتّصف به من حلم وصبر وصفح وعفو عند المقدرة، وليس أدلّ على ذلك من قصته مع «غورث بن الحارث» حينما تصدّى ليفتك برسول الله وهو نائم في ظل شجرة وقت القيلولة، فلم ينتبه رسول الله ﷺ الا وهو قائم والسيف مصلت على رأسه في يد «غورث» وهو يقول «من يمنعك مني؟» فقال عليه السلام بهدوء وإيمان ولسان صادق «الله!» فسقط السيف من يد «غورث» فأخذه النبي ﷺ وقال له «غورث» «من يمنعك مني؟» قال غورث «كن خير أخذ»، فتركه وعفا عنه. فدنا قلب الرجل بعد نفور، وصار داعية لمحمد ﷺ بعد أن كان يريد قتله، وقد ذهب الرجل الى قومه يحبهم في محمد ﷺ ودينه، فقال لهم: «جئتمكم من عند خير الناس». وهكذا حول عفو رسول الله «غورث» من الشر الى الخير، وجعله من خيرة الدعاة لمحمد ودينه بعد أن كان يريد قتله والقضاء على دينه.

ولقد كان العفو من الصفات التي جمعت القلوب على حب رسول الله ﷺ، وألفت بين النفوس وجعلت الناس يحبونه الى درجة جعلتهم على استعداد

(٣) سورة آل عمران آية ١٥٩.

لفدائه بأرواحهم، ولم يخرج على هذا الاجماع إلا من ركب الشيطان رأسه فطغى وبغى واستكبر، وآثر الضلال على الهدى.

يقول هند بن هالة ربيب رسول الله ﷺ في وصفه «وان من أول صفات محمد بن عبدالله ﷺ انه يخزن لسانه فلا يظهره الا لخير يرتجيه.. فلا يشجع على نفرة، بل انه لا ينطق الا فيما يعني الذين يخاطبهم ويفيدهم ويكون فيه تأليف لقلوبهم، وتقريب لنفوسهم وتأنيس غريبهم، ويأمر باعطاء ذي الحق، ولا يتكلم في مراء، ولا يذم أحداً، ولا يكثر في قول خشية سقط اللسان، لا يعيب الحرمات، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يشبع نهمة القول، فاذا تكلم هو كان كلامه فصلاً، وكان قوله حكماً».

ومن أخلاق الرسول عليه الصلاة والسلام التي كان لها أثرها الكبير في الدعوة الاسلامية، أنه كان يأتلف مع أصحابه، ويوزع محبته بينهم، وكان متواضعاً، فإذا دخل على جماعة يجلس حيث ينتهي المجلس، وقد حث أصحابه على ذلك، وإن أرشد ففي رفق يكتفي معه بالاشارة، فان لم يكف كان التعريض، فان لم يكف كان التنبيه في تعميم، فإذا رأى بعض الناس سيئ فلا يواجهه بالاساءة بل يقول ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا؟ ومن ذلك ما قاله يوم خرج على الناس بعد قصة الافك فقال (أيها الناس.. ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت منهم إلا خيراً، وقد ذكروا رجلاً ما علمت منه إلا خيراً وما يدخل بيتاً من بيوتي إلا وهو معي).

ولم يكن ﷺ يذم أحداً مهما كان السبب، بل انه قد امتنع طول حياته عن الذم إلا أن يضطره الحق اضطراراً فانه يتكلم بالكناية.

روى عروة بن الزبير عن خالته أم المؤمنين عائشة أنها قالت في أخلاق محمد ﷺ. ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً قط ولا امرأة، ولا ضرب بيده شيئاً إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما خير بين شيئين إلا كان أحبهما إليه أيسرهما إلا أن يكون اثماً، ولا انتقم لنفسه عن شيء يؤتى اليه

حتى تنتهك حرمة الله فينتقم الله عز وجل».

وقد وصفه أبو هريرة رضي الله عنه فقال «كان يقبل جميعاً ويدبر جميعاً - بأبي وأمي - لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ولا صخاباً في الأسواق».

ومن هذا الوصف يتضح لنا أنه ﷺ كان يحسن استقبال الناس فيقبل على الواحد منهم اقبالاً كاملاً، وإذا تركه فانه لا يتركه إلا بعد أن يتم حديثه وينتهي راضياً مستريح النفس، وانه ﷺ لم يكن فحشاً أو يستعمل ألفاظاً نابية، أو يصخب أو يغاصب أو يمازح أو يجادل في الأسواق والأماكن العامة.

وروى أبو أمامة رضي الله عنه قال «خرج علينا رسول الله ﷺ متوكئاً على عصا فقمنا له، فقال «لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً».

وقال «انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد».

وفي حديث لعمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم.. انما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله). وقال ﷺ «انما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد».

وقد أجمع الرواة على أنه ﷺ كان متواضعاً في غير ذلة، وكانت له هبة ترهب الكفار والمشركين وتملأ قلوبهم رعباً وهلعاً.. وهي للمؤمنين رحمة تزيدهم إيماناً به وحباً له.

ومما يرويه ابن اسحق أن رجلاً من أراش قدم الى مكة بابل له، فاشتراها منه أبو الحكم عمرو بن هشام «أبو جهل» ثم ماطله في الدفع، فأقبل الأراشي حتى وقف بدار الندوة ورسول الله ﷺ بناحية من المسجد جالس، فقال الأراشي «يا معشر قريش من رجل يؤديني على أبي الحكم، فاني رجل غريب ابن سبيل وقد غلبني على حقي؟» فقال له أهل ذلك المجلس: «أترى ذلك الرجل الجالس؟» وأشاروا الى رسول الله ﷺ وهم يهزءون به لما يعلمون بينه وبين أبي جهل من العداوة «اذهب اليه فانه يؤدبك عليه». فأقبل الأراشي على

رسول الله وروى له القصة، فقام معه رسول الله ﷺ فلما رآوه قام معه قالوا لرجل ممن معهم «اتبعه فانظر ماذا يصنع». وخرج رسول الله حتى جاء بيت عمرو بن هشام فضرب عليه بابه، فقال عمرو بن هشام «من هذا؟» قال الرسول «محمد.. فاخرج الي» فخرج اليه وما في وجهه من رائحة قد امتقع لونه، فقال له الرسول «اعط هذا الرجل حقّه»، قال عمرو «نعم... لا تبرح حتى أعطيه الذي له». فدخل وعاد بحق الرجل فدفعه اليه، ثم انصرف رسول الله وقال للأراشي «الحق بشأنك». فأقبل الأراشي حتى وقف على الندوة وقال «جزاه الله خيراً فقد والله أخذ لي حقّي». وجاء من بعده الرجل الذي بعثوا به معه فسألوه عما رأى فقال «عجباً من العجب.. والله ما هو إلا ان ضرب عليه بابه فخرج إليه وما معه روحه». وروى لهم ما حدث، ثم لم يلبث أن جاء عمرو بن هشام فقالوا له «ويلك.. ما لك؟ والللات ما رأينا مثل ما صنعت قط» قال: ويحكم، والللات ما هو إلا أن ضرب على بابي وسمعت صوته فملئت رعباً، ثم خرجت إليه وان فوق رأسه لفحلا من الابل ما رأيت مثل هامته ولا قصارته ولا أنيابه لفحل قط.. والللات لو أبيت لأكلني».

وتروى لأبي جهل قصة مماثلة، فقد حاول يوماً أن يضرب رسول الله بهجر ضخم أعده لذلك عندما يسجد للصلاة، ولكنه ما كاد أن يرفع الحجر وهم بإلقائه فوق رأس رسول الله ﷺ حتى انتابه الفرع وألقى بالحجر بعيداً، ثم أسرع الى أصحابه وهو يرتعد، فسألوه ما به فروى لهم القصة وقال «وما ان همت بإلقاء الحجر حتى وجدت بيني وبين محمد فحلاً بشع الصورة مكشراً عن أنيابه يريد أن يلتهمني، فنجوت بنفسي».

ومن الأمور التي تؤكد ما كان لرسول الله ﷺ من هيبة ومهابة بين أصحابه وصف الواصفين لمجلسه، فقد أجمعوا على عظيم مهابته وشدة وقاره وسمته وقالوا «ان مجلسه كان يحفه الوقار، لا يتكلم فيه أحد إلا اذا اذن له الرسول في القول، وإذا صمت عليه السلام صمتوا جميعاً في هدوء واطمئنان».

ولهذا عجب عمر بن الخطاب رضي الله عنه أشد العجب عندما دخل يوماً الى رسول الله فوجد بعض النسوة يتسابقن في سؤاله ويتصايحن عليه، وما كدن يرين عمراً حتى سكتن جميعاً، فابتسم رسول الله ﷺ حتى بدت سنه، فقال عمر «أضحك الله سنك يا رسول الله.. ما الذي أضحكك؟» فقال عليه الصلاة والسلام «هؤلاء النسوة كن يتصايحن علي، فلما رأينك سكتن» فقال عمر «أي عدوات أنفسهن، أتهبني ولا تهبن رسول الله؟». فقالت احداهن «ولكنك أفظ وأغلظ». فأسكتها الرسول وقال نافياً الغلظة عن صاحبه «لا... ان الشيطان لا يسير في فج يسير فيه عمر».

ويروي عمرو بن العاص أن النبي ﷺ كان يطوف بالبيت والملا من قريش جالسون في فنائه، فكلما مر النبي ﷺ غمزوا بالقول فيبدو ذلك في وجهه. وكرّروا ذلك سبعا حتى اتي الطواف، ثم التفت اليهم وقال لهم في قوة المؤمن وهيئته «يا معشر قريش شأهت الوجوه وأرغم الله هذه المعاطس لقد جئتكم بالذبح». أو كما قال عليه الصلاة والسلام. فما كان منهم أحد إلا كان يقابله بأحسن القول ويقول «اذهب أبا القاسم موفوراً، ما علمنا عليك شر قط».

وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال «دخلت السوق مع النبي ﷺ فاشتري سراويل. وقال للوزان «زن وأرجح». فوثب التاجر الى يد النبي يقبلها، فجذب يده وقال «هذا ما يفعله الأعاجم بملوكهم ولست بملك، إنما أنا رجل منكم»، ثم أخذ السراويل فذهبت لأحملها، فقال ﷺ «صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله».

هكذا كان رسول الله من حيث التواضع والوقار والهيبة وهو على نفس الدرجة من الرحمة والشفقة والرأفة.. وقد وصفه الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ

عليكم بالمؤمنين رؤوفٌ رحيمٌ»^(٤) وقال جل شأنه ﴿وما أرسلناك الا رحمةً للعالمين﴾^(٥).

سأله أصحابه يوماً قائلين، يا رسول الله، أكثرت من ذكر الرحمة.. ونحو نرحم أزواجنا وذريتنا» فقال ﷺ «ما هذا أريد.. انما أريد الرحمة بالكافة». ومما يروى عن رحمته عليه السلام ان اعرابياً جاءه يطلب منه شيء فأعطاه ثم قال له «أأحسنست إليك؟». قال الاعرابي «ولا أجملت». فغض الحاضرون من المسلمين وقاموا الى الرجل. فأشار الرسول لهم أن كفوا.. قام عليه الصلاة والسلام ودخل منزله ثم أرسل الى الاعرابي وزاد شيئاً، قال «أأحسنست إليك؟» قال «نعم.. فجزاك الله تعالى من أهل وعشيرة خير فقال عليه الصلاة والسلام «انك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي من ذ شيء، فإن أحببت فقل ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك قال: «نعم». فلما كان العشي جاء فقال ﷺ لأصحابه «ان هذا الاعرابي قال قال فزدناه، فزعم انه رضي بذلك». قال الاعرابي «نعم فجزاك الله تعالى أهل وعشيرة خيراً». فقال النبي ﷺ «مثلي ومثل هذا مثل رجل له ن شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدها الا نفوراً، فناداهم صاحبها: خ بيني وبين ناقتي فإني أرفق بها منكم وأعلم. فتوجه لها بين يديها فأخذها قدام الأرض فردّها حتى جاءت إليه واستناخت، وشد عليها رحلها واستر عليها، واني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار».

هذه صورة من صور الرحمة عند رسول الله ﷺ وهي تبين لنا ك كان رحيماً مع المسلمين رؤوفاً بهم حريصاً على صالحهم، وكيف كان قدوة وأسوة حسنة كما قال الله سبحانه وتعالى ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾^(٦).

(٤) سورة التوبة، آية ١٢٨

(٥) سورة الأنبياء، آية ١٠٧

(٦) سورة الأحزاب، آية ٢١.

وهناك صور أخرى كثيرة تبين كيف ان الرحمة عند رسول الله ﷺ شيء عن حكمة الدعوة والارشاد والهداية الى الحق.. تقرب الشارد وتصلحه ولا تعافيه أو تنفره وتسوس النفوس وتحولها من الباطل الى الحق وتضعها على الجادة بدون عنف أو قسوة، وفي ذلك كمال التبليغ للدعوة الاسلامية وبيان للاعلاميين والدعاة يشرح لهم كيف ان الرحمة وسيلة الوصول الى النفوس والاستئثار بالقلوب واقتناع العقول.

وتتجلى الرحمة في أرقى صورها وألطف مشاهدتها بين الرسول وأهل بيته.. بينه وبين أولاده وأحفاده. فقد كان يسمع بكاء الطفل وهو يصلي فيخفف في صلاته ليكون بجوار الطفل من يرحم بكاءه، وقد روت لنا الكتب أن احد السبطين كان يركب على ظهره وهو ساجد، فكان عليه السلام يطيل السجود حتى لا يزعجه ويستمر الطفل مرتجلاً ظهر جده الرؤوف الرحيم حتى يتركه. وعندما أرسلت إليه ابنته زينب الكبرى لتقول ان ولدها يحتضر، أرسل اليها عليه الصلاة والسلام يقول «ان الله ما أخذ وما أعطى، وكل شيء عنده مسمى فلنحتسب لنعتب». فأصرت زينب على أن يحضر وأقسمت عليه. فقام ﷺ ومعه من بحضرته من الصحابة، فلما رأى الطفل حمله ثم وضعه في حجره ونفس الطفل يخرج، ففاضت عيناه عليه الصلاة والسلام، فقال له سعد بن أبي وقاص ما هذا يا رسول الله؟ قال «هذه رحمة وضعها الله في قلوب من شاء من عباده، ولا يرحم الله من عباده الا الرحماء».

وكما كان ﷺ رحيماً بالابناء كان رحيماً بالآباء كذلك، والعلاقة بين الآباء والأبناء في الرسالة المحمدية تأخذ وضعاً سامياً رفيعاً.. وقد بلغ من تقدير القرآن لقوة هذه العلاقة ان قال تعالى ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾^(٧).

(٧) سورة الاسراء، الآيتان ٢٣، ٢٤.

ولم يسمح الاسلام للابن بأن يعنف أبويه حتى ولو كانا مشركين، ولكنه
أباح للابن ألا يطيع أبويه في الشرك دون أن يهدر حقهما عليه، وأن يصاحبهما
في الدنيا معروفاً.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي
عَامَيْنِ إِنْ شَكَرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ۝ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي
مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُكُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾^(٨).

وقد قدّم الرسول ﷺ بر الوالدين على الجهاد في سبيل الله، جاء اليه
رجل فقال «جئت أبايعك على الهجرة وترك أبي يبيكان»، فقال ﷺ «ارجع
اليها فاضحكها كما أبكيتها».

وجاءه صحابي يسأله الاذن في الجهاد، فسأله الرسول «ألك أهوان؟». قال «نعم». قال «ففيها فجاهد». وحدث الصحابي «معاوية بن جاهمة السلمي»، قال «أتيت رسول الله ﷺ فقلت «يا رسول الله اني كنت أردت الجهاد معك أبتغي وجه الله والدار الآخرة». قال «ويحك أحيّة أمك؟». قلت «نعم». قال «ارجع فبرها». ثم أتيت من الجانب الآخر فقلت «يا رسول الله... اني كنت أردت الجهاد معك ابتغى وجه الله والدار الآخرة». قال «ويحك أحيّة أمك؟». قلت «نعم يا رسول الله». قال: «فارجع اليها فبرها». ثم أتيت من أمامه وأعدت ما قلت.. فقال «ويحك الزم رجلها فثم الجنة».

وعن أبي أمامة أن رجلاً قال «يا رسول الله ما حق الوالدين على ولدهما؟». قال: «هما جنتك ونارك».

واذا كنا فيها تقدّم قد تحدثنا عن الرحمة وصلة الرحم وعن الصلة بينها وبين مفهوم الاتصال، فان الاعلام الاسلامي يحرص على أن تكون الرحمة بجميع أشكالها وصورها إحدى وسائله وأساليبه في الاتصال بالجاهير، وكذلك

(٨) سورة لقمان، الآيتان ١٤، ١٥.

العفو والتسامح وهما صفتان من صفات رسول الله ﷺ. وقد أمره الله سبحانه وتعالى بهما في قوله الكريم ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(٩). وفي قوله أيضاً ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^(١٠).

قال «أنس بن مالك»: كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه برد غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجذب بردائه جذباً شديداً حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله فإذا قد أثرت فيه حاشية البرد من شدة جذبته. ثم قال الأعرابي «يا محمد مر لي من مال الله تعالى الذي عندك». فالتفت إليه رسول الله ﷺ وضحك، ثم أمر له بالعطاء.

ولو كان أحد رجالات قريش في مكان رسول الله وقام هذا الأعرابي بهذا العمل معه لضربه فشدخه أو قتله، ولكن سباحة الرسول الكريم أثبت عليه أن يفعل ذلك فالتفت إليه وضحك وكأن شيئاً لم يحدث، بل القارئ لهذه القصة قد يرى أن رسول الله ﷺ قد ضحك لكي يخفف من وقع هذا التصرف الغليظ على صاحبه وعلى من يشهدون الواقعة.

وروي أنه كما كذبت قريش دعوة الإسلام وبالغت في الإساءة إلى النبي وإيذائه حتى أنه لجأ إلى ثقيف بالطائف يرجو أن يجد النصرة عندهم. فما كان منهم إلا أن أغروا سفهاءهم به فطاردوه وضربوه بالحجارة، فاشتكى إلى الله سبحانه وتعالى ما يجد منهم وقال «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس. يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي. إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له

(٩) سورة الاعراف آية ١٩٩

(١٠) سورة فصلت آية ٣٤

الظلمات وصلاح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك أو يحل علي سخطك، لك العتبي حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك». فأتاه جبريل عليه السلام فقال له «إن الله تعالى قد سمع قول قومك وما ردّوا به عليك، وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فناداه ملك الجبال وقال «مرني بما شئت.. إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين» قال النبي ونفسه تقطر رحمة وسماحة «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

وعن السماحة والعفو عند رسول الله ﷺ تحدّثنا القصة التالية وقد وقعت يوم الفتح الأبلج - فتح مكة - فقد طلب الرسول الكريم عثمان بن طلحة بن أبي طلحة وأعطاه مفتاح الكعبة وهو يقول «خذوها يا بني أبي طلحة تالدة مخالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم، يا عثمان، إن الله سبحانه وتعالى استأمنكم على بيته فخذها بأمانة الله عز وجل». وابتسم الرسول الكريم لعثمان ابتسامة ذات معنى، فأطرق عثمان في خجل وكان لذلك قصة. فقد كان الرسول ﷺ قد قال لعثمان يوماً وهو يدعو للإسلام «لعلك ستري هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت». فقال له عثمان يوماً «قد هلك قريش وذلت». فأجابه الرسول الكريم عليه أزكى الصلاة والسلام «هل عزت وعمرت يومئذ يا عثمان».

هكذا عفا رسول الله عن عثمان وسامحه في لحظة كان فيها هو المنتصر الذي بيده أن يمنح ويمنح، وكان فيها يستطيع أن يفعل بعثمان ما يشاء، ولكنه رسول الله ونبيه الكريم الذي جبل على مكارم الأخلاق.

وفي نفس اليوم - يوم الفتح - بعد الخطبة، التفت رسول الله ﷺ إلى الذين عادوه وحاربوه بكل وحشية وشراسة وبذلوا كل ما في طاقتهم لكي يقضوا عليه وعلى دعوته، وقال لهم «ما ترون اني فاعل بكم؟». قالوا وهم يرتعدون «خيراً.. أخ كريم وابن أخ كريم». فقال ﷺ «اذهبوا فانتم الطلقاء».

فذهل القوم وتسابقوا الى الدخول في الاسلام، وباتت مكة ليلتها وقد رفرف عليها الايمان.

نستخلص من هذه القصص التي تؤكد ما كان عليه رسول الله من عفو وسماحة، ان الداعية الاسلامي يجب أن يطهر نفسه من كل حقد وغل حتى ولو كان لمقابلة اساءة قديمة بمثلها، أو الانتقام لموقف سبق أن تعرض له على يد أحد الذين يدعوه، وان يطهر نفسه أيضاً من الأنانية والاثرة، ولن يكون له ذلك الا بالايثار والفناء في دعوته، ولقد قالت عائشة رضي الله عنها في هذا المعنى «ان النبي ﷺ لا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح».

ومن الصفات التي زانها رسول الله ﷺ صفة الحياء وقد قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه «كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها». وقال القاضي عياض في كتابه الشفاء «كان النبي ﷺ أشد الناس حياء وأكثرهم عن العورات إغضاء».

وقد تمثل القاضي عياض بقول الله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾^(١١). وقد نزلت هذه الآية لأن بعض أصحابه كانوا يستغلون كرمه الشديد وحياءه الشديد أيضاً، فكانوا يجلسون في بيته فيتناولون الطعام ويأخذون في الحديث مما يؤدي الى اضطراب في بيته واغلاق لراحة أهله، ولم يكن النبي لفرط حيائه يأمرهم عن ذلك أو يطلب اليهم الخروج، فتولى الله تعالى ذلك عنه وعلم المؤمنين الأدب في هذا المقام، وأعفى رسوله من هذه المهمة التي تجعله يخرج عن طبيعته في الحياء، فقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَظِيرِينَ إِنَّمَا وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مَسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾^(١٢).

(١١) (١٢) سورة الأحزاب، آية ٥٣.

جاء في كتاب الشيخ محمد أبو زهرة سؤال حول صلة الحياة والشماثل النبوية بدعوة الرسول ﷺ وتبليغ الرسالة، وهو سؤال يرتبط بالاعلام الاسلامي بوجه عام.. يقول: «ان خلق الداعي يجذب الى موضوع الدعوة، فلو كان الداعي فحاشا، أو صخابا، أو يغلب عليه أن يلوم وتقرع عباراته، لنفر منه الناس وما استجاب له الا أهل الحق الصرف الذين لا يهمهم لون الدعوة بمقدار ما يهمهم لبها».

وإذا كان الخلق الطيب يجذب النفوس ويوجهها نحو الحق، فان الحياء أشد الأخلاق اجتذاباً للنفوس، فان الحياء يجعل صاحبه لا يفجأ الناس بما لا يسرهم بل يجيء اليهم من جانب ما يألفون فلا تتشعب عن الحق، وان عنف الداعي وتفحش قوله يعوق دعوته ويكون استثقاله مؤدياً الى رده، واذا كان مع الحياء لين في الطبع من غير ضعف، وقوة في الحق، وصل اليه في مداخل سهلة لينة. ولقد قال في وصفه علي بن ابي طالب «كان أوسع الناس صدراً وأصدق الناس لهجة وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة». ولقد كان لالتقاء الخلق الحسن اللطيف المعشر مع الحياء والاستمساك بالحق مزيجاً من أخلاق كريمة جعله لا يترك التنبيه الى الحق في رفق، وجعله يصل الى ما يريد من إيغاله في القلوب.

وقد ذكر ابن عباس صفات رسول الله ﷺ فقال: «كان أجود الناس خيراً، وأجود ما يكون في شهر رمضان، وكان إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة».

ولقد قالت له خديجة رضي الله عنها «أبشر يا بن العم واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده اني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، ووالله لا يخزيك الله أبداً.. انك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقوي الضعيف وتعين على نوائب الحق».

وقد عرف عن النبي ﷺ انه ما كان يرد أحداً، وانه كان يجود بالموجود

كله، وقد ذكر أن رجلاً جاءه يسأله حاجة، فقال «ما عندي شيء ولكن اتبع علي فاذا جاءنا شيء قضيناه».

ولقد قال عمر رضي الله عنه وقد رأى الرسول الكريم يتحمل ثمن البيعات ليؤديه إذا لم يكن معه، فقال له: ما كلفك الله تعالى ما لا تقدر عليه» فكره عليه الصلاة والسلام من صاحبه ذلك لأنه لا يريد أن يحول أحد بينه وبين سجيته التي فطره الله عليها. وقد لاحظ انصاري كان في حضرة الرسول وصاحبه فقال «يا رسول الله أنفق ولا تخش من ذي العرش اقلالا». فتبسم رسول الله ﷺ بعد ذكره وعرف البشر في وجهه، وقال «بهذا أمرت».

والمعروف أنه كان يأمر بلالا قائلاً «أنفق بلال ولا تخش من ذي العرش اقلالا».

ويقول عليه الصلاة والسلام «ما من يوم يصبح الا وملكنا يقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكاً تلفاً».

والمطلع على السيرة النبوية يجد أن من شمائل الرسول ﷺ الوفاء بالعهد ورعايته، وأوضح مثل على ذلك وفاؤه بأمر المؤمنين خديجة الى درجة جعلت عائشة رضي الله عنها تغار من كثرة ذكره لها وبره لمن كان على صلة بها، فقالت «هل كانت الا عجوزاً بذلك الله خيراً منها». فقال «والله ما أبدلني خيراً منها. آمنت بي اذ كفر الناس، وصدقني اذ كذبني الناس، وواستني بماها اذ حرمني الناس، ورزقني منها الولد دون غيرها من النساء».

ومن ذلك بره بحليمة السعدية وأولادها، وبره بأمر أمين التي كان يقول عنها «هي أمي بعد أمي».

ولما كانت الشجاعة إحدى الصفات التي يتحتم وجودها في الداعية بصفة خاصة، ورجل الاعلام بصفة عامة، فانها كانت في أعظم صورها إحدى صفات الرسول ﷺ ولم تكن شجاعة حسية فحسب وانما اجتمعت عنده ﷺ

الشجاعة الحسية مقترنة بالشجاعة المعنوية، وسلامة التصرف وسداد الرأي والاقدام حيث يتحتم والمبادرة حيث تكون إحدى الضرورات التي يفرضها الموقف.

وليس أدل على ذلك من تصرفاته قبل البعث حيث كان لا يحفل بأصنام القوم ولا يسجد لها ولا يعترف بها. وهو يعلم خطر ذلك عليه وانهم جميعاً يفرضون احترامها وتبجيلها. ولم يكن ﷺ يحلف بها، ويروى انه في إحدى رحلاته اختلف مع البائع على الثمن، فطلب منه البائع أن يحلف باللات والعزى فرفض.

وعندما اشتد الخلاف بين القبائل القرشية، وأصرّت كل واحدة منها أن تستأثر بشرف وضع الحجر الأسود الى مكانه من جسد الكعبة، واشتعلت الخصومة وتطأير الشرر ينذر باقتراب حرب طاحنة تأكل الأخضر واليابس، وبقيت قريش أربع ليال والخطر يتهددها، وراح الكل يستعد ويعد العدة للقضاء على الآخر، وحاول العقلاء والكبار من رجالات قريش أن يحسموا الأمر قائلين «ان رفع الحجر لم يكن ضمن الاقتراع عند البناء، وأنه يمكن الاقتراع عليه من جديد». ولكن محاولتهم كلها راحت عبثاً اذ استمر الخلاف واستحكم وبلغ أشده، وجاءت بنو عبد الدار بجفنة مليئة بالدماء وصاح كبيرهم «يا عبد الدار هذه جفنتنا قد امتلأت بالدماء فتعالوا واغمسوا أيديكم فيها ولنتعاقد على الموت ان فاتنا شرف وضع الحجر الأسود مكانه»، وجاء بنو عبد مناف وقالوا «لن يفوتنا هذا الشرف. الموت لنا ان فاتنا» وصاح بنو أسد «ونحن بنو أسد ومعنا بنو عدي نعلن أن هذ الشرف لن يستأثر به غيرنا الا بعد أن نكون قد أصبحنا طعاماً تهضمه بطون الوحوش في الجبال».

وهنا تقدّم منهم أبو حذيفة المخزومي وقال «كفى يا معشر قريش، لقد أردنا البر ولم نرد الشر فلا تحاسدوا ولا تنافسوا فان فعلتم تشتت أموركم وطمع فيكم غيركم، حكموا بينكم أول من يدخل من هذا الباب يفصل في

خلافكم، فوافقت القبائل كلها على ذلك وتعلّقت أعينهم بالباب الذي أشار إليه أبو حذيفة، تترقب الداخل المجهول للحكم بينهم ويفض خلافهم. وانهم لذلك إذ يدخل محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام، فهتفوا جميعاً «هذا الأمين.. هذا محمد بن عبدالله الهاشمي. قد رضيينا بحكمه». وأقبلوا جميعاً عليه وشرحوا له ما كان من أمرهم، فطلب ثوباً ثم وضع الحجر بيده الكريمة فيه، وقال ﷺ «ليأت من كل ربع من أرباع قريش رجل». فكان في ربع عبد مناف عتبة بن ربيعة، وفي الربع الثاني أبو زمعة بن الأسود، وفي الربع الثالث العاص بن وائل، وفي الربع الرابع، أبو حذيفة المخزومي نفسه. ثم ارتقى ﷺ على الجدر ورفع القوم له الركن، حتى إذا بلغوا موضعه وضعه بيده الكريمة في مكانه. وهكذا حلّت المشكلة العويصة وحقت دماء قريش.

قبل رسول الله ﷺ الحكم في هذا الخلاف المستحكم المشتعل بشجاعة، ولم يجفل أو يتردد مع علمه أن هذه القبائل قد جبلت على المشاكسة وحب السيطرة والاستتار، وإن ارضاءهم جميعاً أمر من الأمور التي تكاد تكون مستحيلة، ولكنه أقدم وحكم بشجاعة، فكان أن وفقه الله وجعلهم جميعاً يرضون عن حكمه.

وبعد أن بعثه الله تعالى بدعوة التوحيد تجلّت شجاعته في المجالين - المعنوي والحسي - في معارك الرأي ومعارك السيف.

عن علي رضي الله عنه قال^(١٣) «لقد رأيت يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ﷺ وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً».

وعنه أيضاً أنه قال «كنا إذا حمي البأس واحمرّت الحديق اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه»^(١٤).

(١٣) و(١٤) المحافظ بن محمد عبدالله الأصبهاني المتوفى سنة ٣٦٩ هـ كتاب أخلاق النبي ﷺ وآدابه (مخطوط)، حققه (حسن محمد مرسى)، وراجعته (محمد عبد الرحمن عثمان)، القاهرة مؤسسة الاهرام ١٤٠١ هـ.

وعن سعد بن عياض الشامي قال «كان رسول الله ﷺ قليل الكلام قليل الحديث، فلما أمر بالقتال تشمر وكان من أشد الناس بأساً».

وحينما بلغ الخامسة عشرة من عمره ثارت حرب اشتركت فيها قريش وهي حرب الفجار، فإذا هو يصحب الجيش المحارب ويقف على خط القتال ويخوض أول معركة من المعارك الحربية، وكانوا قد حددوا له دوره في المعركة وهو أن ينبل على أعمامه أي يمدهم بالنبال - ولكن ما ان بدأت المعركة وحمي وطيسها حتى جاوز هذه المهمة وأخذ يرمي بالسهم والنبل.

لقد غلبته شجاعته ودفعته الى أن يكون مقاتلاً على الرغم من عوده الأخضر وسنه الصغيرة.

وهو الذي حدث فيما بعد بقوله «ليس من اللهو محمود الا ثلاثة: تأديب الرجل فرسه، وملاعبته أهله، ورميه بقوسه ونبله، فانهن من الحق.. ومن ترك الرمي بعد ما علمه رغبة فانها نعمة تركها».

وليس من شك في أن هذه الأمثلة - وغيرها كثير - للشجاعة النادرة تتيح لصاحبها أن يبلغ الدعوة وأن يؤدي الرسالة غير هباب ولا وجل ولا متردد.

وقد فرض الجهاد في الاسلام بهدف تبليغ الدعوة، وكان ذلك بعد ان حاول الرسول بالحكمة والموعظة الحسنة، وبعد أن جادلهم بالتي هي أحسن ولم يبق الا أن يستعمل السيف.

يقول الدكتور إبراهيم امام «الأصل في الجهاد أنه يمهّد الطريق لحرية الاعلام الاسلامي، ويتيح الفرصة امام رجاله كي يبلغوا الرسالة ويؤدوا الأمانة، لأنه «بعث رحمة للعالمين في وقت كان العالم فيه يئن تحت نير الظلم والتعسف والطغيان. وكانت الديانات السائدة آنذاك تفرض الطاعة المطلقة لكل طاغية غير أن تبليغ الرسالة والاعلام بالدين الحق أسمى واجبات

المسلمين مهما كانت العقبات التي تكتنف الطريق، ومهما كانت الصعوبات التي تواجه المؤمنين، وقد وعد الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم بأنه يعصمه من الناس في سبيل الدعوة الى الحق ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٥).

وقد نشط الطغاة والأباطرة للقضاء على دعوة الإسلام ورسوله، فأرسل كسرى من يقتل النبي ﷺ قتل العديد من المؤمنين. وقد حاول بعض اليهود أن يقتلوا الرسول وأصحابه وحاولوا أن يفتنوه وأن يسحره، ولكنهم فشلوا في ذلك فشلاً ذريعاً.

ولقد كان الجهاد في وقت من الأوقات هو الوسيلة الوحيدة لتعبيد الطريق وتمهيدته أمام الاعلام الاسلامي، وتهيئة المناخ اللازم لابلاغ العباد كلمة الله العليا ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١٦).

فالمسلمون يجاهدون بالسيف لرفع كلمة الله، ويقاتلون لإزاحة العقبات عن طريق الدعوة الى سبيله. وهم يؤمنون بأن حرية الاعلام هي القاعدة الأساسية التي يختار على هديها الانسان دين الحق، فليس القتال لازهاق الأرواح انما رغبة لاشاعة جو الدعوة الى التوحيد، واعلام الناس بحقائق الدين القائم على الحق والحرية والعدل والايمان بالواحد الأحد ﴿كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرِهَ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٧).

(١٥) سورة المائدة آية ٦٧

(١٦) سورة البقرة آية ١٩٣

(١٧) سورة البقرة آية ٢١٦

الاسوة الحسنة ووظائف الفن الهوائي(*)

«الحمد لله الذي من علينا بمحمد نبيه ﷺ دون الأمم الماضية والقرون السالفة، بقدرته التي لا تعجز عن شيء وان عظم، ولا يفوتها شيء وان لطف، فختم بنا على جميع من ذرا، وجعلنا شهداء، على من جحد، وكثرنا يمينه على من قل».

وجدت نفسي أتلو هذا الدعاء من صحيفة زين العابدين رضي الله عنه، فور الانتهاء من قراءة السطور الأخيرة من رواية الاستاذ ثروت أباظة الأخيرة، «خشوع» وهي سطور تؤكد صدق «المقدمات» المنطقية التي قامت عليها الرواية في «بنيتها»، اذ تصبح «القدوة» في حد ذاتها - سلاحاً - ضد الظلم وضد الشر، بل ان من مزايا «الاسوة الحسنة» كسلاح، انها تظهر الانسان من شر نفسه فيجد نفسه مدفوعاً مع النموذج البشري الذي رسمه ثروت أباظة ليجسد هذا المعنى، «رفعت الربيعي»، ليقول امام المحكمة المنعقدة، بصوت عميق الأغوار:

- رفعت الربيعي حاضر عن نفسه يا حضرة القاضي.
«وتقدّم رفعت الى المنصة في خطوات ثابتة، حتى اذا أصبح أمام القاضي قال أسمح لي يا حضرة القاضي؟
- أنت مدّعى عليك... لا بدّ أن يتكلّم المدعي أولاً.
- ربّما أقول شيئاً يغنيه عن الكلام.

(*) الاهرام في ١٤/٥/١٩٨٩

- أسمح يا أستاذ منصور؟
- لا مانع يا حضرة القاضي.

وتكلم رفعت الربيعي، كل القضايا المرفوعة ضدي من السيدة سامية نشأت أو من غيرها، أنا معترف بحق المدعين فيها بلا استثناء، وكل القضايا المرفوعة ضدها أو ضد آخرين أنا متنازل عنها.. هذا اجمال أرجو أن يثبت في محضر الجلسة، ثم أفضل الاجمال مع الاساتذة المحامين بتوقيع مني على ما يطلبون التوقيع عليه، ولا اله الا الله، محمد رسول الله.

وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً، وعنت الوجوه للحي القيوم، وكأنما أصبحت قلوب الجميع قلباً واحداً يردد في إيمان عميق ووجيب نوراني «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

«محكمة» الضمير عند ثروت أباظة، ليست مثلاً يصعب الوصول إليه ولكنها نسجت من مقومات الواقع المعاصر، نموذجاً روائياً يردد مرحلة جديدة من مراحل تطور الرواية العربية المعاصرة، يرتكز على تاريخ عريض متشابك يتجاوز نموذج الشخصية الاسطورية، الذي استخدمه «شيلنج» ويختلف في طريقة تكوين النموذج البشري عن تصور «هيبوليت تين» (إذ تكون النماذج البشرية في رأيه من الواقع الى المثال). أما ثروت أباظة فيكون نماذجه الواقعية من «المثال» الذي يتجه نحوه، بحيث يمكن القول بان النموذج البشري لديه - يسير - من «المثال» الى «الواقع» على نحو ما صنع «دستوفسكي» مثلاً، حينما جعل أحد أبطال روايته يتخيل ان السيد المسيح عليه السلام قد غاد الى الأرض في طوفة عابرة ونزل باشبيلية في ابان سطوة «التفتيش» فوعظ الناس وصنع المعجزات وأقبل عليه الضعاف والمرضى والمحزونون يلثمون قدميه ويسألونه العون والرحمة.

وهذه «الأمثلة»، كما يقول استاذنا العقاد رحمه الله: «تعاد ولا تمل» لأن العبر، بها لا تنقضي في حقبة واحدة، ولا تزال عبرة الدهر كله في أحاديث

المصلحين والمفسدين، ولم يبالغ الكاتب العظيم في تخيُّله.

فماذا لو عاد محمد عليه الصلاة والسلام؟

يقول العقاد: لو عاد محمد عليه الصلاة والسلام لكان له نصيب ممن يرفعون العقيرة بهداية الاسلام والاسلام بريء منهم... ولكن كيف ينتفع المسلمون على أحسن الوجود بعودة النبي عليه الصلاة والسلام فترة قصيرة من الزمن؟ وما هي المسائل التي يرجعون بها الى شخصه الكريم فيسمعون منه فصل الخطاب فيها.

إن ثروت أباظة، لم يتخيَّل مثل «دستوفسكي» عودة المسيح أو محمد عليهما الصلاة والسلام، ولكنّه لجأ الى المنهج الاسلامي في البناء القصصي، وهو منهج - أولاً - وظيفي، يتّضح من مفهوم «القص» في القرآن الكريم، حيث ينصرف عموماً الى معنى الهداية الى الاخبار والاثار الباقية، ويساق لمقاصد كثيرة منها العبرة والموعظة، أو القدوة وتثبيت العزيمة، أو للتعليم والهداية.

هذا المفهوم الوظيفي، يمثّل مفتاح القراءة لروايات ثروت أباظة.. الأخيرة خاصة، ومنها رواية «خشوع» التي ترسم فيها مفهوم القدوة، في قول الله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحْبِثُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾^(١).

وهو المفهوم الذي دفع بالكاتب الى أن يقص جهاد الرسل وعاقبة الصبر على الدعوة، تثبيتاً للأفئدة وتبشيراً للدعاة والمصلحين والنماذج الانسانية الخيرة بعاقبة الصبر على الجهاد.

وهو لم يتخذ من نماذجه الانسانية، مباشرة، نماذج الرسل عليهم السلام، وانما اتخذ من سيرتهم «اسوة حسنة» لنماذج انسانية أخرى معاصرة تعيش بين الناس، وتعاني ما يعانون وتفكر فيها يفكرون، وهو في ذلك كلّ يستلهم قول الله تعالى من سورة الأحزاب:

(١) سورة هود آية ١٢٠

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^(٢) صدق الله العظيم..

اختار ثروت أباظة نموذجاً إنسانياً يقاس بسيرة رسول الله ﷺ، الذي سئلت عن خلقه السيدة عائشة رضي الله عنها فقالت: «كان خلقه القرآن».

فماذا يمكن أن يحدث لإنسان معاصر، يتخلق بالقرآن الكريم، ويقتدي برسول الله ﷺ، ويتخذ منه أسوة حسنة، في شتى نواحي الحياة؟

ذلك هو السؤال، الذي تطرحه رواية «خشوع» من خلال أحداث معاصرة نسجها الكاتب الكبير من طبيعة النسيج الاجتماعي المعاصر، ومن خلال نماذج بشرية فيها سمات من الخير ومن الشر. في قرية «المهدية» التي تضم ناساً مثلهم مثل سائر الناس فيهم الطيب الشريف وفيهم المجرم الخبيث.. والخير في حياتنا نادر والشر على الناس غالب، ولكن ليس هناك إنسان كل ما فيه شر.. وحتى أهل الطيبة والورع قد تجد جانباً منهم لا يرضيك، فانه «لا كمال الا لنبي».

هكذا يؤدي «السرد» وظيفة تهيئ المسرح، لشخصية «إبراهيم» الذي حفظ القرآن الكريم صغيراً، ونشأ في بيئة صالحة تدفع به الى تمثل المثل الأعلى والاسوة الحسنة فيقاوم الشر، ويواجه الطغيان، بثبات يدهش له أقرانه ومعاصروه من الكبار، الى أن يخجل الشر من نفسه، وينتصر الخير في نفس صاحبه عليه، فتدفعه القدوة البشرية الى «الاسوة الحسنة».

وإذا كانت المعركة بين الحق والباطل قديمة، فان الاسوة الحسنة هي التي تنير الظلام في هذا العصر، ولذلك اتسق النموذج الانساني في رواية «خشوع» بتأسي الشجاعة عند المثل الأعلى الذي قال فيه الإمام علي كرم الله وجهه: «كان أشجعنا أقربنا الى رسول الله ﷺ في القتال».

وكم يحتاج هذا العصر الى «شجاعة» تتأسي بشجاعة المثل الأعلى، في

(٢) سورة الأحزاب آية ٢١

واقع الأرض، حتى ينتصر الخير. ان رواية ثروت أباظة الجديدة تؤكد - في ضوء التحليل الوظيفي للفن القصصي - ان «القدوة» من أهم وظائف الرواية المعاصرة، وهي قدوة تتوجه شطر «الاسوة الحسنة» المتجددة على مرّ الأجيال في واقع الناس، بهدف التغيير الى الأحسن، والانتصار على الشر والطغيان.

أما المعالجة الفنيّة في رواية «خشوع» فهي معالجة «مستهدية» تقوم على الأحداث الحاسمة ونقاط التحول واحداث الذروة، وتصوير تصادم الرغبات البشريّة، وكأنني به قد أراد معالجة نموذج البشري الذي ينتقل من «المثال» الى «واقع الناس»، في أحدث أشكال القص التي تؤدي الى كتابة القصة على أساس من الأفعال المنفردة، مشهداً اثر مشهد، من خلال محاكاة درامية للحياة.

الادب الاسلامي.. وسواكب النور

من قصيدة شاعر الباكستان الكبير محمد اقبال نقرأ هذه الأبيات التي وجهها الى الأمة العربية:

أمة الصحراء يا شعب الخلود من سواكم حل اغلال الورى
أي داع قبلكم في ذا الوجود صاح لا كسرى هنا لا قيصر
من سواكم في حديث أو قديم أطلع القرآن صبحا للرشاد
هاتفاً في مسمع الكون العظيم ليس غير الله ربا للعباد

نقرأ هذه القصيدة ونحن بعقولنا وأرواحنا مع حشود الحجيج هذه الأيام وفي مثلها من كل عام، يسعون إلى «البيت العتيق» محرمين متطهرين، خاشعين، قانتين، قد تجردوا من كل زينة وجاه وزهو، وطرحوا عنهم ما يتفاخر به الناس من أزياء وألقاب ورتب ومناصب، وتخففوا من أثقال المادية التي تثد روح الانسان، وتخنق فيه هيامه الفطري الى الحق والخير والجمال.. على حد تعبير د. بنت الشاطئ في كتابها القيم: «أرض المعجزات» حيث تصوّر كيف انمحت الفروق اللونية والعنصرية والطبقية، وكيف تشهد الدنيا في هذا الحرم آية المساواة عقيدة لا يتفاضل فيها الناس الا بالتقوى: أكرمهم عند الله أتقاهم: يمحى بها الدين في ختام رسالاته، كل ما يثود إنسان العصر من مآسي التفرقة العنصرية وجرائم الاضطهاد المذهبي، ولعنة الوثنية المادية، بصوت واحد، في حرم البيت العتيق غير بعيد عن غار حراء، يعلو هتاف المسلمين:

لبيك اللهم لبيك

لا شريك لك لبيك

وإذا كان الاتصال الاعلامي بالمعنى الحديث وبأساليبه التكنولوجية، يتجاوز اللقاء المباشر والتفاعل المواجهي، فإن الحج يمثل قمة الاتصال بين المسلمين الذين يلتقون فيه من كل فج عميق على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم وتتحقق فيه الدلالة الاسلامية لمفهوم «الأمة» على أفضل نحو، حيث جعل الله البيت العتيق مثابة للناس وأمناً، وجعل الحج بين أركان الاسلام ومبانيه «عبادة العمر وختام الأمر وتمام الاسلام وكمال الدين فيه» على حد تعبير الامام الغزالي رضي الله عنه. وقد أنزل الله عز وجل قوله: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾^(١) وقال عز وجل: ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾^(٢).

ولقد خطا الاسلام بالضمير الانساني شوطاً بعيداً في جميع مناسك الحج فالمسلم - كما يقول العقاد - لا يحج الى الكعبة ليعزز فيها سلطان الكهان أو ليقدم القرابين والاتاوات، وإنما هي فريضة للأمة وفي مصلحة الأمة وعلى شريعة المساواة بين أبناء الأمة، وهي بهذه المثابة فريضة اجتماعية تعلن فيها الأمم الاسلامية وحدتها والمساواة بين الكبير والصغير أمام الله وعند بيت الله.

ويمتاز الحج في الاسلام بدلالته الروحية، إذ هو علاقة سماوية تناسب مقصدها الأسمى من تحقيق الرابطة بين الأمم التي تدين بعقيدة واحدة في أرجاء الكرة الأرضية، على تباعد مواقعها واختلاف أجوائها وفصولها. فهو رابطة من روابط السماء تؤمن بها أمم وحدتها العقيدة السماوية وان فرقت بينها شق المطارح والبقاع.

ورسالة هذه الفريضة الاسلامية اليوم في العالم الاسلامي أعظم وألزم

(١) سورة المائدة آية ٣

(٢) سورة الحج آية ٢٧

من رسالتها في جميع الأزمنة، لأنها المهد المجدد في كل عام بين شعوب الاسلام، في عصرهم أحوج ما يكونون فيه الى الوفاق والوثام.

ولقد كان لقاء الرئيس محمد حسني مبارك مع أشقائه في اللغة العربية تجسيداً لمعنى الوفاق والوثام، وجمع الشمل للأمة العربية، استلهاماً لفريضتها الاسلامية، التي تدفع بالمسلمين الى «الوحدة» في «أمة» واحدة، يسجل لها التاريخ حضارة زاهرة دفعت الانسانية الى التقدم مئات السنين، وهي تواصل اليوم بناء نهضتها في جميع الميادين العلمية والفنية والاقتصادية والأدبية بما تحقّقه من «تعاون» عربي يستهدف تشييد حضارة جديدة تحقّق مكانتها الكبرى بين أمم العالم، وهي التي تملك من قوّة الروح ومن الإيمان بالله ومن الشعور بمعاني الأخوة الانسانية بين البشر ما يمكن أن يصنع تاريخاً إنسانياً جديداً مثل التاريخ الذي صنعه اسلامنا منذ خمسة عشر قرناً. تلك هي رسالة الأدب الاسلامي المعاصر، نطالع من صفحاتها ما كتبه أمير المسرح الشعري عزيز أباطة الذي نحتفل بذكراه اليوم، ونعني مسرحية «قافلة النور»، ونطالع معها الكتاب الجديد للدكتور سعد ظلام عن «المسرح الشعري بين شوقي وعزيز أباطة».

و«قافلة النور» تدور حوادثها حول دخول الاسلام الحيرة وتمكنه من قلوب أهلها قبل الفتح الاسلامي، وفيها نقرأ ذلك الحوار بين المؤمنين والمنذر قائد جيش الحيرة الذي شاء الله أن تنفتح مشاعره لاشراقة الحق ويشرح صدره بالاسلام.

منذر

قبل التوحيد في دينكم ذلك

عماد

سعد

صدقتم.. كل العماد

ولا يزال المنذر بهم يسألهم عن رسول الله والقرآن الكريم والوحي
وتعاليم الاسلام فيجيبونه باليقين والحجة والدليل. وفي قافلة النور، نسمع غناء
الحادي:

يا نفس ان أفضيت للمنوره
ورواحتك الروضة النضرة
صوت سنا الله وضمت منبره
وبضعه من ذاته المطهره

والشاعر هنا يستلهم المأثور الشعبي، الذي يتابع أغاني الحج التي تعبر
عن مواكب النور، وهي الأغاني التي تضرب في الزمن، على نحو ما يذكر ابن
الجوزي المتوفى عام ٥٩٧ هـ في كتابه «تلبيس ابليس» حيث يقول: ان الغناء
يطلق على أشياء منها غناء الحجيج في الطرقات، فان أقواماً من الأعاجم
يقدمون للحج فينشدون في الطرقات اشعاراً يصلون فيها زمزم والكعبة والمقام،
وربما ضربوا مع الانشاد. فسماع شعرهم مباح، وليس في انشادهم إياها ما
يطرب ويخرج عن الاعتدال.

ويظهرنا د. حسين مجيب المصري على صفحات مطوية في «الأدب
الشعبي الاسلامي المقارن» نتعرف فيها الى أغاني الحجيج التي تكشف عن
أعماق الوجدان الإسلامي، وتنقسم هذه الأغاني قسمين: أولها تغنى أغانيه قبل
الخروج الى بيت الله، والثاني خاص بالعودة منه، أو الأغاني التي يترنم بها
قبيل سفر الحاج، وتختلط فيه فرحة البشرى بأداء الفريضة بالحزن على فرقة
الأهل والأحباب. أما بعد الإياب، ففي أغاني الحج فرحة المستقبلين المهنيين
بسلامة العودة، ولنا أن نميز من تلك الأغاني ما يقال في وصف حال من
يلتمسون مرضاة الله سبحانه وتعالى وهم في مناسك الحج.

فالوجدان الشعبي الاسلامي يظهرنا اذن على تمثّل فكرة «الأمة»
ووحدتها وهو ما عبّر عنه الشعراء فيما كتبوا من قصائد. يقول عزيز أباظة:

يا بني مصر.. خذوا أهبتكم لغد.. واستقبلوه حذرين
اقبلوا العزم من كل يد وانهلوا الاصلاح من كل معين
اخفق الاصلاح ان لم يتسد في مراميه على علم ودين
كيف ترضى امة عن مصلح وهي لا تنجب غير المصلحين
ويقول في قصيدة أخرى:

أيها العرب تناسوا جرحكم وأعدوا للعظيما العدد
وأديروا الرأي فيما بينكم خاب من ضل عن الشورى وند
اختلاف الرأي لا اثم به انما الاثم اتفاق مستبد

وفي قصيدته «دار الكتاب اللبناني» يقول عن لبنان:

لبنان مشرع هدى أنت ما بلد في الشرق الا سقاء غيثك السرب
لبنان أي جميل قد بذلت لنا سلمت وانحسرت عن شعبك النوب

أما «بغداد» فيقول عنها في مهرجان الشعر:

بغداد لاسمك هزة سحرية في كل مصر للعروبة ينتمي
لك في ضائرتهم هوى ودمائهم مكلوءة حرماته لم تكلم

وفي «أعياد المغرب» يقول:

ان للعرب بين شرق وغرب هدفاً سامق الذرا منشودا
فلنضم القلوب ولنمض صفا جانب الحزم من يصول وحيدا

وفي مهرجان الشعر بتونس عام ١٩٧٣ - آخر مهرجان شعري شهده

يقول:

يا تونس الخضراء همسة مهجة لك صختها يا تونس الخضراء
تسزجي إليك تحية ولو انها لم ترق ما يرقى له الشعراء

ويحيي «الجزائر» قائلاً:

هذه أمة الجزائر خطت سفر أجمادها بأيدي الخناجر
قد أخذنا عن الجزائر درساً كلنا في الجهاد شعب الجزائر
وكأنني به يشارك السودان ثورته هذه الأيام في «ذكريات القرن»، يقول:
قد لم هذا النهر من شملنا فكيف يوهي الشمل هذا النهر
وضمننا في نوره مرسل شعشعة الله هدى للبشر
وهكذا تتعاقب عرائس الشعر مع موكب النور في غناء يصدر عن
وجدان الأمة العربية والإسلامية.

توفيق الحكيم والأدب الإسلامي

إن مصدر الجمال في الفن هو ذلك الشعور بالسمو الذي يغير نفس الانسان عند اتصاله بالأثر الفني.. الأمر الذي جعل الفن في رؤيا الحكيم على اتصال وثيق بالدين، بل انه صرح ان الفن لا بد أن يكون، مثل الدين قائماً على قواعد الأخلاق.

ولذلك ينقل مع «جويو» في ان الروح الاخلاقية عند الفنان كعبريته يجب ان تنبعاً معاً، وفي وقت واحد، من أعماق طبيعية.. وان الفن غير الأخلاقي هو على كل حال أحط مرتبة، حتى من وجهة النظر الفنية الخالصة.. ذلك ان الفن العالي ليس ذلك الذي يثير في النفس أحرّ المشاعر وأعمقها فحسب، ولكنه الذي يثير فيها أكرم المشاعر وأرحمها، «ان خطر الفن يرجع الى تلك القدرة العجيبة فيه تلك التي يستطيع بها أن يستدر عطفك على مخلوقاته، ويستلبك إعجابك بصوره، وان العطف والاعجاب يعديان كالمرض، فاذا أبدع الفن في تصوير نوع من الشذوذ والانحطاط وحملك بهذا الابداع على أن تعطف على الانحلال وتعجب بالتدهور، فان مجتمعنا بأسره يمكن أن تسري فيه العدوى عن طريق الفن.

وفي ذكرى الحكيم هذا العام، نعيش مع صوت الرئيس مبارك في عيد الثورة، مؤكداً ان «بناء الانسان هو الأساس، وهو البناء الذي يسهم فيه الأدب والفن، اسهاماً يتلخص في ابداع شيء حي نابض يؤثر في النفس والفكر» ذلك ان «نوع التأثير هو الذي يحدّد نوع الفن»، كما يقول الحكيم.

«وإذا طالعت أثراً فنيا، قصيدة أو قصة أو صورة وشعرت بعدئذ انها حركت مشاعرك العليا أو تفكيرك المرتفع فأنت أمام فن رفيع، فإذا لم تحرك إلا المبتذل من مشاعرك والتافه من تفكيرك فأنت أمام فن رخيص». وحينها تتساءل عن مصدر التأثير في العمل الفني، أهو الاسلوب أم اللب؟ أهو الشكل أم الموضوع؟ يقول الحكيم:

«إن الأثر الفني الكامل في نظري هو ذلك الذي يحدث فينا ذلك الشعور الكامل بالارتفاع، وقلما يحدث هذا الا عن طريق السمو في اللب والاسلوب لأن ضعف «الشكل» وسقم الأسلوب يحدثان في النفس شعوراً بالقبح والضيق والاشمئزاز، وهذا ينافي الشعور بالجمال والتناسق والانسجام! شأن رجل الفن، هنا أيضاً شأن رجل الدين لن يثير في نفسك احساساً علوياً حقاً، إلا إذا كان في طريق حياته، مستقيم السلوك، سليم الأسلوب بغير ذلك يختل التناسق بين الغاية والوسيلة».

وتأسيساً على هذا الفهم، يتّضح لنا مفهوم الأدب الاسلامي في رؤياه الابداعية، وهو المفهوم الذي نلتمس جذوره في سيرته الذاتية «سجن العمر» منذ بدأ اتصال الحكيم بالدين الاسلامي منذ عهد الطفولة والصبا في كتاب تحفيظ القرآن الكريم، ثم في مرحلة الاتصال العلمي بمدرسة الحقوق من عام ١٩٢١ - ١٩٢٤ حيث تلقى الشريعة الاسلامية على يد الشيخ زيد، وهو العالم الثقة الذي اشتهر في ذلك العهد بان على يديه تلقى الشريعة كبار رجال مصر المعروفين في تاريخ القضاء والسياسة.

وحينما نحتفل اليوم بعيد الهجرة نلتقي مع الحكيم في كتابه الشهير «محمد الرسول البشير» الذي اعتمد فيه اعتماداً كلياً على الأحاديث المعتمدة ينطق بها الرسول وصحابته وكل من ورد ذكره في الكتاب.. ولذلك عكف على دراسة هذه الكتب المعتمدة وهي على سبيل الحصر.. سيرة ابن هشام وتفسيرها للسهيلي، وطبقات ابن سعد والاصابة لابن حجر، وأسد الغابة لابن الاثير،

وتاريخ الطبري، وصحيح البخاري، وتيسير الوصول والشهائل والترمذي والباجوري.

هذا الكتاب تبني المجلس الأعلى للشئون الإسلامية طبع النسخة الانجليزية منه وتوزيعها في أنحاء العالم، وقد كتبه الحكيم في العصر الذي واجه فيه رجال التنوير في مصر مشكلة الغزو الفكري فأوا توجيه جهودهم الى دعم القيم الايجابية في العقل المصري والعربي بعد ان أحدث دورهم التنويري آثاره في «تغيير» بعض الاتجاهات السلبية فكتب د. «هيكل» «حياة محمد» وكتب «د. طه حسين» «على هامش السيرة»، وكتب «العقاد» «عبقريّة محمد».

ذلك ان الفكر التنويري عند هذا الجيل، هو الذي قام على هدي وبصيرة فكر يستهدف «تغيير» الاتجاهات السلبية في المجتمع، ولكنه فكر يقظ لأخطار «الغزو الفكري» ولذلك كتب الحكيم مدافعاً عن الاسلام في كتابه «تحت شمس الفكر» سنة ١٩٣٨، فصولاً تحمل هذه العنوانات: «الدفاع عن الاسلام»، و«سر العظمة عند محمد ﷺ»، و«جوهر الدين»، وحينما أصدر «مختار تفسير القرطبي» قال في مقدمته ان ضرورته ما نراه اليوم من الاهتمام المخلص بالدين مما يقتضي الرجوع الى المنبع الأصلي للشريعة، ولما كانت المراجع مثل «تفسير القرطبي الجامع لاحكام القرآن» المشهور بأنه من أجل التفاسير وأعظمها نفعا يبلغ من الضخامة في مجلداته العشرين ما تشق قراءته على أكثر الناس، فقد رأيت أن أقوم بمثل ما قام به صاحب «مختار الصحاح» للتيسير على الناس باستخراج مختار في مجلد واحد للجامع لاحكام القرآن، ودور رجل الفكر بين التنوير والتأصيل تلخصه لنا سيرة الحكيم الفكرية وهو الدور الذي يلخص مفهوم الأدب الاسلامي اليوم في ضوء التعادلية تأسيساً على ان الاسلام «يقوم على الايمان بوجود الدنيا ووجود الآخرة، ولكل وجود شأنه المستقل، فالدنيا وجود يعمل فيه الانسان كأنه يعيش أبداً، والآخرة وجود يعمل له الانسان كأنه يموت غداً، لا طغيان لأحدهما على الآخر الى حد الافناء

والالغاء وان ما يميز الاسلام هو الاعتدال بعدم الغلو والتصرف والاسراف». بل اننا نستطيع أن نقول إن الأدب الاسلامي ليس مصطلحاً ضيق المفهوم بل إنه أوسع وأشمل حينما يطبع رؤيا الكاتب بطابعه فتصدر عنها أعماله مترسمة قول الحكيم: «ان الدين مصدر أساسي من مصادر الفكر والالهام للأديب والمفكر والفنان، وخاصة في الاسلام حيث يقول رسوله صلوات الله عليه: «تفكر ساعة خير من عبادة سنة»».

محمود حسن اسماعيل والشعر الاسلامي

«صوت من الله» ديوان جديد للشاعر المرحوم محمود حسن اسماعيل صدر بعد وفاته؛ يهديه الى «الروح التي أحالته يرى النور في حلك الظلام ويرتشف الشروق من أقداح الغيب». ويضم الديوان ٢٣ قصيدة تدور جميعاً حول عنوان الديوان بالفعل «صوت من الله» مما يجعلنا نذهب الى أن هذا الديوان يمثل مرحلة متميزة من مراحل التطور الشعري عند شاعرنا الراحل، لها قسماؤها الواضحة التي تفرق بينها وبين المراحل السابقة. على النحو الذي يجعلنا نذهب مع الدكتور عبد العزيز الدسوقي الى أن عالم محمود حسن اسماعيل الشعري، في حاجة الى عملية تذوق جمالي كاملة لشعره.

فمحمود حسن اسماعيل رائد من أكبر رواد مدرسة الشعر الوجداني في شعرنا العربي الحديث. وهو من هذا الجيل الذي جاء بعد جيل شوقي وحافظ ومطران وزملائهم، ذلك الجيل الذي هو «جيل أبوللو» نسبة الى تلك المدرسة الشعرية التي أسسها في مطلع الثلاثينات من هذا القرن الشاعر الراحل أحمد زكي أبو شادي، وتحلق حولها كوكبة من الشعراء الجدد، كان محمود حسن اسماعيل من أعظمهم، حيث استأثرت التجربة الشعرية بحياته كلها، ولعله الشاعر العربي المعاصر الوحيد الذي ظل ينبج ويغرد في حيوية وعذوبة وشباب طوال أربعين عاماً دون أن يتوقف، أو يحس نضوب معينه الشعري الزاخر، أو يشعر بالقلق حيال أدواته الفنية، وقد ظل راهباً في محراب الفن طوال حياته، لم تستطع الأجناس الأدبية الأخرى أن تشده إليها، أو تجذبه الى

دروبيها. عبر من خلاله عن تصوراته في الحياة والموت والتطور والاصلاح. ولقد كان يمتلك موهبة كبيرة، وطاقات شعرية عاتية، نقف حياها مبهورين خاشعين، كما نقف حياها مظاهر الطبيعة الجليلة. وكانت له طريقة خاصة في التصوير والتعبير، وزاوية جديدة يرى من خلالها الأشياء وقاموس شعري متفرد، وقدرة خارقة على الغوص الى أعماق الهمسات وأدق الخفايا، وتصوير الأفكار وابداع الصور، والتقاط أعماق الأسرار من باطن التجربة الانسانية.

بدأت رحلته الشعرية وهو طالب في كلية دار العلوم، ديوانه الأول في يناير سنة ١٩٣٦ وكان بعنوان «أغاني الكوخ» وكان حدثاً فريداً في عالم الحديث، ذلك أنه كما يقول د. الدسوقي «صور فيه بأسلوب فني نافذ حياة الريف وشقاء الفلاح، وتعاطف مع أحزانه وبؤسه. وأعاد الى الحياة الطبيعة في الريف». ثم توالى بعد ذلك دواوينه فأصدر في عام ١٩٣٧: «هكذا أغني» و«أين المفر» ١٩٤٧ و«نار وأصفاد» ١٩٥٩ و«قاب قوسين» ١٩٦٤ و«لا بد» ١٩٦٦، و«التائهون» ١٩٦٨ و«هدير البرزخ» ١٩٦٩ و«صلاة ورفض» ١٩٧٠ و«نهر الحقيقة» ١٩٧٢.

وترك قبل رحيله أربعة دواوين مخطوطة ومعدة للنشر هي «رياح المغيب» و«ديوان الحب» و«موسيقى الخبائز»، أما الديوان الرابع فهو «صوت من الله» الذي صدر مؤخراً، ليمثل مرحلة جديدة متميزة بعد مطولة «الشك» التأملية؛ ذلك أن محمود حسن اسماعيل، كما يقول د. الدسوقي «هو هذا الشاعر الفنان، ولكنه كان الى جانب ذلك أيضاً، شاعراً ملتهب الخيال محترم العاطفة، ورجلاً كثير الهاجس، غزير الشكوك. فإذا تجمعت هذه السجايا الشخصية والسمات الغنية والملامح الروحية لانسان فنان ومر بتجربة الشك، أبدع مثل هذا العمل الفني الرائع الذي يهز النفس الانسانية هزاً، وديوان «أين المفر» ١٩٤٧ يضم بين دفتيه عدداً من القصائد التي تقف بعض أبياتها عند تجربة الشك، مثل قصيدته «جلاد الظلال» أو غيرها من القصائد. ولكن هذه المطولة تدور كلها حول تجربة الشك. وهو شك محدد متميز، متجسد، فليس شكاً مطلقاً. وليس

شكاً غائياً. ولكنه شك شاعر متميز الملامح في امرأة محددة. على مسرح محدد شهد حبهما وتجربتهما العاطفية».

ويذهب د. الدسوقي الى أن الخريطة الزمنية لتجربة محمود حسن اسماعيل الفنية مرت بثلاث فترات، يسمى الأولى «فترة التدفق الفني» والثانية «فترة التريث الفني» وهي التي تضمنت مرحلتي التوقف من ١٩٤٨ - ١٩٥٨، ومرحلة الأعراف، ومن حصادها ديوان «نار وأصفاد» ١٩٥٩، وفي هذه المرحلة أحس الشاعر أنه يقف بين عالمين، عالم انتهى، وعالم يحاول أن يعيش فيه، والفترة الثالثة هي فترة البعث الشعري.

ويمكننا أن نضيف الى هذه فترة رابعة؛ هي فترة الإيمان المطلق؛ من بعد مرحلة الأعراف، والتي تمثلت في ديوانه الجديد «صوت من الله» حيث تمثل هذه المرحلة انشغال الشاعر بوجهي «الوجود» - الظاهر والخفي - وانشغاله بمالك هذا الوجود ومدبر أمره، ومصرف شئونه؛ وفي هذه السبيل حشد الشاعر كل طاقاته الابداعية؛ وكل ما يملك من قوى الإدراك ليكشف الطريق الى تلك الحقيقة؛ وكان من هذا كل القصائد التي سجلها في ديوانه «صوت من الله». يقول في القصيدة الأولى:

«سبحان وهاب الظلام لمن يريد بصيص نورا

سحبوا من الأكفان قدرته، ولجوا في الثبور

وتأودوا خبيأً، وتتهته، وليأ للصدور

في حومة.. لا للسماء ولا التراب

لدفنها نسب يثيرا

.. زعموا لقاء الله وحدهم.. وجل!

فنوره غمر الدهور..

.. في الحب، في الأمل المحلق

في الأجنة، والبذور..

.. في الريح، في النسم المرنح،
في العشايا، والبكور
.. في الطيف تلمحه ظلال ظلاله فوق الغدير
.. في السفح في ضجر المغاور
في البرازخ، في البحور
.. في كل راقئ دمة من جفن مظلوم فقير
.. في كل كاسر حلقة من قيد مقهور كسير
.. في كل رافض لقمة، لليل جالبها أجير
.. في كل واهب روحه لفدا، التراب المستجير
.. في كل ذات حركت عدم الفراغ الى الصرير
في خطوة القدم الذي
هتك البراقع عن دجى القمر المنير
وحدا السديم، ورش بين يديه أسرار الأثير
ومشى على الأجيال يسحق جهل عالمها الغرير
ويزيح ستر العقل عن اعجاز خالقه الكبير
.. الدرب ضوًّا للسراة
حقيقة، وحصاد نور
وهدى الدجى..
وتمزقت حجب الرياء على المحضورا

* * *

فالله يصحب كل من صحب النهار
.. وما لي عن غيش الستور!!!»

وكأنما الشاعر هنا يتوسل بالدليل الوجودي، الذي يلمحه الانسان لمحاً،
من خلال تصور للكائن الكامل، الذي يستعلي به على الكائنات الناقصة التي
يجدها في الطبيعة؛ وإذن، كما يقول اقبال، فلا بد من وجود شيء خارجي يقابل

الفكرة الموجودة في عقولنا عن الكائن الكامل! كما يتوسل بدليل الغائية الذي تحدث عنه اقبال، حيث يتقصى الشاعر المعلول للوصول الى نوع علته، أي النظر في الأشياء، للوقوف على ما أودع فيها من عجائب الخلق، وبديع الصنع، ويستنتج من آثار الحكمة، ومن القصد، ومن التوافق في الطبيعة، ما يدل على وجود الخلق، يقول محمود حسن اسماعيل، من قصيدة: «الله والطبيعة»:

رب سبحانك دوماً يا إلهي
نغمة تسري بقلبي وشفاهي
كلما غرّد طير في خيله
وضعت للحب دنياه الجميله
وتهادى العطر في الربوة من درب لدرب
عاشقاً يبحث في البستان عن قلب وحب
ونهلّت السحر والايمن من صمت الزهور
ورأيت الحب ينساب دعاء من شفاهي
وغناء من صفاء الروح يجري.. يا إلهي

وهذا الدليل، كما يقول الاستاذ عبد الكريم الخطيب، هو الذي دعا إليه القرآن الكريم في مقام التعرف على الله، والاقرار بوحدانيته.. وكان سبيل القرآن الكريم فيها الدعوة إلى النظر في ملكوت السموات والأرض، نظر وتدبر وتفكر، يُسلم الناظر الى الاذعان لقدرة الله، والاخبات لجلاله وعظمته، حيث يرى عظمة الوجود، وروعته واتساقه، وإحكام نظامه، ما يشهد بجلال الخالق وعظمته، وقدرته.. يقول سبحانه وتعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا، مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ، فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا، وَهُوَ حَسِيرٌ﴾^(١).
﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ

(١) سورة الملك الآيتان ٣ و٤.

فُروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرةً وذكرى لكل عبد منيب^(٢).

ولقد تمثل الشاعر محمود حسن اسماعيل الآيات الكونية في القرآن الكريم، والتي تلفت العقول الى ما في الكون من آيات الله، الدالة على الخالق العظيم، وكمال علمه، وحكمته وقدرته. يقول الشاعر:

كلما أشرق بالإيمان صدري
وهفت أشواقه الكبرى بثغري
تملت روعي من الحب ولاذت عند بابك
ورنا قلبي فشاهدت السنا خلف حجابك
وهفت عيني فأبصرتك في كل زمان
وانتشت روعي.. فشاهدتك في كل مكان
قوتي منك ومنها تنهل الحمد شفاهي
وتغني الروح تسبيحاً وشكراً يا الهي
إن يكن ذنبي توارى عن ضميري
وخطا التوبة تاهت في المسير
فأنا في كل خطوي، لك حمد ومتاب
وحنين رددته حول أيامي الشعاب
فاسكب النور لقلبي، وارو بالسحر شفاهي
فأغني.. ربّ سبحانك دوماً يا الهي

فمنهج الشاعر في البحث عن الله، يجعل الوجود كله كتاباً يقرأ في حروفه وكلماته الآيات الدالة على وجود الله، وعظمته؛ يقول الفيلسوف «تنيس»: «ليست الشمس والقمر والنجوم، والسهل والحزن، الا منظراً من مناظر رب العالمين». ويقول موكس مولر: «إنّ النظر في الظواهر الطبيعية، قاد

(٢) سورة ق الآيات ٦ - ٨

الانسان الى إدراك خالق وراء هذه الظواهر». ويقول محمود حسن اسماعيل في قصيدة: «الله والطريق»: إيماء الروح لخطوات النبي عليه السلام في طريقه من الغار الى المدينة:

كل حصاة في الطريق أومات تنتظر
وكل ذرات الأثير أقبلت تكبر
والرياح من كل اتجاه أيقظت ربائها
وأسبلت على جبين أفقها أهداها
واسترسلت تعزف للسكون من صلاتها
وتستعيد شجوها هساً على لهاثها
وتسمع الجبال من تسبيحها أنغاماً
لم تدرك كيف انحدرت من قلبها إلهاماً

وكأنما ينطبق على شاعرنا قول الفيلسوف إمرسن «ان في مقدور الانسان أن يرى الله في أعماق قلبه... وانه إذا أنصت الانسان الى صوت ضميره بأذن واعية، سمع صوت الله في دخيلة نفسه». يقول محمود حسن اسماعيل في قصيدة: «الله والذات.. وقفة على الأعتاب»:

وقفتُ طويلاً، على سُدتك
أنادي ربِّي النور في سدرتك
أنادي، وأجار في حومة
من الصمت.. تهدر في حضرتك
وأنشق ذاتين: ذاتا تنوح
وأخرى تسبح من خشيتك
وكلتاها من رياح الضمير
صدئ ذائب في صدى موجتك
تصيحان من غير ذكر، ولا

صلاةٍ تؤوب في خيمتك
أجرني يا رب.. من كل شيء
يصد طريقي الى ومضتك

أما في قصيدة: «الله والنفس» فقد تنكر الشاعر من ذاته، فقدمت له
الرحيق لتروي ظمأها من عذابه، ثم جاءت تستجير:

وقالت: أِجْرْنِي.. فَقُلْتُ اخْسِئِي
فَمَنْ غَيْرُ رَبِّ السَّاءِ الْمَجْنِي؟
تَعَامَيْتِ.. حَتَّى رَكَبْتَ الظَّلَامَ
عَلَى هَوْدَجٍ مِنْ ضَبَابِ الْغُرُورِ
جَنَاحَاهُ مِنْ شَهَوَاتِ الْحَيَاةِ
وَمَنْ يَأْسُهَا فِي لِقَاءِ الْمَصِيرِ
هَوَى بِكَ فِي قَاعِ لَيْلٍ يَهِيمُ
تَدُورِينَ فِيهِ بِخَطْوِ الضَّرِيرِ
دَعِينِي.. فَمَا لِي يَدُّ فِي أَسَاكِ
وَلَا عِبْرَتُ فِي طَرِيقِي خَطَاكِ
تَنْكُرْتِ.. حَتَّى وَهَى سَاعِدَاكِ
فَأَقْبَلْتَ نَادِمَةً تَسْتَجِيرُ

ولكن شاعرنا يتوسل بمنهج الشريعة الاسلامية في الدعوة الى الله،
والتعرف عليه؛ ذلك أن هذا المنهج يدعو إلى النظر في ملكوت السموات
والأرض، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لأُولِي الْأَلْبَابِ • الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ
قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ، وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبُّنَا
مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾^(٣).

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ • وَإِلَى

(٣) سورة آل عمران الآيتان، ١٩٠ - ١٩١.

السَّاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ • وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نَصَبَتْ • وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ
سُطِّحَتْ • فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ • لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ^(٤).

يقول الشاعر في قصيدة «سجدة لله» متمثلاً فيها المعنى القرآني الكريم:

كَلَّمَا هَلَّ الصَّبَاحُ
وَهَفَا كُلُّ جَنَاحٍ
وَعَلَى الرِّبْوَةِ صَاحُ
بَلْبَلٍ يَشْكُو هَوَاهُ،
رَدَدِي شَكْوَاهُ
وَاسْجُدِي لِلَّهِ
كَلَّمَا رَنَ أَذَانُ
مَوْظِعًا سَمِعَ الزَّمَانُ
وَشَدَا كُلُّ جَنَّانٍ
ضَارِعًا يَدْعُو سَاهُ
فَاسْمَعِي نَجْوَاهُ
وَاسْجُدِي لِلَّهِ
كَلَّمَا رَفَرَفَ عَوْدُ
رَاقِصًا بَيْنَ الْوُرُودِ
وَمَضَى فَوْقَ الْوُجُودِ
هَاتِفًا يُخَيِّرُ رَبَّاهُ
بَارِكِي دُنْيَاهُ
وَاسْجُدِي لِلَّهِ...
إِيهِ يَا نَفْسُ اسْتَعِينِي
بِالرِّضَا فِي كُلِّ حِينٍ

(٤) سورة الفاشية الآيات ١٧ - ٢٢

فهو نور لليقين
وهو صفو للحياة
وهو من نور الاله
فاسجدي لله

ولقد سئل الصديق أبو بكر رضي الله عنه: بم عرفت ربك فقال عرفت
ربي بربي! ولولا ربي ما عرفت ربي! فقل له: وكيف عرفت؟ فقال: العجز عن
الإدراك إدراك.

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: «لا تدركه العيون بمشاهدة
العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان. قريب من الأشياء غير ملامس،
بعيد منها غير مباين، متكلم لا بروية، مريد، لا بهمة، صانع، لا بجارحة، لطيف
لا يوصف بالخفاء، كبير، لا يوصف بالجفاء، بصير لا يوصف بالحاسة، رحيم، لا
يوصف بالرقّة، تعنو الوجوه لعظمته، وتجبّ القلوب من مخافته».

ولقد تمثّل شاعرنا محمود حسن اسماعيل الفكرة الإلهية في الاسلام؛
وهي «فكرة تامة» كما يقول العقاد، لا يتغلب فيها جانب على جانب، ولا
تسمع بعارض من عوارض الشرك والمشابهة، ولا تجعل الله مثيلاً في الحس ولا
في الضمير. بل له ﴿المثل الأعلى﴾^(٥) و﴿ليس كمثله شيء﴾^(٦). فالله وحده
﴿لا شريك له﴾^(٧).. ﴿ولم يكن له شريك في الملك﴾^(٨)، ﴿فتعالى الله عما
يشركون﴾^(٩) و﴿سبحانه عما يشركون﴾^(١٠).

يقول محمود حسن اسماعيل في قصيدة «الله والشرك»:

(٥) سورة النحل آية ٦٠، والروم ٢٧

(٦) سورة الشورى آية ١١

(٧) سورة الأنعام آية ١٦٣

(٨) سورة الفرقان آية ٢

(٩) سورة الأعراف آية ١٩٠

(١٠) سورة التوبة آية ٣١

«كانت الأرض قصة من ظلام
ردّدتها قوافل الأيام،
وتناجت بها قلوب الخيام،
واستطارت بها نفوس الأنام
فهي إعصار جنّة في قنّام
والبرايا في قبضتيه أسارى

إلى أن يقول:

ربّ هذي مضارب الجاهلية
خيّمت فوقها العصور الشقية
جاءها والزمان يجرّ غيّه
قنّام في خطاه فجرّ البريّة
وبكفّيه نجوة البشريّة
من قرون صبت عليها الحسارا
قيل بشرى الوجود؟ قالت: محمد
فأكبّت أوثانهم وهي تُعبّد
واستجارت نيرانهم وهي تخمد
وتهاوى ايوان كسرى الممرد
خطرة الطيفاء وانتهى كل معبد
وغدا للزمان أعلى منارا
طهر الكون من ضلال ورجس
أنقذ الناس من ظلام وبؤس
كم سرى نوره الى كل نفس
سيرة الشمس بين ماء وغرس
ينبت الخير للحياة ويُرسي
مجدها، أينما على الأرض سارا

ويختتم القصيدة بقوله:

رَبِّ بَارِكْ بِنُورِهِ كُلَّ عَصْرٍ
وَافْضْ هَدْيِهِ عَلَى كُلِّ مَصْرٍ
وَانْفُحِ الشَّرْقَ مِنْ سِنَاهُ بِأُزْرِ
يَجْعَلُ الْحَقَّ فِي هَوَادِيهِ يَجْرِي
مَاضِي الْخَطْوِ وَاصِلًا كُلَّ نَصْرٍ
يَتَحَدَّى وَيَقْهَرُ الْأَقْدَارَ

فليس الاله في الاسلام مصدر النظام وكفى، ولا مصدر الحركة الأولى وكفى، ولكن ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾^(١١) ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ﴾^(١٢)... ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(١٣) ويقول العقاد إن من صفات الله في الاسلام ما يعتبر رداً على «فكرة الله» في الفلسفة الأرسطية كما يعتبر رداً على أصحاب التأويل في الأديان الكتابية وغير الكتابية. إن الله في الاسلام ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾^(١٤) ﴿وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾^(١٥) ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(١٦) ﴿وَمَا كُنَّا عَنْ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾^(١٧).. ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾^(١٨).. ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾^(١٩).. ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(٢٠).

(١١) سورة الرعد الآية ١٦، والزمر ٦٢، وغافر ٦٢

(١٢) سورة الفرقان آية ٢

(١٣) ورودها كثير في الكتاب الكريم كما في البقرة ٢٩، والأنعام ١٠١ وغيرها...

(١٤) سورة التوبة آية ٩٤، وآية ١٠٥، الرعد ٩، المؤمنون ٩٢، السجدة ٦، الزمر ٤٦، الحشر ٢٢، والتغابن ١٨

(١٥) سورة سبأ آية ٣

(١٦) سورة يس آية ٧٩

(١٧) سورة المؤمنون آية ١٧

(١٨) سورة الأعراف آية ٨٩.

(١٩) سورة الأعراف آية ٥٤

(٢٠) سورة آل عمران آية ١١٩

يقول شاعرنا في قصيدة: «الملك لله»:

على الأرض نور.. وفي الأفق نور
وفي كل قلب شعاع يدور
ولحن يسبح طي الصدر
ويستغفر الله من كل ذنب
ويدعوك يا ربّ أنت الملبّي
ولبيك.. أنت الرحيم الغفور.

وبعد.. فهذا الديوان «صوت من الله» لا يمثّل مرحلة جديدة من مراحل
تطوّر الشاعر فحسب، ولكنّه يمثّل مرحلة جديدة في الأدب الإسلامي، الذي
نرجو له أن يزدهر وأن يقوم بدوره المنشود في هذا العصر وفي كل العصور.

صلاة العيد.. والاعلام الاسلامي(*)

ونحن نحتفل بعيد الفطر المبارك نستعيد قول الرسول الكريم ﷺ: «زَيَّنُوا أعيادكم بالتكبير» لأن التكبير يمثّل نشيداً قدسياً يعبر عن فرحة المؤمن بإيمانه، كما أن خطبة العيد لها دورها الهام في التوجيه والإرشاد بعد الجو المفعم بالترقب والانصات على أثر الانتهاء من الصلاة وترديد التكبيرات ترديداً سوياً ومؤثراً. وهكذا تسود مشاعر الحب والصفاء والخشوع.

من أجل ذلك يذهب الدكتور إبراهيم امام في أحدث كتبه: «الاعلام الاسلامي» إلى أن صلاة العيدين شعيرة تمثّل الاتصال الجمعي في أروع مظاهره.. والاتصال الجمعي شكل من أشكال الاتصال، الذي أصبح بدوره علماً من أحدث العلوم الاجتماعية التي عرفها العلم الحديث، وهو علم يبحث ظاهرة التأثير في الناس بوسائل الاتصال المختلفة كالكلمة الشفهية المنطوقة، والكلمة المدوّنة، والكلمة المطبوعة، والخطابة والرسائل والصحافة والاذاعة المسموعة والاذاعة المرئية والأفلام والأشرطة المرئية وغيرها.

فالاتصال كلمة عامة شاملة تعبر عن التفاعل الاجتماعي المباشر عن طريق الاتصال الطبيعي الشخصي والجمعي، وعن طريق الاتصال الصناعي غير المباشر والذي تستخدم فيه الوسائل التكنولوجية العصرية كوسائل للاتصال والاتصال كمفهوم أو مصطلح يشير إلى العلاقة التي تكون بين الناس

(*) الأهرام في ١١/٨/١٩٨٠

داخل نسق اجتماعي معيّن يختلف من حيث الحجم ومن حيث نوع النشاط السائد فيه، بمعنى أن هذا النسق قد يكون مجرد علاقة ثنائية نمطية بين شخصين، أو بين جماعة صغيرة أو مجتمع محلي أو مجتمع قومي، ويمكن أن يكون على مستوى العالم كله، ولكي تعبّر تلك العلاقة عن مفهوم الاتصال، فإنه من الضروري أن ينقل داخل تلك العلاقة بعض الخبرات أو المشاعر أو الأحاسيس أو المعلومات أو التوجيهات أو الأخبار أو غيرها.

وفي كتابه عن «الاعلام الاسلامي» يقدّم الدكتور امام نظرية الاعلام الاسلامي يستمد منطلقاتها من القرآن الكريم والسنة الصحيحة، ويقسم وسائل الاتصال بالناس في التاريخ الاسلامي الى أربعة أنواع تميّزت بها أربع مراحل وهي: مرحلة الاتصال الشفهي في صدر الاسلام وعصر بني أمية، ثم مرحلة الاتصال التكويني أو الصحفي وهي مرحلة طويلة تمتد من العصر العباسي الى العصور الحديثة، حين بدأت الطباعة وانتشرت معها فنون الصحافة، فكانت المرحلة الثالثة وهي مرحلة الاتصال الجماعي والصحفي، وأخيراً جاءت مرحلة الاتصال الاذاعي في أوائل القرن الحالي بعد اكتشاف موجات الاذاعة.

ويذهب الى أن أدوات التأثير الاعلامي في الاسلام أدوات شفهيّة مثل الأذان والخطبة والقصة والقصيدة، أو مكتوبة كالرسائل والكتب، أو مطبوعة كالصحف والمجلات والنشرات، أو مسموعة كالاذاعة أو مرئيّة كالتلفزيون ولكنه يوضح أن الطابع العام للاتصال في صدر الاسلام كان أغلبه شفهيّاً، يعتمد على الاتصال الشخصي المباشر، وهو اتصال ناجح في الاقناع لأنه يتلافى سلبيات الاعلام الأخرى وخاصة مقاومة المستقبل، وهي مقاومة تضعف تأثير الإعلام، ولكن الاتصال الشفهي يتّسم بالحوار والاقناع وتبادل الأفكار، ويحصّن الحجج والبراهين، ومحاولة التغلب على كل أساليب الاحتجاج حتى نصل الى ذروة الاقناع.

ولذلك عني الدكتور إمام بدراسة ما يسميه بالاعلام الشعري، ذلك أن الشعر لم يكن مجرد قصائد تنظم في أغراض كالمديح والهجاء والغزل والثناء والحماسة وغيرها، وإنما كان في حقيقة الأمر نظاماً إعلامياً كاملاً يقصد به التأثير في الناس على نحو ما تفعله أجهزة الاعلام الحديثة.

الخطابة وبلاغة الاتصال

الثابت تاريخياً أن الخطابة كانت رائجة عند العرب وأن البلاغة كانت لها مكانة عظيمة الى درجة أن العبارة البليغة كانت تقيمهم وتقعدهم بما تنيره في نفوسهم من انفعالات النخوة والشهامة والحماسة والاندفاع الى القتال.

وقد كان للخطيب عند العرب الجاهليين مقام كبير، لفصاحة لسانه وقوة بيانه ومقدرته على الدفاع عن قومه والذب عنهم والتكلم باسمهم، فهو في هذه الأمور مثل الشاعر لسان القبيلة ووجهها ورجل اعلامها. وقد ذكر أهل الأخبار أسماء جماعة من الخطباء اشتهروا بقوة بيانهم وسحر كلامهم وأوردوا نماذج من خطبهم، ومنهم من اشتهر بنظم الشعر وعد من الفحول، مثل عمرو ابن كلثوم.

وذكر الجاحظ «أن العرب استعملت الموزون والمقفى والمنثور في مساجلة الخصوم، والرجز في الأعمال التي تحتاج الى تنشيط وبعث همّة، وعند مجافاة الخصم وساعة المشاورة، وفي نفس المجادلة والمحاورة، واستعملت الأسجاع عند المنافرة والمفاخرة واستعملت المنثور في الأغراض الأخرى». وقال الجاحظ أيضاً «وكل شيء للعرب فانما بديهة وارتجال وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف همّة الى جملة المذهب، وإلى العمود الذي إليه يقصد، فيأتيه المعنى إرسالاً، وتنثال عليه الألفاظ انشياً، ثم لا يقيده على نفسه، ولا يدرسه أحد من ولده، وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلمون. وكان الكلام الجيد عندهم أظهر

وأكثر، وهم عليه أقدر، وله أقهر، وكل واحد في نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع، وخطباؤهم للكلام أجود، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا الى تحفظ، ويحتاجوا الى تدارس وليس هم كمن حفظ علم غيره، واحتذى على كلام من كان قبله، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم، والتحم بصدورهم، واتصل بعقولهم، من غير تكلف ولا قصد، ولا تحفظ ولا طلب».

وقسم الجاحظ الخطب الى قسمين فقال: «اعلم أن جميع خطب العرب من أهل المدر والوبر، من البدو والحضر، على ضربين، منها الطوال ومنها القصار، ولكل ذلك مكان يليق به وموضع يحسن فيه. ومن الطوال ما يكون مستوياً في الجودة، ومتشاكلاً في استواء الصنعة، ومنها ذات الفقر الحسن، والنتف الجياد، وليس فيها بعد ذلك شيء يستحق الحفظ، وإنما حفظه التخليد في بطون الصحف، ووجدنا عدد القصار أكثر، ورواة العلم الى حفظها أسرع».

هذا وقد استخدم العرب الخطابة كسلاح فعال في المفاوضات التي تكون داخل القبيلة في السلم وفي الحرب، وفي المفاوضات التي تكون بين القبيلة وغيرها من القبائل.

ومن الخطباء الجاهليين جماعة تخصصت في إلقاء المواظ والخطب الدينية والأخلاقية، وهم قوم يسمون بالأحناف، وكانوا على دين إبراهيم عليه السلام، وقد عادوا الى مكة مع أبناء اسماعيل عليه السلام، واستقروا في الحرم حيث كانوا يقومون بالتدريس للناس.

ومن أشهر الخطب المنسوبة للعرب الجاهليين، الخطب التي قالها النعمان ابن المنذر ورجاله لكسرى انوشروان، وكان الأخير قد تكلم في العرب بما اعتبره الأول مهانة للعرب، وأراد أن يرده عليه فيلقمه حجراً.. فقال:

«أصلح الله الملك.. حق لأمة الملك منها أن يسمو فضلها ويعظم حظها،

وتعلو درجتها، إلا أن عندي جواباً في كل ما نطق به الملك، وفي غير ردّ عليه ولا تكذيب له، فإن امنني غضبه نطقت به». فلما أمّته كسرى قال «أما أمتك أيها الملك فليست تنازع في الفضل لموضعها الذي هي به من عقولها وأحلامها، وبسطة محلها وبحبوحة عزها، وما أكرمها الله به ولاية آبائك وولايتك.. وأما الأمم التي ذكرت فأية أمة تقرنها بالعرب الا فضلتها». فقال كسرى «بماذا؟»، فأجابه النعمان «بعزها ومنعتها وحسن وجوها، وبأسها وسخائها وحكمة أسنتها، وشدة عقولها وأنفتها ووفائها. فأما عزتها ومنعتها فإنها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دخلوا البلاد ووطدوا الملك وقادوا الجند، لم يطمع فيهم طامع ولم ينلهم نائل، حصونهم ظهور خيلهم، ومهادهم الأرض، وسقوفهم السماء، وجنتهم السيوف، وعدتهم الصبر.. إذ غيرها من الأمم إنما عزّها الحجارة والطين وجزائر البحور. وأما حسن وجوها وألوانها فقد يعرف فضلهم في ذلك على غيرهم من الهند المنحرفة، والصين المتمغة، والترك المشوّهة، والروم المقشرة، وأما أنسابها وأحسابها فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت آباءها وأصولها وكثيراً من أولها.. حتى إن أحدهم ليسأل عن أصل أبيه ديناً فلا ينسبه ولا يعرفه.. وليس أحد من العرب إلا يسمّى أباً فأباً، أحاطوا بذلك أحسابهم، وحفظوا به أنسابهم، فلا يدخل رجل في غير قومه، ولا ينتسب غير نسبه، ولا يدعي الى غير أبيه.

وأما سخاؤها فإن أدناهم رجلاً الذي تكون عنده البكرة والناس عليهم بلاغة في حمولة وشعبة وريّة، فيطرق الطارق الذي يكتفي بالفلذة ويجتزي بالشربة فيعقرها له ويرضى أن يخرج عن دنياه كلّها فيما يكسبه حسن الأحدثة وطيب الذكر.

وأما حكمة أسنتهم فإن الله أعطاهم في أشعارهم ورونق كلامهم، وحسنه ووزنه وقوافيه، مع معرفتهم الأشياء وضربهم للأمثال وإبلاغهم في الصفات، ما ليس لشيء من السنة الأجناس. ثم خيلهم أفضل الخيل، ونساؤهم أعف النساء، ولباسهم أفضل اللباس، ومعادنهم الذهب والفضة،

وحجارة جباهم الجزع، ومطاياهم التي لا يبلغ على مثلها سفن، ولا يقطع بمثلها بلد قفر،

وأما دينها وشريعتها فأنهم متمسكون به حتى يبلغ أحدهم من تمسكه بدينه أن لهم أشهراً حرماً وبلداً محرماً، وبيتاً محجوجاً ينسكون فيه مناسكهم ويذبحون فيه ذبائحهم. فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه وهو قادر على أخذ ثأره وإدراك وطره منه، فيحجزه كرمه ويمنعه دينه عن تناوله بالأذى.

وأما وفاؤها فإن أحدهم يلحظ اللحظة ويومئ بالإيماء فهي ولث «عهد» وعقدة لا يحلها إلا خروج نفسه. وإن أحدهم يرفع عوداً من الأرض فيكون رهناً بدينه فلا يغلق ولا تحتقر ذمته. وإن أحدهم ليبلغه أن رجلاً استجار به - وعسى أن يكون نائياً عن داره فيصاب فلا يرضى حتى يفني تلك القبيلة التي أصابته أو تفنى قبيلته لما أخفر من جوار. وإنه ليلجأ إليهم المجرم المحدث من غير معرفة ولا قرابة، فتكون أنفسهم دون نفسه وأموالهم دون ماله.

وأما قولك أن أفضل طعامهم لحوم الإبل على ما وصفت منها أيها الملك.. فما تركوا ما دونها إلا احتقاراً له - فعمدوا إلى أجلها وأفضلها فكانت مراكبهم وطعامهم، مع أنها أكثر البهائم شحوماً وأطيبها لحوماً وأرقها ألباناً وأقلها غائلة وأحلاها مضغة.. وإنه لا شيء من اللحمان يعالج ما يعالج به لحمها إلا استبان فضلها عليه.

وأما تجارهم وتركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم، فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم إذا أنست من نفسها ضعفاً وتخوفت نهوض عدوها إليها بالزحف.. وإنه إنما يكون في المملكة العظيمة أهل بيت واحد يعرف فضلهم على سائر غيرهم، فيلقون إليهم أمورهم وينقادون إليهم بأزماتهم، وأما العرب فإن ذلك كثير فيهم حتى حاولوا أن يكونوا ملوكاً أجمعين.. مع انفتهم من أداء الخراج والعطف بالعسف».

أعجب كسرى بما سمع وعجب له، ثم قال للنعمان «أنتك لأهل لموضعك من الرياسة في اقليمك ولما هو أفضل». ثم كساه من كسوته وسرحه الى الحيرة. فلما قدمها وفي النفس ما فيها مما سمع من كسرى من تنقص العرب وتهجين أمرهم، بعث الى أكتم بن صيفي وحاجب بن زرارة التميميين، وإلى الحارث بن ظالم وقيس بن سعود البكرين وإلى خالد بن جعفر وعلقمة بن علاته وعامر بن الطفيل، وإلى عمرو بن الشريد السلمي وعمرو بن معد يكرب الزبيدي. فلما قدموا عليه قال لهم:

«قد عرفتكم هذه الأعاجم وقرب جوار العرب منها، وقد سمعت من كسرى مقالات تخوّفت أن يكون لها غور، ويكون انما أظهرها لأمر أراد أن يتخذ به العرب خولا كبعض طباطمته في تأدية الخراج إليه كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله».

ثم حدثتهم بما قاله كسرى وما رد به عليه فقالوا:

«أيها الملك، وفقك الله. ما أحسن ما رددت وما أبلغ ما حججته به، فمرنا بأمرك وادعنا الى ما شئت».

فقال النعمان «انما أنا رجل منكم وانما ملكت وعززت بمكانكم وما يتخوف من ناحيتكم، وليس شيء أحب إلي مما سدد الله به أمركم وأصلح به شأنكم وأدام به عزكم. والرأي أن تسيروا بجماعتكم أيها الرهط وتنطلقوا الى كسرى. فإذا دخلتم نطق كل رجل منكم بما حضره ليعلم أن العرب على غير ما ظن أو حدثته نفسه. ولا ينطق رجل منكم بما يغضبه فإنه ملك عظيم السلطان كثير الأعوان مترف معجب بنفسه. ولا تنخذلوا له انخذال الخاضع الذليل. وليكن أمر بين ذلك تظهر به وثاقة حلومكم وفضل منزلتكم وعظيم أخطاركم. وليكن أول من يبدأ الكلام منكم أكتم بن صيفي لسني حاله. ثم تتابعوا على الأمر من منازلكم التي وضعتن بها، فإنما دعاني الى التقدم اليكم علمي بجميل كل رجل منكم على التقدم قبل صاحبه، فلا يكونن ذلك منكم فيجد في آدابكم مطعناً فانه ملك قادر مسلط».

ثم دعا لهم بما في خزائنه من طرائف الحلل والعائم، وأمر لكل رجل بنجية مهرية، وكتب معهم كتاباً قال فيه «أما بعد، فإن الملك ألقى إلي من أمر العرب ما قد علم، وقد أوفدت إلى الملك رهطاً من العرب لهم فضل في أحسابهم وأنسابهم وعقولهم وآدابهم، فليسمع الملك، وليغامض عن جفاء أن ظهر في منطقهم، وليكرمني بإكرامهم وتعجيل سراحهم، وقد نسبتهم في أسفل كتابي إلى عشائرتهم.

وانطلق الرجال حتى دخلوا على كسرى وألقوا إليه بكتاب النعمان فقرأه، وأمر بإنزالهم إلى أن يجلس لهم مجلساً يسمع منهم. فلما ان كان بعد ذلك بأيام أمر مرازيته ووجوه أهل مملكته فحضروا وجلسوا على يمينه وشماله.. ثم دعا بهم على الولاء والمراتب التي وصفهم النعمان بها في كتابه وأقام الترجمان ليؤدي إليه كلامهم، ثم أذن لهم في الكلام فقام أكثرهم وقال «إن أفضل الأشياء أعاليها، وأعلى الرجال ملوكها، وأفضل الملوك أعمها نفعاً.. وخير الأزمنة أخصبها، وأحسن الخطباء أصدقها. الصدق منجاة، والكذب مهواة، والشر لاجاة، والحزم مركب صعب، والعجز مركب وطيء. آفة الرأي الهوى، والضعف مفتاح الفقر، وخير الأمور الصبر، حسن الظن ورطة، وسوء الظن عصمة. إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعي. من فسدت بطائته كان كالغاص بالماء. شرّ البلاد بلاد لا أمور فيها، وشرّ الملوك من خافه البريء. أفضل الأولاد البررة. خير الأعوان من لم يراء بالصيحة. أحق الجند بالنصر من حسنت سريرته. يكفيك من الزاد ما بلغك المحل. البلاغة الإيجاز. من شرد نفر، ومن تراحم تألف.

فأخذت الدهشة كسرى وقال «ويحك يا أكثرهم.. ما أحكمك وأوثق كلامك، لو وضعك كلامك في غير موضعه».

فأجابه أكثرهم «الصدق ينبئ عنك لا الوعيد.

فقال كسرى «لو لم يكن للعرب غيرك لكفى».

فقال أكثرهم «رب قول أنفذ من صول» (الصول: الوثبة عند الخصوم).

ثم قام حاجب بن زرارة فقال «وري زندق وعلت يدك وهيب سلطانك. إنَّ العرب أمة قد غلظت أكبادها واستحصدت موتها ومنعت درّتها، وهي لك واقعة ما تألفتها، مسترسلة ما لا ينتها، سامعة ما ساحتها، وهي العلقم مرارة، والصاب غضاضة، والعسل حلاوة، والماء الزلال سلاسة. نحن وفودها إليك، وألسنتها لديك. ذمتنا محفوظة، وأحسابنا ممنوعة وعشائرننا فينا مطيعة أن نؤب لك حامدين خيراً فلك بذلك عموم محمدتنا، وأن تدم لم تخض بالذم دونها».

قال كسرى «يا حاجب ما أشبه حجر التلال بألوان صخرها».

ردّ حاجب «بل زئير الأسد بصولتها».

قال كسرى «هو ذلك».

ثم قام الحارث فقال «دامت لك المملكة باستكمال جزيل حظها وعلو شأنها، من طال، رشاؤه كثر منحه (سقاؤه)، ومن ذهب ماله قل منحه. ومن تناقل الأقاويل يعرف اللب. وهذا مقام سيرجف بما تنطق به الركب، وتعرف به كنه حالنا إلعجم والعرب. ونحن جيرانك الأدنون، وأعوانك المعينون، خيولنا جمّة، وجيوشنا فخمة، ان استنجدتنا فغير ريش (غير مقصرين). وإن استطرقتنا فغير جهض (غير مانعين). وإن طلبتنا فغير غمض - لا ننثني لذعر ولا نتنكر لدهر، رماحنا طوال وأعمارنا قصار».

قال كسرى «لو قصر عمرك لم تستول على لسانك نفسك».

فأجابه الحارث «أيها الملك إن الفارس إذا حمل نفسه على الكتبية معزراً بنفسه على الموت، فهي منية استقبلها وجنان استدبرها. والعرب تعلم أني أبعث العرب قدماً، وأحبسها وهي تسرف بها حتى اذا جاشت نارها، وسعرت لظاها، وكشفت عن ساقها، جعلت مقادها رمحي، وبرقها سيفي، ورعدها زئيري، ولم أقصر عن خوف ضحضاها، حتى أنغمس في غمرات لججها. وأكون فلكا لفرساني الى بحبوحة كبشها فاستمطرها دماً، واترك جهاتها جزر السباع وكل نسر قشعم».

فالتفت كسرى الى بقية أصحاب الحارث وسألهم «أهو كذلك؟»
قالوا «فعاله أنطق من لسانه».

فقام عمرو بن الشريد السلمي وقال «أيها الملك نعم بالك، ودام في السرور حالك. إن عاقبة الكلام متدبرة، وأشكال الأمور معتبرة، وفي كثير ثقل، وفي قليل بلغة (ما يتبلغ به). وفي الملوك سورة السفر. وهذا منطق له ما بعده.. شرف فيه من شرف وخمل فيه من خمل. لم نأت لضيملك، ولم نقد لسخطك، ولم نتعرض لرفدك. إن في أموالنا منتقداً، وعلى عزنا معتمداً. إن أورينا نارا ثقتنا، وإن أروود دهرنا بنا اعتدلنا. ألا إنا مع ذلك لجوارك حافظون، ولن رامك كافحون، حتى يحمد الصدر، ويستطاب الخين».

قال كسرى «ما يقوم قصد منطقك بافراطك، ولا مدحك بذكك».
قال عمرو «كفى بقليل قصدي هادياً وبأيسر افراطي مخبراً، ولم يلم من عزبت نفسه عما يعلم، ورضي من القصد بما بلغ».

قال كسرى «ما كل ما يعرف المرء ينطق به. اجلس».

ثم قام خالد فقال «أحضر الله الملك اسعاداً، وأرشدته إرشاداً.. إن لكل منطق فرصة، ولكل حاجة غصة. وعي المنطق أشد من وعي السكوت. وعثار القول انكأ من عثار الوعث، وما فرصة المنطق عندنا إلا بما تهوى. وغصة المنطق بما لا تهوى غير مساغة. وتركى ما أعلم من نفسي، ويعلم من سمعي اني له مطيق، أحب إلي من تكاني ما أتخوف ويتخوف مني. وقد أوفدنا إليك ملكنا النعمان، وهو لك من خير الأعوان ونعم حامل المعروف والاحسان. أنفسنا بالطاعة لك ياخعة، ورقابنا بالنصيحة خاضعة، وأيدينا لك بالوفاء رهينة».

قال كسرى «نطقت بعقل، وسموت بفضل، وعلوت بنبل».

ثم قام علقمة فقال «نهجت لك سبل الرشاد، وخضعت لك رقاب

العباد. إنَّ للأقاويل مناهج، وللآراء مداليج، وللعويص مخارج، وخير القول
أصدقه، وأفضل الطلب أنجح. وأنا وإن كانت المحبة أحضرتنا، والوفادة
قربتنا، فليس من حضرك منا بأفضل مما غرب عنا.. بل لو قست كل رجل
منهم وعلمت ما علمنا، لوجدت له في آبائه ديناً أنداداً وأكفاء، كلهم إلى
الفضل منسوب، وبالشرف والسؤدد موصوف، وبالرأي السليم والأدب النافذ
معروف يحمي حماه ويروي نداماه، ويذود أعداءه. لا تخمد ناره، ولا يحترز منه
جاره.

وان من يبل العرب أيها الملك يعرف فضلهم، فاصطنع العرب فإنهم
الجبال الرواسي عزاً، والبحور الزواجر طيباً، والنجوم الزواهر شرفاً، والحصى
بالصحارى عدداً، فإن تعرف فضلهم يعزوك، وإن تستصرخهم لا يخذلوك».
قال كسرى «حسبك.. أبلغت وأحسنت».

ثم قام عمرو بن معد يكرب فقال «انما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، فبلاغ
المنطق الصواب، وملاك النجدة الارتياذ. وعفو الرأي خير من استكراه الفكرة.
وتوقيف الخبرة خير من اعتساف الحيرة. فاجتنب طاعتنا بلفظك، واكتظم بادرتنا
بحلمك وألن لنا كنفك يسلس لك قيادنا. يوقس صفاتنا قراع منافع من أراد
لنا قضاء، ولكن معنا حمانا من كل من رام لنا هضماً».

ثم قام عامر الطفيل - وكان قد سمع من أحبار اليهود ورهبان
النصارى والمنجمين والكهان أن نبياً يوشك أن يولد في العرب، يجمع التنافر
من القبائل العربية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويرفعهم فوق هامات
البشر جميعاً، فتحدث بمثل هذا تلميحاً.

فقال له كسرى «مق تكاهنت يا ابن الطفيل؟».

فأجابه عامر «لست بكاهن، ولكني بالرمح طاعن».

واستمر هذا الحوار الخطابي بين كسرى وبين الرجال العرب، وهو

معجب بقولهم حتى انتهوا فقال «قد فهمت ما نطقتم به خطباؤكم، وتفننوا فيه متكلموكم وقد قبلت فيما كان من منطقكم من صواب، وصفحت عما كان فيه من خلل. فانصرفوا الى ملككم فأحسنوا مؤازرته والتزموا طاعته، فإن في ذلك صلاح العامة.

ومن الخطب التي تحفظها واعية التاريخ العربي أيضاً، خطب عبد المطلب جد رسول الله ﷺ. ومن أشهرها خطبته في تهنة سيف بن ذي يزن باليمن حيث قال «إن الله أحلك أيها الملك محلاً رفيعاً، صعباً منيعاً، شامخاً باذخاً، وانبتك منبتاً طابت أرومته، وعزت جرتومته، وثبت أصله، وسبق فرعه في أكرم موطن وأطيب معدن: وأنت - أبيت اللعن - ملك العرب وربيعها الذي يخصب، وأنت رأس العرب الذي إليه تنقاد، وعمودها الذي عليه العباد، ومعقلها الذي تلجأ إليه العباد. سلفك خير سلف.. وأنت لنا منهم خير خلف. فلن يخمل ذكر من أنت سلفه، ولن يهلك من أنت خلفه. ونحن أيها الملك أهل حرم الله وسدنة بيته، أشخصنا إليك الذي أهبنا لكشف الكرب الذي قدحنا، فنحن وقد التهنة، لا وقد المرزنة».

﴿إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾ (١)

ماذا يريد سلمان بآياته الشيطانية؟؟

في الكلمة التمهيدية التي قدم بها العقاد لكتابه عن «ابليس» قال: إن معرفة الانسان للشيطان كانت فاتحة خير.. لأنه لم يعرف الشيطان إلا بعد أن عرف الخير والشر، وعرف الفرق بين الشر والضرر. فعرف أن الشر لا يجوز وكان كل ما يعرفه منه أنه لا يسر ولا يوافق مآربه وشهواته، وعرف أن مخالفة المآرب والشهوات لا تكون شراً على الدوام بل هي خير في كثير من الأحيان، ومن ثم عرف كيف يكبح مآربه وشهواته وهو راضٍ مطمئن لأنه يعلم أنه عامل للخير مستقيم على نهج الصلاح.

وقارن العقاد بين أسلوب الدين في تعليم الأخلاق، وأسلوب التلقين والتعليم، الذي سبّاه أسلوب المطالعة والدراسة وأن بين الأسلوبين في أعماق النفس وفي ميادين العمل لبونا جد بعيد، لأن حدود الخير والشر في أحدهما حيوية تمتزج بالشعور والوجدان وتسمو الى تقديس الخبرات أو تنحدر الى النفور من نجاسة الشرور، وما الأسلوب الآخر - أسلوب التلقين والمطالعة - إلا أسلوب أوراق وأذواق تنقسم فيه معاني الخير والشر في الضمير والفكر كأنها أقسام في صفحات أو تصنيفات في الودائع والمخزونات.

وأحسب أن صاحب «آيات الشيطان» حينما طلع على الناس بكتابه، انما صنّف معاني الشرّ جميعاً في نفسه، حيلة جديدة من حيل الشيطان في تشويه صورة الخير، ممثلة في الاسلام.

(١) سورة النساء، الآية ٧٦.

وكان من الطبيعي أن يلجأ تلميذ إبليس إلى حديث خرافة يتوسل به في بث سموم الشرّ واللعنة إذ من الطبيعي أيضاً أن يواصل إبليس من خلال جنوده في الأرض محاربة ذلك الشوق العميق من أشواق النفس الإنسانية، إلى الإيمان الذي ينساق إليه الانسان بباعث من فطرته. ويسوء إبليس واجناده في الأرض أن يغمر هذا الشوق الإيماني أقطار العالم، ويسوؤه أكثر أن ينتشر الاسلام - بقوّته الذاتية - في أوربا، وأن يقبل على اعتناقه مفكرون وأدباء ونماذج رفيعة من نماذج القدوة بين الأوروبيين.. دفعت بالمفكر الفرنسي المسلم «رجاء جارودي» الى أن يقول: «إنها قضية مستقبلنا، قضية مستقبل جميع البشر. الاقتراب الجديد من الاسلام كقوة حيّة، ليس في ماضيه فحسب، وإنما في كل ما يستطيع أن يسهم به اليوم في ابتكار المستقبل».

ويرى «جارودي» أن: القضية الرئيسية هي «النظرة» التي يحملها «الغرب» منذ أكثر من ألف سنة عن الاسلام. في البداية كان الخوف والخوف كما يقال ناصح سيئ. هذه النظرة للاسلام يتاح لنا تحديدها وتقدير مدى ما تزال تفسد وتشوّه علينا حكمنا».

و«آيات الشيطان» سلمان رشدي، إذن جاءت في إطار تشويه الاسلام، وفق مخطط دعائي قديم، يرتكز على التضليل والتحريف وعكس الحقائق، يمجده إبليس وأجناده في الأرض، بعد ان وجد أوروبا تنجب مفكرين وأدباء منصفين، بعضهم أعلن إسلامه، وبعضهم أعلن تقديره واحترامه للاسلام دون أن يدخل فيه، حتى لنقول مع اللورد «هدلي»: «إنني أعتقد أن هناك آلافاً من الرجال أيضاً، مسلمون قلباً، ولكن خوف الانتقاد والرغبة في الابتعاد الناشئ عن التغيير، تأمرا على منعهم من إظهار معتقداتهم».

ويروي لنا الإمام الأكبر د. عبد الحليم محمود رحمه الله قصة تفكير «الكونت هنري دي كاستري» في دراسة الاسلام، إذ كان من كبار الموظفين بالجزائر، رغم سنّه المبكرة، وكان يسير ممتطياً صهوة جواده، ويسير خلفه

ثلاثون من فرسان العرب الأقوياء، فخوراً بمركزه، وكان يملؤه الغرور، للمدح الذي يزجيه إليه الذين تحت امرته.. وفجأة وجدهم يقولون له، في شيء من الخشونة، وفي كثير من الاعتداد بالنفس: «لقد حان موعد صلاة العصر»...

ودون أن يستأذنيه في الوقوف، ترجلوا واصطفوا للصلاة متجهين الى القبلة، ودوت في أرجاء الصحراء كلمة الاسلام الخالدة: «الله أكبر»..

شعر «الكونت» في هذه اللحظة بكثير من الاكبار والاعجاب بهؤلاء الذين لا يبالون به، ذلك لأنهم اتجهوا الى الله وحده، بكل كيانه، وبدأ يتساءل: ما الاسلام؟ أهو ذلك الدين الذي يصوره أعداؤه في صورة بشعة تنفر منها النفس، ولا يطمئن إليها الوجدان؟.. وبدأ يدرس الاسلام، وتغيرت فكرته عنه، ورأى من واجبه أن يعلن ما اهتدى إليه، فكان كتاب «الاسلام خواطر وسوانح» الذي ترجمه المرحوم فتحي زغلول.. وفي هذا الكتاب تحدث الكونت عن كثير من جوانب الاسلام ورسوله وتعاليمه، وتحدث - الى جانب ذلك - عن آراء مواطنيه، خصوصاً القدماء منهم في صورة من السخرية، والتهكم، وهي الآراء التي تبناها سلمان في آياته الشيطانية اليوم، ومنها ما ذهبوا إليه من أن «صورة ماهوم كانت تصنع من أنفس الأحجار والمعادن بأحكم صنع وأدق اتقان» وغير ذلك من «حديث خرافة» حول دين يجارب الأوثان والأصنام. وفي ذلك يقول الكونت: «ولقد أطلنا القول في تلك الأضاليل، لأن تاريخ القسيس اسكندر دويون الذي تضمنه كتابه عام ١١٥٨ عن النبي عليه السلام، يتضمن الكثير من الأضاليل، التي تركت أثراً في الأذهان وصل الى أهل هذه الأيام»، الى أن ابتكر منها سلمان روايته في تشويه صورة الاسلام.

ويتجدد السؤال: ما سرّ هذه الحملة الضالة التي تهزأ بالضمير، ولا يقرّها دين من الأديان؟ يقول الكونت: إنها رغبة من يريد حفظ روح البغضاء في نفوس قومهم ضد الحق.

وقائمة المجنّدين لهذه الرغبة من قبل إبليس، قائمة لا تنتهي، ربّما كان أحدث مجند فيها هو «سلمان» وآياته الشيطانية، الذي يذكّرنا بكتاب للمستشرق «بريدو» الإنجليزي عام ١٧٣٣، والذي جعل عنوانه «حياة ذي البدع» ونستغفر الله تعالى مما جاء في آياته الشيطانية في القرن الثامن عشر، والتي يجدها صاحب الآيات الشيطانية أواخر القرن العشرين. وسلاحهم - كما يقول الكونت المنصف - «أن يشبعوا خصمهم سباً وشتماً، وأن يحرفوا في النقل مهما استطاعوا».

ولكن صوتاً من أصوات الحق في لغات الغرب، ينطق على لسان «كارلايل» أحد كبار الأدباء الانجليز، قائلاً:

- «من العار أن يصغي أي انسان متديّن من أبناء هذا الجيل الى وهم القائلين: إنّ دين الاسلام كذب، وإن محمداً لم يكن على حق».

ويهتف صوت آخر من أصوات الحق - على لسان اللورد هيدلي الذي أعلن إسلامه:

- «ليس في وسع الانسان، في الحقيقة إلا أن يعتقد أن مديجي وناسجي هذه الافتراءات، لم يتعلّموا، حتى ولا أول مبادئ دينهم، والا لما استطاعوا أن ينشروا في جميع أنحاء العالم تقارير معروف لديهم انها محض كذب واختلاق. إنّ تعاليم القرآن الكريم، قد نفذت ومورست في حياة محمد - عليه السلام - سواء في أيام تحمله الألم والاضطهاد، أو في زمن انتصاره ونجاحه - أظهر أشرف الصفات الخلقية التي لا يتسنى لمخلوق آخر اظهارها».

إنّ صوت الحق يعلو في أوروبا، ويتزايد عدد المعتنقين للاسلام يوماً بعد يوم رغم ادعاءات المخطط الدعائي ضد الاسلام، وفي «المجلة الاسلامية» التي أسسها اللورد هيدلي، إجابة عن السؤال الذي يتردد دائماً: لماذا أسلم بعض الانجليز وغيرهم من الاوربيين؟.. «لأنهم كانوا يلتمسون عقيدة سهلة معقولة عملية في جوهرها، لأننا نقول معاشر الانجليز دائماً، بأننا أكثر أهل الأرض

تشبهاً بالعمل. عقيدة تكون ملائمة لأحوال الشعوب جميعاً وأعمالهم وعاداتهم،
عقيدة دينية صحيحة يقف المخلوق بها أمام الخالق دون وسيط.

فماذا يريد «سلمان» اليوم «بآياته الشيطانية» إلا أن يقول مع الشاعر:

وكنـت فتى من جنـد إبليس فارتـمى بي الحال حتى صار إبليس من جنـدي

فليفرح سلمان بمنصبه هذا في دولة إبليس، وما كان سحر الشيطان إلا
ضرباً من الخيال أو الخيال، على حد تعبير أستاذنا العقاد رحمه الله، ذلك أن
إبليس لا يستطيع أن يهزم ضمير الإنسان، ومهما كان الشيطان قوة للشر، فإنها
قوة لا سلطان لها على الضمير الإنساني ما لم يستسلم لها بهواه أو يضعف منه
عن مقاومة الأغراء، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾^(٢)

﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾^(٣)

(٢) سورة الأسراء، آية ٦٥.

(٣) سورة النساء، آية ٧٦.

الاعلام في القرآن الكريم(*)

في هذه الأيام، يطالعنا الأستاذ الدكتور محمد عبد القادر حاتم بسفر علمي قيم عن «الاعلام في القرآن الكريم»: يؤكد فيه ابتداءً أن مبادئ الاعلام السليم التي نحن في أشد الحاجة إليها الآن، سواء في الدعوة الدينية أو الاجتماعية أو السياسية تتضح لنا، في أجل صورة وأوضح بيان، في القرآن الكريم، وهي بعد تمثل توجيهاً إلهياً وسنة نبوية تتصف بكل الكمال.

ولقد اقتضى المنهج العلمي أن يقسم د. حاتم كتابه إلى أجزاء خمسة يناقش في الجزء الأول: الاعلام في القرآن الكريم، حيث يتناول نظرية الاعلام وثورة الاتصال بالجمهور، والرأي العام، والحياة على شبه الجزيرة العربية قبل نزول القرآن والاعلام قبل الاسلام. ثم يتحدث عن الحالة السياسية والاجتماعية في العالم قبل نزول القرآن الكريم.

أما الجزء الثاني فقد جعل عنوانه: «القرآن الكريم: الموضوع والوسيلة والغاية»: وفيه يتحدث عن القرآن والاسلام وعالمية وشمول دعوة القرآن. لينتقل الى الجزء الثالث عن الرسول عليه الصلاة والسلام، وما ينبغي أن يتوفر للداعي من صفات، استلهاً لشخصية الرسول ورسالته في القرآن الكريم. ويخصص الجزء الرابع لدراسة «القرآن والاعلام» فيتحدث عن أهمية الاعلام في الدعوة الى الاسلام ثم، عن أساليب الاعلام في القرآن الكريم.

أما الجزء الأخير، فقد خصصه لدراسة «الانسان في القرآن»، حيث

(*) جريدة الاهرام في ١٩٨٦/٩/٢٠.

يتحدّث عن عقل الانسان، وتنوّع أساليب مخاطبة القرآن للناس واستمرار الدعوة للدين ما استمرت الحياة، والمسئولية الاعلامية في القرآن الكريم واستمرارها. ويتناول بالتفصيل تصوّره العلمي لجهاز الاعلام الاسلامي، وعلم المستقبل. ذلك أن المسئولية الاعلامية تأتي بتوجيه مباشر من الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ، في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾^(١).

وقد حملت أمته هذه المسئولية من بعده، ولها فيه أسوة حسنة، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، ولذلك يلزم على جهاز الاعلام الاسلامي أن ينشر أهداف دين الله، ثم يبيّن كيف وبأي أسلوب ينشرها وما أكثر الأساليب التي وضّحها المؤلف وجاءت في كتاب الله الكريم. عليه أن يحصر هذه الأهداف في أمور ثلاثة ينطوي فيها كل ما جاء في الكتاب والسنة من الأوامر والنواهي وما يتصل بها من الصالحات الباقيات هي:

□ إصلاح حال العبد فيها بينه وبين ربه.

□ إصلاح حال العبد فيها بينه وبين نفسه.

□ إصلاح حال المجتمع الاسلامي، وواجب كل فرد نحو هذا المجتمع الذي يعيش فيه.

ونحن على اتفاق تام مع المؤلف: في أن جهاز الاعلام الاسلامي عليه أن يتبع بعض الأساليب الجديدة للدعوة، تأسيساً على أن أساليب الدعوة تتكيّف بحال العصر، من أساليب الاعلام، وقد صارت الآن طرق الاعلام متعدّدة النواحي فمنها الكتب المنشورة، والصحف السيارة، والأقوال المذاعة مرثياً وسمعياً، ومنها اللقاء بالجمهور والآن.

ويذهب د. حاتم: إلى أن الواجب علينا اليوم يحتم أن نضع تخطيطاً

(١) سورة المائدة آية ٦٧

مستقبلياً للاعلام الاسلامي، مستفيدين من الاعلام القرآني والسنة المحمدية، وما فصله التراث الاسلامي من وسائل وأساليب تفوق كل ما جاء في نظريات الاعلام الحديثة، وهناك مبادئ لهذا التخطيط المستقبلي: يلزم أولاً إعداد الدعاة وتدريبهم على مبادئ الاعلام القرآني ثم تدريس نظريات الاعلام الحديثة، ووسائل الاتصال الجماهيرية من مرئية ومسموعة، مع دراسة مستقبلية لهذه الوسائل المختلفة، ومن بينها الأقمار الصناعية التي ستقوم بإرسال البرامج مباشرة من أجهزة البث لتستقبلها أجهزة التلفزيون في منازلنا دون أن يمرّ هذا الارسال بمحطة أرضية.

توظيف التراث الاسلامي في الأدب(*)

التراث العربي الاسلامي هو المنارة التي تضيء للأجيال مستقبليها، وهو الدرع والملاذ الذي يحمي هويتنا الاسلامية في مواجهة الثقافات المعادية. هذا التراث هو الذي أضاء أوروبا بالفكر والعلوم وكان الأساس الذي شيّد الغرب عليه حضارته التي يتباهى بها اليوم علينا. كيف نبعث هذا التراث ونستثمره في إشعال نهضة فكرية وثقافية ذات ملامح عربية وإسلامية أصيلة؟

حدّد الدكتور عز الدين اسماعيل في دراسة له عن «توظيف التراث في المسرح» عدّة مستويات لتوظيف التراث منها: إستعادة التراث مع بعض الاضافة. واستعادة التراث مع تفجيريه، والاستلهام الموضوعي للتراث عن بعد، والاستلهام الجمالي للتراث شكلاً وموضوعاً والمواجهة مع التراث. وبشكل عام يحتاج توظيف التراث على أي مستوى من هذه المستويات أن يكون الكاتب ذا رؤية خاصة، ولديه من الجرأة قدر يسمح له بعدم الوقوف عند ظاهر التراث، ومن الشجاعة قدر يسمح له بالتعامل مع التراث دون خوف.

..وتشويه الحاضر أيضاً

ف هناك نظرتان متناقضتان للتراث: الأولى، كما يقول الدكتور علي الراعي: تنادي بالاحتفاظ بالتراث بقده وقديده وهي نظرة جامدة لأنها تضي

(*) جريدة المسلمون ١٧ - ٢٣ ذو القعدة ١٤٠٥ هـ

القداسة على الماضي، وتجعل من المتعذر تقديم التراث بطريقة يفهمها المواطن المعاصر.

والثانية: وهي على النقيض تدعو إلى فحص التراث واستخراج القيم الحية منه. أي التي لا يزال لها رصيد في الحاضر وبالتالي فهي مقبولة عند المواطن المعاصر. ويمكن استخدام التراث هنا مع استبعاد الأجزاء الميتة منه

وتتم عملية استلهاام التراث بطريقة ممتازة في ميدان المسرح في المغرب، فكانت «همزات بديع الزمان» للطيب الصديقي، وهذا لا يعد مسخاً ولا تشويهاً إذ أن هؤلاء الكتاب اختاروا النقط المضيئة والصاعدة التي كانت الأمة فيها في أوج تقدمها، لكن هناك مسرحيات شوّهت التراث جداً والتشويه هنا لا ينسحب على التراث فحسب بل امتد إلى تشويه الحاضر أيضاً

وبروز حادثة أو اثنتين أو أكثر لتشويه التراث الاسلامي عند استدعائه في العمل الأدبي لا يجعلنا نستعين بما حدث أو نقف مكتوفي الأيدي حياله ونقول إنها مجرد حادثة واحدة فقط لا تستطيع أن تؤثر في جبل التراث الشامخ الذي يتكئ عليه المسلمون، ويسندون ظهورهم الفكرية والعقلية إليه.

وهنا لا بد من إحياء التراث - حسبها يقول الدكتور رمضان عبد الثواب عميد كلية الآداب بجامعة عين شمس بمصر - كما تركه المؤلفون القدامى لأن هذا من حقهم علينا ثم يمكن استلهاام هذا التراث في إبداع نصوص للمسرح أو للسينما أو حتى لطلاب المدارس والجامعات بلغة عصرية ملائمة لكل سن.

ولكن لا يجوز بأي حال من الأحوال مسخ هذا التراث الاسلامي بصورة تنافي الحقيقة لأن في هذا إهداراً لقيمتنا الاسلامية ومكتسباتنا التاريخية وخلفياتنا الحضارية التي يعتد بها المسلمون.

وهذا المسخ والتشويه للشخصيات وللتاريخ يجعلنا نطرح هذا السؤال:
إلى أي مدى يجوز للفنان أن يخرج عن إطار التاريخ؟

و.. تراثنا الاسلامي كما ترى الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) يستوعب كل ذخائر مخطوطاته من اللغة والأدب والتراجم والتاريخ وفي علوم الطبيعيات والرياضيات كالطب والكيمياء والصيدلة والفلك والرياضة والجغرافيا والملاحة والطبيعة. بل يستوعب كذلك ما حملت الشعوب التي أسلمت في الفتوح الكبرى وتعربت من ميراث ماضيها الذي صار من ماضي الأمة.

يقول الدكتور عبد العزيز شرف: أولاً لا بد أن نفرق بين كتابة التاريخ واستلهاام التاريخ والفرقة أساسية وإن كانت لا تعطي حقاً للتشويه أو المسخ فكتابة التاريخ تقتضي الموضوعية الخالصة التي تجعل منها في نهاية الأمر مصدراً موثقاً به لمن يستلهم التاريخ.

والتراث بصفة عامة من المواد الخصبة التي يجب استلهاامها في العصر الحديث. وهناك رأيان: رأي يقول لا بد من تقديم هذه المخطوطات كما هي وبما فيها من مواد قد تختلف فيها آراء القارئ في العصر الحديث.

والرأي الآخر كان يذهب في اتجاه ما يسمّى بتهديب التراث فظهر مثلاً «تهديب الأغاني» ولكن هذا الاتجاه لم يلق قبولاً لدى قادة الفكر الذين كانوا ينظرون إلى هذا التراث على أنه وثائق اجتماعية وفكرية يجب ألا يحذف منها شيء وأن تقدّم من خلالها التحقيق العلمي الذي يردّها إلى مصادرها فقط.

ثم في ظهور حضارة الاذاعة والتلفزيون كان لا بد لهذه الحضارة الجديدة أن تراث الحضارات الاتصالية السابقة لتسهم في تعميق مفهوم الأصالة.

ومن هنا كان على هذه الأجهزة أن تقوم بعملية (ترجمة) للتراث العربي والاسلامي. ويشترط فيمن يستلهم التراث ويقدمه من خلال عمل فني معاصر الأمانة والدقة. كما يجب عليه أن يكون مستوعباً وفاهماً لمعطيات التراث وملايساته.

الاعلام القرآني ورسالة الامة العربية(*)

قبيل صدور هذا العدد بأيام قلائل قرأت كتاباً قيماً تحت اسم «الاعلام في القرآن الكريم» تأليف واحد من أعلام العلماء في الاعلام والرأي العام، ورائد دراسات المستقبل في لغة الضاد: الدكتور محمد عبد القادر حاتم، تحمل هذه الهدية كتابه القيم عن «الاعلام في القرآن الكريم».

نرى من الواجب أن نستهل هذا الحديث، بحقيقة استهل بها الكاتب كتابه، اتضحت له بعد ممارسة علمية وعملية للاعلام استمرت ثلاثين عاماً، فحوى هذه الحقيقة الناصعة أن كل ما تقول اليوم في الاعلام، لا جديد فيه، ويستطيع كل من يقرأ القرآن الكريم، ويتدبر الانتشار الواسع والسريع للاسلام الذي لا مثيل له في تاريخ الرسالات أن يتبين بوضوح وجلاء أن الدعوة الى الاسلام والوسائل والأساليب التي اتبعت في هذه الدعوة بتوجيه من القرآن الكريم كانت الأساس المكين لانتشار الاسلام وأساس إيمان فئات الملايين من البشرية الأمر الذي يدعونا الى الاعتراف بأن هذه الأساليب والوسائل تمثل أفضل وأكثر وسائل الاعلام وأساليبه فاعلية وتأثيراً في نفوس الأفراد والجماعات والشعوب، وأن المثل الأعلى لأي داعية أو دعوة يوجد كاملاً في القرآن الكريم.

وإذا كانت نظريات الاعلام الحديثة تدور حول عناصر يمكن حصرها بالمبادئ التالية:

(*) جريدة الرأي العام المصرية العدد ٦٦

□ وجود عقيدة أو فكر يراد نشرها.
□ توافر أساليب ووسائل اعلامية مقروءة ومسموعة ومرئية لتوصيلها للناس.

□ معرفة مدى استجابة مستقبل الرسالة لها.
□ قياس وتحديد مدى ما يظهر من سلوكه متفقاً مع هذه الرسالة، وهو ما يعبر عنه برد الفعل.

□ مراجعة الرسالة نفسها على ضوء ما قام به الداعية أو حقيقة الوسائل.. أو الأساليب لمعالجة رد الفعل إذا لم يتفق مع مضمون الرسالة..
فإننا نقول - مع د. حاتم - عندما تنتقل الى الاعلام في القرآن، ان مثلنا يكون كمثل من سما بفكره وقلبه من الأرض الى السماء.

ذلك ان الرسالة هنا هي رسالة الله سبحانه وتعالى.. والداعية هو الرسول النبي محمد عليه الصلاة والسلام، الانسان الكامل والوسائل والأساليب أنزلت له بوحي من السماء وهي تتصف بذلك مع كمالها وسموها بسماها المؤثرة الى الانسانية تتفق مع العقل وطبيعة الانسان، والمستقبل في القرآن الكريم هو الانسان خليفة الله في أرضه.

ونتوقف هنا عند دراسة د. حاتم القيمة للرأي العام عند ظهور الاسلام، حيث يبين لنا كيف تناولت آيات الكتاب المحكم شرح أساليب الكفار والمنافقين، وكيف تحدثت الاعلام في القرآن عن كل نوع من أنواع الرأي العام، عن المشركين الذين يعبدون الأصنام، وعن أهل الكتاب الموجودين في هذا العهد، وعن غير هؤلاء ممن كان في مجتمعهم.

ثم نتوقف عند فصول الكتاب التي ترسم - علمياً - أسس الاعلام الاسلامي، على نحو مسبق، وندلف منها الى تصوّر رائد للدراسات المستقبلية العربية، لمستقبل الاعلام الاسلامي، والذي تعد صحيفتك هذه يا عزيزي القارئ: «الرأي العام» من أهم وسائله الصحفية في العصر الحديث، فنجد أن

الدكتور حاتم يؤكد لنا ان الاعلام المعاصر مقصر في حق الدعوة الاسلامية، وان وسائل الاتصال الحديثة قد استخدمت بمهارة لدعاوى أقل شأناً من الدين بنجاح وأحدثت وتحدث تأثيراً قوياً لتغير القيم والاتجاهات عند الناس لصالح المذاهب السياسية والاجتماعية، ولكن استخدامها في الدعوة الى الدين ما زال مشوباً بالقصور والعجز مع ان الدين هو مرفأ النجاة الذي ترجو الانسانية الوصول اليه لانقاذها من الفوضى الخلقية والانحيار الاجتماعي بسبب كثير من الآفات والعادات السيئة التي تعصف بالشباب وغيرهم، لذلك يكون من الخير أن نبين - مع د. حاتم - من منبر «الرأي العام» بعض النقاط التي يمكن أن تكون معالم على الطريق لتحقيق إعلام إسلامي أفضل، ومنها:

□ ضرورة اجراء تقييم شامل لكل أوضاع أجهزة الاعلام الاسلامية لمعرفة الايجابيات فنستثمرها ونعرف السلبيات فنتجنبها.

□ الحاجة الى إعلام إسلامي يقوم على أساليب الرأي العام التي جاءت في القرآن الكريم، لخدمة القضايا والمصالح الاسلامية.

□ إعداد شامل للدعاة من الناحية الثقافية، ودراسة الاعلام في القرآن الكريم، ومعرفة أساليب وأنواع الاعلام في العالم المعاصر، فلا يكفي أن نقول إن الاسلام صالح لكل زمان ومكان، بل يجب أن نمارس هذا عملياً وفعلياً.

□ جعل المسجد منارة اسلامية، مع إعداد الائمة إعداداً إعلامياً إسلامياً.

□ لو اتبعت برامج الاذاعة والتليفزيون الأسلوب الإعلامي كما جاء في القرآن الكريم فإنها ستجد الاقبال الجيد، فإن البرامج المشوقة الجذابة والعرض الذي يتفق مع النظرية الاعلامية سيساعد على انتشار هذه البرامج التي تبث قيم الاسلام ومبادئه السابقة.

□ إن ربط الاعلام الاسلامي بالقضايا الجماهيرية الراهنة التي تهم المسلمين أمر حيوي لنجاح هذا الاعلام.

□ إنَّ الاعلام الاسلامي مطالب بشرح العقيدة والشريعة والأخلاق
الاسلامية لجميع الدول الاسلامية سواء لا تنطق العربية أو تنطق بها، كما هو
مطالب بشرح مبادئ الاسلام بأسلوب مفهوم من جانب الناطقين بغير
العربية.

□ إنَّ الاسلام لديه الحلول لكثير من مشاكل اليوم سواء المشاكل
الاقتصادية أو الاجتماعية فواجب وسائل الاعلام ورجاله أن يتصدوا لطرح
الحلول.

□ يلزم عمل تخطيط اسلامي لدوائر عالمية لشرح الاسلام بأسلوب
مبسّط يتفق مع كل مجتمع.

□ إنتاج أفلام سينمائية وأشرطة فيديو تخدم الدعوة الاسلامية بكل
اللغات الحيّة وتوفيرها للجماهير المسلمين بأثمان في متناولهم جميعاً.

□ تخصيص مساحات أكبر في برامج الاذاعة والتلفزيون للمادة الدينية
المفسرة تفسيراً علمياً وخاصة ما يتصل منها بالسلوكيات والأخلاق التي تهم
كل انسان ليتبين الخطأ والصواب فيما ينسلك أو يعتقد.

وبين رسالة الماضي ورسالة الحاضر، نقول مع د. حاتم، إن طاقة النور
التي انطلقت من النفس العربية قبل أربعة عشر قرناً لتحقيق ذاتها وامكاناتها
وتؤدي رسالة، لم تفقد حيويتها وروحها، وأن الأمة العربية التي بعثت لتقود
العالم وحدها للحق والعدل والسلام، لا بد أن تبعث من جديد في القرن
الخامس عشر الهجري، في العصر الذي اختصرت فيه الاختراعات الحديثة
المسافات وعمّت الثقافات، وزوّدت ترابط العالم بعضه ببعض، وأن تبعث
برسالة مستمدة من حقيقة وجودها ومن كونها حملت رسالة في الماضي
وستحمل رسالة في المستقبل.

عهد المنعم خلاف.. والعقل المؤمن(*)

يذهب علماء الأخلاق إلى أن أهل الفكر طبقة لا تسيطر على وسائل الانتاج وانما تشتغل بالعمل العقلي وخدمة القيم الروحية، ولذلك أدت الأخلاق دورها في جميع العصور والمجتمعات باعتبارها نظاماً أساسياً لتنظيم السلوك الانساني، ويوضح «لوبوميرد رامالييف» أستاذ علم الأخلاق بجامعة صوفيا، كيف أدت الأخلاق دورها في مجالات ثلاثة: مجال الفرد والأسرة، ومجال البناء العلوي في المجتمع، حيث يتولى القانون والوعي السياسي تنظيم العلاقات بين الناس في المجتمع، والمجال الثالث هو مجال الظواهر الانتاجية أو الظواهر المتصلة بالعمل، ثم يوضح المسئوليات والواجبات السياسية والأخلاقية لأهل الفكر، بمثل يضربه لأهل الفكر من رجال العلم، العلم النظري والتطبيقي بطبيعة الحال، ومجالات هذا العلم هي الفيزياء والكيمياء والتكنولوجيا وما الى ذلك، فيقول: إن العلم قوة انتاجية مباشرة، ولكن مسئولية العالم الأدبية عما يمكن أن يترتب من نتائج على اكتشافاته العلمية وتطبيقها هي الأساس، ومن أبلغ الأمثلة على ذلك مشكلة الطاقة الذرية والأزمات البيئية، وهذه المشكلات لا يمكن حلها إلا بطريقة جماعية لا فردية، وذلك بتضافر جميع الجهود القومية والدولية.

وفي هذه الأيام نحتفل بالعيد التاسع والسبعين لواحد من رواد الفكر عمره، وفي حياته وفكره صورة

حيّة لمستوليات أهل الفكر تجاه قضايا عصرهم ومجتمعهم، ولا سيما من حيث الفكر الديني، وانعاش التوجه العروبي في مصر منذ الثلاثينات.

ولقد انتهى ابنه المستشار هاني خلاف من تأليف كتاب عنه يقدم فيه صوراً ومواقف من فكر وجهاد عبد المنعم خلاف، تلقي الضوء على بعض الحقائق والأعمال والصور والمراحل التي ترتبط بفكره وحياته، وذلك إن الأستاذ عبد المنعم خلاف منذ ثلاثينات هذا القرن قد أثرى حياتنا الإسلامية العربية بمعالجته الدقيقة لكثير من المسائل الإيمانية والإنسانية والوطنية، قدّمها بأسلوبه العربي البليغ الذي تجتمع فيه شاعرية الفنان ودقة العالم وعمق الفيلسوف كمفكر إسلامي - أسهم منذ هذا الوقت المبكر في ارساء بعض المفاهيم الجديدة والرؤى المتميزة للعقل المؤمن استطاعت بها الأجيال اللاحقة مواجهة مغالطات الفكر الالحادي وتحدياته الصادرة عن الفتنة بالعلم السطحي، وكان لشروحه الجديدة التي تجلّي عظمة القدوة النبوية المحمدية الشريفة وحكمة التشريع الإسلامي أثرها في تعميق الفكر الاجتماعي الغربي، ولذلك حرص منذ كتاباته المبكرة على دعوة الناس إلى فهم الدين وأخذه مأخذ العقل والابتعاد فيه وبه عن التهويمات والشطحات والعصبيات.

وكمفكر عربي - يعد أحد المنظرين لفكرة القومية العربية، منذ الثلاثينات.

ثم كانت متابعاته الميدانية لقضايا العرب والعروبة حين انتقل إلى العمل بالجامعة العربية عقب تأسيسها فرصة كبرى خلف فيها رصيذاً مذكوراً.

ولد الأستاذ عبد المنعم خلاف في ٢٧ إبريل سنة ١٩٠٧ - مد الله في عمره - بقرية ميت حبيش البحرية مركز طنطا، وكان والده فضيلة الشيخ محمد خلاف من كبار علماء الأزهر الشريف، وحرص على تنشئة أبنائه تنشئة دينية يحفظون فيها القرآن الكريم قولاً وسلوكاً.

وكانت دراسته في دار العلوم تجمع بين الأدب العربي والفقه الاسلامي وتاريخ الحضارات، أحاطه اساتذته بالرعاية والتشجيع، وكان من بينهم، علي الجارم، محمد رفعت، أحمد حسن الزيات.. وغيرهم من كبار الأدباء والعلماء، وكان من بين زملائه الدكتور محمد مهدي علام، ود. عبد السلام هارون، ود. أحمد الحوفي، وبدأ ينشر مقالاته وبحوثه في الصحف والدوريات منذ بداية الثلاثينات، ولم يكن عمره قد تجاوز بعد الخامسة والعشرين، عندما نشر له المرحوم الاستاذ أحمد حسن الزيات في مجلة (الرسالة) مقاله الأول عام ١٩٣١ بعنوان «الحياة الصادقة»، وكانت له سلسلة شهيرة من المقالات في «الرسالة».. تحت عنوان «نحو أساس روحي للحضارة المادية» وأصبحت هذه السلسلة نواة لبعض كتبه التي أصدرها بعد ذلك. وشارك في بعض المساجلات الأدبية مع بعض عمالقة الفكر حول قضية «الفصحى والعامية» و«قضية العروبة في مصر».

وعندما سافر الى العراق عام ١٩٣٦ كان اسمه قد سبقه مع إعداد الرسالة، فاحتفى به قرائه وتلاميذه، ونشرت له صحيفتا الأخبار العراقية والفيض عدداً من المقالات عن العروبة والتاريخ الاسلامي، كما نشرت له أيضاً مجلة الآمال اللبنانية عدداً من الفصول والدراسات. وعقب عودته عام ١٩٣٩، استمر في عطائه الفكري بمجلة الرسالة ومجلات: الثقافة، الشبان المسلمين، الجديد، الصرخة، الهلال، كما نشرت له صحف الأهرام - المؤيد - المصري، طوال الأربعينات.

وبعد قيام ثورة ١٩٥٢، واصل عطائه الفكري في صحيفة الجمهورية وسلسلة اخترنا لك، التي نشر فيها بحثاً عن القومية العربية والاستعمار، الى جانب كتاباته في مجلة الأزهر في أواخر الستينات بعد أن تولّاها الاستاذ الزيات، كما نشرت له بحوث في دائرة المعارف الاسلامية التي أشرف على إصدارها د. عبد الحميد يونس، والاستاذ ابراهيم زكي خورشيد.

وقد أضاف الاستاذ خلاف الى ذلك رصيذاً ثرياً ومنتظماً بعد عام ١٩٥٨

في أحاديثه الإذاعية الدينية والقومية التي عددها حوالى مائة وخمسة أحاديث
حول تاريخ الحضارة الإسلامية ودور القرآن الكريم في بنائها، وبيان أوجه
العظمة في سيرة الرسول الكريم وأخلاقه وصفاته، وأصول التربية الأسرية في
الإسلام ومواقف الإسلام من قضايا حقوق الإنسان والمرأة والشباب والعمل
والإنتاج والتسامح الديني والشورى ونظرة الإسلام إلى العلم والعلماء.

الدولة الإسلامية على عهد الرسول (*)

«نشأة الدولة الإسلامية على عهد رسول الله ﷺ: دراسة في وثائق العهد النبوي» كتاب المفكر السوداني الدكتور عون الشريف قاسم؛ صدر مع مطلع القرن الخامس عشر لهجرة سيد المرسلين ورسول رب العالمين؛ يؤكد فيه مؤلفه أن قيام الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، وامتداد نفوذها بالتدرج الى معظم أجزاء شبه جزيرة العرب في حياة الرسول ﷺ؛ كان ثمرة مجهودات كبيرة: حربية وسياسية وتشريعية. وكانت حصيلة النشاط السياسي والدبلوماسي الذي اضطلع به النبي عليه السلام في هذا السبيل، مجموعة كبيرة من الرسائل والصكوك والمعاهدات، تحدد العلاقات بين السلطة المركزية في المدينة، وبين قبائل العرب في بقية شبه جزيرة العرب. وقد اختلفت طبيعة هذه الوثائق وأهدافها، باختلاف الظروف والملابسات التي تحكمت في كتابتها.

وقد كتب الرسول عليه الصلاة والسلام معظم هذه الوثائق حقاً، وكان كثير منها محفوظاً في خزائن الأسر المختلفة قروناً طويلة بعد وفاته عليه السلام. وقد لفتت هذه الوثائق انظار الباحثين منذ القرن الأول للهجرة، باعتبارها آثاراً للرسول الكريم، الى جانب قيمتها التشريعية والتاريخية. وقد اعتبرها الرواة ضرباً من الحديث النبوي، ولذلك أرفقوا ما روه عنها بسلسلة من الأسانيد كثيراً ما تنتهي بالأسرة التي تحتفظ بالوثيقة المعنية.

(*) الأهرام في ٢٤/٧/١٩٨١

وقد ميّز المؤلف بين مرحلتين في هذه النصوص، مرحلة أوليّة كان
العنصر السياسي فيها هو الغالب، إذ توجّهت جهود الرسول ﷺ فيها الى هزيمة
قريش بكسب القبائل المختلفة الى جانبه ثم مرحلة متأخرة تأكد فيها العنصر
الديني، لأن النبي عليه السلام كان في هذه الفترة في موقف يمكنه من تحقيق
هدفه الأول في الدعوة الى الله.

الاسلام والابداع الفني(*)

ما أن ينتهي القارئ من الرحلة الممتعة بين صفحات كتاب القيم الجمالية في العمارة الاسلامية التي قاربت الأربعمائة حتى يخرج بانطباع عام، يتلخص في أن المؤلف إنما اتخذ من العمارة الاسلامية مدخلاً لفتح باب الاجتهاد في دراسة الابداع الفني الاسلامي، في كل أنواع الفنون، وهو لذلك يصرح منذ الصفحات الأولى أنه لم يرد أن يجيء كتابه بحثاً أكاديمياً معمارياً، وإنما أراد أن يشرك القارئ العربي معه في الاحساس بمواطن الجمال الخاصة التي خلفها أسلافنا المسلمون في آثارهم المعمارية. وأحب أن يشرك هذا القارئ معه في ارتشاف هذه المتعة النادرة التي تذوقها بين حنايا عمارتنا المنتشرة عبر عالمنا الاسلامي الكبير، من سمرقند وبخارى عبر إيران والعراق والشام وتركيا ومصر إلى تونس والأندلس.

وهذا الكتاب يضيف إلى (الموسوعة الفنية) التي قدّمها د. ثروت عكاشة إلى المكتبة العربية بعداً جديداً هو البعد الاسلامي. بعد أن تناول الفن المصري القديم، والعراقي القديم. والاغريقي، وتاريخ الفن، إلى ما قدّمه عن التصوير الاسلامي من دراسات، تجعلنا نذهب إلى أن الدكتور عكاشة يمثل في فكرنا العربي المعاصر إتجاهاً فنياً يتميز بالتمثل الحضاري. والبحث عن القيم الجمالية في شتى مظاهر الابداع الفني، تأسيساً على أن الفن يمثل قوة خلاقة يستطيع بها الانسان أن يبني عالماً بأكمله.. سواء عن طريق السيمفونيات،

(*) الأهرام في ٣١/١/١٩٨٢.

والمقطوعات الموسيقية، والملاحم الشعرية، وغيرها من الابداعات اللامادية، أو الابداعات المادية مثل المساجد والمآذن والاهرامات، والمسلات. ولعلّ الدكتور عكاشة في نظره التكاملية للفنون إنما يريد أن ينقب عن (القدرة الابداعية) التي تكمن وراء الابداعات الفنية جميعاً، وهنا تغدو (القدرة الابداعية) هي القاسم المشترك الأعظم بين جميع الفنون من أدب وتصوير ونحت وعسارة وغيرها. والرؤيا الفنية عند الدكتور ثروت عكاشة، رؤيا إستيطيقية، تضعنا أمام «العمل» الفني باعتباره (الموضوع الجمالي). وهو لذلك يتفق مع علماء الجمال وفلاسفة الفن الذين يرفضون فصل الصورة عن المادة، كما فعل أرسطو وكانط مثلاً، وربما كان في رؤياه أقرب إلى رؤيا (سوريو) التي لا ترى فعل التأمل عبارة عن نشاط ذاتي يخلع فيه المتأمل صورة على الموضوع الذي يتأمله، بل تراه عملية إدراك تحيط فيها الذات المتأملة علماً بصورة الموضوع المركبة المستقلة.

ولذلك، إن المهندس حسن فتحي قد أكد في تقديمه لكتاب د. ثروت عكاشة، أنه إذا ما غاب عن الناقد أحد عناصر الشكل أو المضمون، فقد اعتور نقده نقص يعيب نظره. ويقول: (وإذا كان نقاد الغرب قد وقفوا عند حد الشكل في نقدهم للآثار الفنية لقصور عن النفاذ إلى ما بعد الشكل المنظور من الرمز الذي يكشف قوانين الابداع الاسلامي في البيئة الشرقية، والتي تختلف دون شك عن قوانين الابداع في البيئات غير الاسلامية، فقد كان للدكتور ثروت عكاشة ميزة إنتهائه إلى نفس البيئة التي أبدعت فوق أرضها تلك المنجزات الفذة).

الدعوة.. والدعاة

أسباب التخلف ومنهج التطبيق(*)

«الدعوة والدعاة - أسباب التخلف ومنهج التطبيق» من أهم الكتب في موضوعه، كتبه عالم غيور جريء.. يوضح الطريق الصحيح للدعوة الإسلامية.. ويضع الأسس القديمة للدعاة، يبين أصول نشر الدعوة - كما جاءت في كتاب الله وسنة رسوله.. ويشرح خطوات الدعاة - كما قام بها الأنبياء - مع المقارنة بين الماضي والحاضر ويرشد الى قيام الوحدة الإسلامية.. ودور الأزهر ورجاله.. ويكشف عن عوامل التخلف والضعف وكيف يكون الخلاص منها.

والمؤلف المرحوم الشيخ علي سرور الزنكلوني.. تلميذ الإمام محمد عبده.. ومن أئمة النهضة الحديثة، وكان من قواد الحركة الإسلامية، يقول الدكتور محمد البهي في تقديمه للكتاب: انه يعيش بتفكيره اليوم بيننا، وفي إطار مشاكلنا الإسلامية كما عاش بالأمس، ويعيش غداً كذلك، لأنه ارتبط بالقرآن وحده. في الإيمان به، وفي النصح بالعمل بمبادئه. وفي دفع الانحراف عنها، وتوضيح أسباب الانحراف.

وتتضمن فصول هذا الكتاب، الحاجة الى هداية الدين - وظيفة الرسالة ومهمة كتاب الله - طريق السعادة - بعثة الرسول عليه السلام وحياته - موقف القرآن امام العالم - وجوه الاعجاز - الكلام على صورة القرآن وبعض ما يعتمد عليه العقل في إدراك كمالها وإعجازها - تكوين الوحدات في الأمم

(*) جريدة الأهرام في ٢٦/٦/١٩٨٣

والشعوب - الدين ضروري للانسان - تكوين الأنبياء للوحدة الدينية - النظر في وجوه الاعجاز من جانب المعنى - موضوع القرآن - أركان القرآن - نسمة التوحيد - البعث وحديث اليوم الآخر - التكاليف الشرعية - علوم القرآن المعنوية - أسباب تخلف العلماء - النار وتفسير القرآن - القرآن والمسلمون - حياة الاسلام اليوم - أسباب التخلف للاسلام ولعلمائه - الطعن على الاسلام - الأزهر في عهده الأخير - سر بقاء الأزهر - مثال من الشبه التي يرددها خصوم القرآن - ما ينبغي للمسلم إذا جادل.

وفي الكتاب ينصح المؤلف الدعاة الى الله بالآ مراعاة في دعوتهم إلا الخالق سبحانه وتعالى؛ فأهل القرآن أحقّ بخشية الله من كل داع، لأنهم يناجون الله بكتابه، ويخاطبون الناس بلسان رسوله، فيجب أن يكون تفسير المعنى واللفظ سارياً في أرواحهم، فيفيض هذا التأثير على سمعتهم وسيرتهم، ويظهر على ألسنتهم، فينبعث منها الصوت الممثل لحلاوة اللفظ، وقوة المعنى، وهذا هو الشأن في كل الأنبياء والمصلحين.

التفكير فريضة إسلامية(*)

بعد عشرين عاماً من رحيل المفكر الكبير عباس محمود العقاد، تتجدد الذكرى، لتؤكد لنا أن الفكر الأصيل لا يمكن أن يموت. ولقد كان العقاد بالفعل في المنهج والأسلوب يمثل عبقرية الفكر الاسلامي في الفن والأدب والابداع والنقد والفلسفة، وهو الأمر الذي يجعلنا بعد عشرين عاماً نقول إنّ الفكر الاسلامي المعاصر فكر مستقل له أسسه الراسخة، التي تجعل أهل الفكر في مشرق الأرض ومغربها، يفيدون منه، وينهلون من موارده العظيم.

وأذكر في هذه الذكرى كتابه العظيم «التفكير: فريضة إسلامية»، وهذا الكتاب في تقديري من أعظم وأعمق ما كتب العقاد، بل إن هذا الكتاب يمثل مفتاح شخصيته الفكرية، ذلك أنه قدم على نحو فريد رؤية إسلامية للفن وللحياة وللحياة قل ان نجد لها نظيراً عند غيره من المفكرين، وهو الأمر الذي وجدنا آثاره واضحة في فكر المفكر المسلم جارودي الذي كنت أتمنى أن يتم بينه وبين العقاد حوار فكري بعد أن أشهر جارودي اسلامه، ذلك أن العقلية التي عرض العقاد من خلالها فكره الاسلامي هي عقيدة القرن العشرين وما تلاه من قرون. فلم يكن العقاد يكتب محللاً الماضي فحسب أو الحاضر فحسب وإنما كان يكتب مستشرفاً آفاق المستقبل، كذلك.

إنّ الاتجاهات الفكرية والفنية المعاصرة، والتي تسعى نحو التأسيس والرجوع إلى منابع الفكر الاسلامي تدين للعقاد وفكره ولرؤياه الابداعية،

(*) جريدة الاهرام في ١٦/٣/١٩٨٤

ولا أبالغ حين أقول إننا في دراستنا المعاصرة لأحدث علوم الاعلام، وأعني الاعلام الاسلامي انما خرجنا جميعاً من معطف العقاد، الذي يرجع إليه فضل الريادة في كل تجديد ينبع من الأصالة، وهو الأمر الذي يلخص سيرة العقاد الفكرية والتي تجعلنا نقول اليوم وكل يوم إنه يمثل عبقرية الفكر الاسلامي.

الشخصية الإسلامية(*)

(الشخصية الإسلامية) موضوع رحب المجال، يمكن أن يتوافر عليه أصحاب الدراسات الفلسفية والتاريخية والاجتماعية، وخبراء النظريات والنظم المذهبية وهذا كله تتوفر عليه الدكتورة عائشة عبد الرحمن في آخر كتاب صدر لها بعنوان «الشخصية الإسلامية» من خلال منهج واحد هو منهج القرآن.

وهذا المنهج يمكن أن نفهم من خلاله، كما تقول المؤلفة، ما لحق بالشخصية الإسلامية من عوارض أو شوائب تفسر ما امتحنت به الأمة من نكبة فادحة في حزيران (يونيو) ١٩٦٧، وهي نكبة يمكن أن تعصى على التفسير والفهم بمنطق الأسباب العسكرية وحدها، وكذلك حساب العوامل المادية وظروف الصراع وما الى ذلك.

كما أنّ هذه الدراسة التي تقدّمها لنا الدكتورة بنت الشاطي تفسّر انتصار الشخصية الإسلامية في العاشر من رمضان، لأن الإنسان - كما تقول المؤلفة كان وسيظل أبداً، العامل الأول في صراع البقاء وسباق التقدم، فالأمة لا تحمي وجودها ولا تحقق تقدّمها إلا بمقدار ما تملك من رصيد ذخيرتها البشرية قيمة ونوعاً. وان بدا في ظاهر الأمر ان صراع البقاء لا يعرف غير الأسلحة الحربية، وان سباق التقدم محكوم بأسباب القوى المادية والتفوق التكنولوجي.

والكاتبة لا تغض من خطر هذا وقيمته، ولكنها تقول لنا إن الانسان

(*) جريدة الشرق الأوسط في ١/٩/١٩٨١

هو الذي يبدع الحضارة ويكتشف أسرار الطبيعة وخواص العناصر، ويصمم الآلات ويصنع الأجهزة، وبغير الانسان، تتعطل الأسلحة نووية أو غير نووية، لأنّه الذي يعطي السلاح قوّته وفاعليته، وبغير الانسان لا تعدو الأجهزة العصرية أن تكون آلات صماء، لأنّه وحده الذي يديرها، وهو الذي يوجّه العقول الالكترونية ويتحكّم في الكهرباء والأثير والذرة، ويغزو الفضاء ويرتاد الاجرام العليا.

وتطيل الدكتورة بنت الشاطي التفكير فيما تتعرّض له شعوب العالم الاسلامي الافريقي من تآكل وتصدّع، وما تمتحن به من مذابح ومجازر وهزائم، ويصك مسمعها ومسمعنا ما يتردّد في الأفق من أصوات الشكّ في صلاحية إنسان هذه الأمة للبقاء، بحكم جمود شخصيته ورجعية تفكيره، وتخلّف عقلّيته المعطلة للأسباب.

الشخصية الاسلامية وعصر العلم

من أجل هذا، فإن الكتاب جدير بالاهتمام لمواجهة تحديات القرن الهجري الجديد، ذلك انه يجيب عن السؤال المطروح والذي يصك مسمعنا في كل مكان.

.. هل تكون الشخصية الاسلامية بطبيعة فكرها الديني غير صالحة للانسجام مع عقلية عصر العلم الحديث؟

لقد بعد العهد بالمسلمين الاولين ممن كانوا يمثلون الشخصية الاسلامية كما عرفوها في مثلها القدوة، نبي الاسلام ومبلغ رسالته، عليه الصلاة والسلام. وطراً على هذه الشخصية الاسلامية ما طراً من ميراث الشعوب التي دخلت في الاسلام بعد الفتوح الكبرى، لكن العقيدة بقيت مناط وحدتها الجامعية ولواء وجودها الحر الذي حقّقه باصالة واقتدار في الدور القيادي للحضارة الاسلامية التي أضاءت للغرب الاوروبي ظلمات عصوره الوسطى، فغذ السير الى العصر

الحديث وانتقلت إليه قيادة الحضارة، ودخلنا نحن في ليل التخلف بفعل سنن حتمية يعرفها كل من قرأ التاريخ.

وطال علينا الليل، فكان سر بقاء هذه الأمة ان بقي لها القرآن دليل مسراها وقد انفرد بمجال النفوذ عليها والتأثير فيها، قبل عصر الطباعة والصحف والسينما والاذاعة - فكان لجماهير الأميين كتاب دينها الذي سهر على حمايتها من الضياع، ونسخ أميتها بنور الوعي، وقادها الى معارك التحرير الباسلة ضد الاستعمار الاوروبي.

غير انا ما كدنا ننجو من الاحتلال العسكري، حتى انكشف لنا ما ورثنا من تركة مثقلة برواسب ليل التخلف، مشحونة بمخلفات الغزو المعنوي الذي ألح على شخصيتنا بالمسخ والتشويه، فكان أول ما واجهنا بعد الاستقلال، هذا التصدع في الكيان العام للأمة وفقدان التعاصر بين أبناء الجيل الواحد في البلد الواحد بحكم انتهائهم الفكري والوجداني الى مدارس شتى وعصور متفاوتة وبيئات متباعدة. وماج الفراغ السحيق بينها بتيارات شتى وافدة، لا توقفها سدود ولا تعوقها حواجز وضع الميدان بدوي الصدام بين قديم وجديد، بين يمين ويسار، بين شرق وغرب.. وتأسيساً على هذا الفهم تقدم لنا بنت الشاطئ كتابها عن الشخصية الاسلامية وتبحث عن جوهرها الحر، ليضبط لنا المقاييس المضطربة فيما يغيب عنا من ملاحمها النقية، وما يشابه الأمر فيه علينا فنحسبه أصيلاً وهو في الحق دخیل.

الشخصية الاسلامية.. والاسلام

والمؤلفة تحتكم في تمثل الشخصية الاسلامية الى أدلة وشواهد من نصوص الكتاب المحكم وصحيح السنة، لتبلغ من قومها مبلغ الاقناع، وقد بلغت.

فهي تقدم لنا المقومات الايجابية في الشخصية الاسلامية حين تتحدث

عن الاسلام والإيمان، وبشريّة الشخصية، والتعادلية الاسلامية بين المادية والروحية، بين العبادة والعمل، بين الدين والعقل، بين المحافظة والتجديد، والذاتية الاسلامية بين الفردية والجماعية.

وفي نهاية المطاف، وبعد أن تجلّو هذه القيم الاسلامية، تجيب عن السؤال المطروح حول الشخصية الاسلامية التي يرتاب المرتابون في قدرتها على الانسجام مع النظرة الطبيعية للكون والحياة.. حين تذكر لنا كلمة جعفر بن أبي طالب لنجاشي الحبشة حين أرسلت إليه قريش تطلب تسليم المهاجرين الأولين، وهي الكلمة التي وعّاها التاريخ من أوائل عصر البعث.

«أيّها الملك، كنّا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأقي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منّا الضعيف، حتى بعث الله فينا رسولاً منّا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفاه، فدعانا الى الله لنعبده وحده. ونخلع ما كنا نعبد نحن وأباؤنا من الأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وإداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصّنات فصدقناه وآمنا به، واتبعناه فعبدنا الله وحده لا نشرك به شيئاً، وحرّمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الأوثان وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث».

فلماذا نوصم اليوم بالرجعية، في إيماننا بقيم عليا تعطي الانسان قيمته ومعناه فوق حيوانيته المادية التي يستوي فيها والبهمة والدواب.. ولماذا يتهم فكرنا الديني؟ وكأن لم يكن البوازع الديني رقيباً على الانسان في خلقه وسلوكه وكأن الأمة على المدى الطويل لم تجد من عطاء عقيدتها ما حررها من اغلال الشرك ووثنية المادة ومهانة العبودية للبشر، وخلصها من فوضى العبثية ولعنة العدمية، وما فرق عن بصيرتها من حجب الغفلة وعن عقلها غشاوة الجهل والعمى ففتحت الدنيا وارتادت درب العلم، ومجاهل الطريق إلى آفاق الفضاء.

من عجب - على حد تعبير بنت الشاطئ - أن تشتد الحملة على

الاسلام ويقال بتخلفه، ناظرين اليه من وراء أربعة عشر قرناً، ولا ينظر الى سائر الأديان والعقائد والملل قبله من وراء عشرين قرناً وأربعين.. فما أحوجنا فيها فرطنا من أمرنا وما يغشانا من جاهلية، الى أن نتدبر آية الله تعالى فينا: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ وأخريـن منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم﴾^(١) صدق الله العظيم.

(١) سورة الجمعة الآيتان ٢ و٣

التفسير الاسلامي للتراجم الأدبية..(*)

يذهب النقد الى أنَّ التراجم الأدبية من أمس أنواع الأدب بدراسة الانسان، حينما نتناول بالتعرف حياة شخصية أو أكثر. ولذلك يذهبون الى أنَّ نتائج الدراسات النفسية وبحوث الشخصية من العمد الأساسية لمن يتصدى لدراسة هذا الفن، والابداع فيه، سواء كانت الترجمة الأدبية ذاتية أو غيرية. فكاتب الترجمة يعتمد على تفسير الطبيعة الانسانية حينما يترجم لنفسه. وحينما يترجم لغيره وهو لذلك معني بدراسة العوامل الاجتماعية المختلفة التي تشترك في تكوين السلوك الانساني وتوجيهه.

ولقد نظر الفلاسفة وعلماء الأخلاق الى الطبيعة الانسانية من زوايا متعدّدة. وترتب على ذلك ان كانت أراؤهم متباينة، وتعددت الدراسات حول الطبيعة الانسانية في أكثر من علم، وفي أكثر من اتجاه، ولكنها جميعاً ضرورية لهذا الفن الأدبي الذي يترجم «للشخصية الانسانية»، ترجمة تجلو خصائصها وتكشف عن عناصر التمييز الانساني فيها.

وإذا كانت هذه الدراسات قد تباينت وتشعبت في دراسة الانسان فإنَّ التفسير الاسلامي للتراجم الأدبية، يتّجه الى إيجاد علم للطبيعة الانسانية يفيد من هذا الشتات بين العلوم، ويستخلص منه ما يثري هذا النوع الأدبي، ذلك ان الطبيعة الانسانية قد حظيت في القرآن الكريم بالدلالة المميزة، فلقد ورد

(*) عكاظ العدد ٦٧٦٤ في ١٩/١٢/١٩٨٤

لفظ «الانسان» - مثلاً - كما تقول الدكتورة بنت الشاطي - في خمسة وستين موضعاً، في القرآن الكريم.

وأحسب أن هذا التفسير الاسلامي هو الذي يكمن وراء الكتاب الجديد الذي طالعنا به الشاعر المبدع والكاتب الاسلامي المحقق الاستاذ عبد المنعم قنديل في هذه الأيام، والذي جعل عنوانه، «حياة الصالحين» حيث توسل بهذا النوع الأدبي - في التراجم - في عرض وتحليل القيم الانسانية من خلال حياة عدد من الشخصيات الاسلامية دراسة تجلو خصائصها، وتكشف عن عناصر التمييز الانساني فيها.

ويوضح الأستاذ قنديل الدوافع وراء اختياره لهذه الشخصيات، وهي دوافع الانصاف لتاريخها، وما قدمته للحياة الانسانية عبر العصور، سواء بالجهاد في ميدان القتال، أو بالكلمة في ميدان الدعوة، أو بالسلوك في محراب العبادة، وحسب الأستاذ قنديل هذه الدوافع النبيلة، التي دفعت به الى اداء واجب الوفاء نحو «حياة الصالحين» حيث وظف ثقافته الموسوعية لظهار أهم خصائصهم ومزاياهم، لأنه يؤمن أن «كتابة التاريخ أمانة في عنق الكاتب، ويؤكد أنه أقدم على حمل هذه الأمانة من منطلق العقيدة مراقباً الله في كل كلمة خطها، وفي كل حرف كتبه، ولذلك عايش المؤلف معظم المراجع التاريخية المعتمدة، معايشة فحص وتمعن، وخرج من هذه المعايشة بترجمة لحياة الصالحين في إطار من الأمانة التاريخية. وتكشف في مجموعها للقارئ عن نماذج مضيئة من أسلافنا، وكيف كانوا يستمدون أفعالهم من قيم الاسلام، ويرتكزون في تصرفاتهم على مبادئ الدين الحنيف. وبهذا سادوا الدنيا وفتحوا البلدان.

ولهذا يعرفنا المؤلف من خلال الترجمة الفنية لحياة الصالحين كيف كان المسلمون الأوائل يقيمون حياتهم على الحب والأخوة والإيثار والرحمة.. فهم ملائكة في محراب العبادة، وفرسان في ساعات القتال، يجاهدون النفس بالصيام والصلاة، ويجاهدون العدو بالسلاح والعزيمة، جمعوا بين مقاومة شهواتهم،

ومقاومة أعدائهم في الوقت نفسه، سيّان الشيوخ منهم والشباب ولذلك فإن هذا الكتاب - كما يقول المؤلف بحق - ينصف تاريخ الشباب، كما ينصف تاريخ الشيوخ. وهو ليس مقصوداً على عهد الرسول، وعهد خلفائه الراشدين، وإنما هو ممتد في أعماق التاريخ، يبحث عن حامل السلاح والراية في الميدان كما يبحث عن حامل المصحف في المحراب، ويستقصي سيرة حياة كل منهما في صدق وأمانة وانصاف.

وهذا الكتاب - كما تقدّم - يثير قضية التفسير الاسلامي للتراجم الأدبية على نحو جديد، يكشف من جهة عن «الطبيعة الانسانية» ويفسّر من جهة أخرى تفوق الأدب العربي والاسلامي على غيره: من الآداب العالمية الأخرى. في هذا الباب - باب التراجم الأدبية - بصفة خاصة، من حيث الكثرة والتنوع والافتنان في ترتيب الاعلام المترجمة. وفي تبويب الموضوعات والاهتمام بها حتى في كتب التاريخ العام وكتب الشروح اللغوية، والترجمة لأعيان كل بلد أو كل مدينة في كتاب واحد، والترجمة لاعلام النساء بجانب اعلام الرجال. وتحقيق الوفيات والمواليد قدر ما سمحت به ظروف حياتهم الاجتماعية والاستشهاد بآثار المترجم لهم في النثر والشعر، وضبط الاعلام وتحقيق المتشابه منها.

ونجد تفصيل ذلك في الكتاب القيم الذي اشترك في وضعه لجنة من أدباء الأقطار العربية عن «التراجم والسير» وقدم له الأستاذ عبد الغني حسن، ونتعرف منه كذلك على أساليب هذا الفن وتطوره في الأدب العربي، منذ القرن الثاني للهجرة، والذي تنوّع على توالي العصور. وبلغ نتاجه من الكثرة في التراث العربي والاسلامي حداً لم يبلغه في تراث أي أمة أخرى معروفة في التاريخ القديم والحديث.

فقد ظلّت انجلترا - مثلاً - على رسوخ قدمها في فن التراجم - معطلة في هذا الباب عشرات من القرون، الى أن ظهر صمويل ببس ١٦٣٣ - ١٧٠٣ م فكتب. يومياته ومذكراته التي يعدونها أول خطوة في كتابة التراجم

الذاتية ومثيلاتها من أنواع التراجم، وظلّت فرنسا كذلك إلى أن ظهر في القرن السابع عشر أيضاً المؤرخ ركيذ فكتب مذكراته سنة ١٦٧٢. فحين بدأ فن التراجم يظهر في إنجلترا وفرنسا بصورة ساذجة كانت التراجم العربية والاسلامية قد بلغت حداً من الكثرة والتنوع وسعة المجال.

ولقد أخذت التراجم والسير العربية في القرن العشرين تخرج في إطار جديد يفيد من تطور المناهج الكتابية والتحليلية النفسية، فظهرت العبقريات للعقاد وحياءة محمد والصدّيق أبو بكر للدكتور هيكل وعثمان وعلي وبنوه للدكتور طه حسين، وأخذت شخصيات التاريخ الاسلامي من الصحابة والتابعين والخلفاء والقواد والملوك والولاة والعلماء والأدباء تكتب بأقلام جديدة، استقام لأصحابها المنهج في الترجمة لحياة الفقهاء والأئمة من رجال الدين، على نحو ما نجد في تراجم الاساتذة أبو زهرة، أمين الخولي، عبد الحليم الجندي، وعبد الرحمن الشرقاوي.. وغيرهم من اعلام الكتاب في أدبنا الحديث، على نحو ما وجدنا في كتاب الاستاذ قنديل عن «حياة الصالحين».

الشعراوي.. والأدب الإسلامي(*)

في هذه الأيام نستقبل عاماً جديداً في القرن الخامس عشر الهجري، وهذا العام الجديد يثير مجدداً قضية الأدب الإسلامي، الذي يصدر عن الإسلام منهجاً وفكراً، ويعبر عن الشخصية الإسلامية ومواجهاتها لتحديات الحاضر والمستقبل.

وفي هذا يقول المفكر الفرنسي المسلم «رجاء جارودي» «إنّ الأدب الإسلامي هو في جوهره أدب الاستشراق والتسامي بالنفس الانسانية، انه أدب يستلهم القرآن الكريم» في بناء الانسان، ذلك أن الإسلام - كما يقول جارودي أيضاً: «يحمل بذور تغيير جذري على مستوى الانسانية كلها، ولذلك أضفى على التيار الذي سيسود الفكر العالمي والأدب الانساني، العقيدة السامية التي لا تكف أبداً عن الهام الفكر والأدب».

وفي هذه الآونة يطالعنا الكاتب الأديب الأستاذ عبده مباشر بكتاب عن المفكر الإسلامي الكبير الشيخ محمد متولي الشعراوي، يؤكد فيه هذه الوظيفة الجوهرية للأدب الإسلامي من خلال القضايا المعاصرة التي ناقشها، وطرحها، ذلك أن الشيخ الشعراوي قد امتدّ به الطريق سنوات طوالاً على طريق الدعوة الإسلامية، عبر القارات من أفريقيا إلى آسيا فأوروبا وأميركا الشمالية، وتعددت الوسائل الاتصالية التي يتصل من خلالها بالجمهور، وتعددت الفنون القولية التي توّسل بها كذلك، فكانت كتابة الشعر في المرحلة الأولى

(*) الاحرام في ١٩٨٤/٩/٣٠

من حياته، وركّز على توجيه المضمون الفكري الذي يجب أن يتبناه الأدب الاسلامي في الفنون الأدبية المختلفة، من شعر وقصة، ومسرحية، ومقالة، وملحمة، تأسيساً على المفهوم الذي يقدمه للأدب الاسلامي، وهو المفهوم الذي ينظر الى الاسلام قبل أن يكون «نظماً وقبل أن يكون سلوكاً ومنهجاً، أن يكون عقيدة تغمر القلب بالإيمان المطلق بالله «وهنا يستطيع الأدب الاسلامي أن يواجه الدعايات المزيّفة، والنظريات الوضعية، من خلال العرض الفني للفكرة الأساسية المستمدة من الاسلام، ونبذ «الفكرة الوافدة» ذلك أن «الاسلام بمفهومه ليس من صنع فكر البشر لأنه من وضع الحق سبحانه وتعالى، والحق هو الخير المطلق والكمال المطلق» وحين يعرض الأديب لفكرة الخير يعرضها عرض الأديب المتمكن من أدواته الفنية، والتي يوظفها توظيفاً فنياً في عرض الفكر الاسلامي بعد دراسة الأفكار الوافدة. يقول الشعراوي: «ولا شك، أن من يستقبل الفكرين وبدون هدي مسبق سينتهي إلى أن ينتصر لقضية الاسلام المقابلة للفكر المعاصر، وقد قال الله تعالى ﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾^(١).

ومن كلمات الشعراوي التي قدمها الأستاذ عبده مباشر، يتحدّد لنا إطار الأدب الاسلامي المعاصر، ومن ذلك قوله «من حلاوة ما ذقته في القرآن الكريم.. أريد أن أنقل هذه الحلاوة الى الناس» و«لا تناقض بين الحقائق القرآنية.. والحقائق الكونية» و«نفخة واحدة.. تطفئ، ونفخة واحدة.. تؤجج» و«إذا كانت النفس البشرية لغزاً لا نستطيع أن نفهمه، فإن فيها فطرة نحس بها جميعاً، هي صلة هذه النفس بالله». إنّ هذا المنهج الذي يطرحه الأستاذ مباشر من خلال فكر الشيخ الشعراوي، يؤكّد ما ذهب إليه مفكرنا الفرنسي المسلم جارودي، الذي عني بدراسة الأدب الاسلامي، حينها يؤكد ان «ازدهار الأدب العربي الاسلامي في عصرنا هذا ينقل على مستوى قلق وهموم وآمال الانسان المعاصر، اتّجاه الأدب الاستشراقي المتسامي».

(١) سورة النساء آية ٨٣

ذلك أن جارودي قد توقّف أمام نماذج من الأدب الاسلامي في عصور مختلفة، توصل منها الى أنها جميعاً تصدر عن استلهام القرآن الكريم، إيماناً من مبدعيها بقول الله تعالى ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾^(٢).

وحينما ازدهر الأدب الاسلامي كان تأثيره عميقاً في الآداب الاوربية التي يقدم منها جارودي نماذج من «جوته» في مؤلفه «الديوان الغربي الشرقي» حيث يعبر عن الحركة المزدوجة والتعدد في الكون والعودة الى التوحيد بالحب، يقول «العالم في وحدته الاولى كان يستكين في أبدية الله فخلق الله الزمن بأن قرر للعالم أن يكون».

(٢) سورة البقرة آية ١١٥

مواكب الحياة والشعر الاسلامي*

منذ فترة طالعنا الشاعر الدكتور عزّت شندي بديوانه «مواكب الحياة» والذي يثير مجدداً قضية الأدب الاسلامي حينما ينتسب الى الاسلام عقيدة ورؤيا، ويستمد أسسه وأصوله من ينبوعه الكريم، ويتأثر به أسلوباً ومعنى وصوراً وأفكاراً، ذلك أن الأدب الاسلامي - كمصطلح - لم ينته بعصر ظهور الاسلام - ولكنه لا يزال يؤدي رسالته إبداعاً ونقداً، وفي - الأدب الاسلامي - مستقبل الأدب المعبر بالعربية وبغيرها من اللغات طالما يبدعه أدباء مسلمون يصدر عن الاسلام في فكرهم وإبداعهم.

والشعر الاسلامي المعاصر يصدر عن الرؤيا الفكرية للأدب الاسلامي، حينما يستمد أفكاره وقيمه من الاسلام ويؤدي رسالته في العمل على إيجاد اليقظة الاسلامية والوعي الحضاري في مواجهة الغزو الفكري الضاري. وديوان الشاعر الدكتور عزّت شندي «مواكب الحياة» يعبر عن هذه المعاني، حينما يتوجه الشاعر بصلواته الى باري الكون سبحانه وتعالى:

يا باري الكون لا تنفك مبدعه وخالق الخلق من انس ومن بهم
تصوّر الكون في فن ومقدرة تسير الفلك في سام من النظم
أرى سناءك في البدر المنير ضياء وأشهد البشر فيه جسد مرتسم

من أجل ذلك يشد الشاعر ركابه سعياً الى عصر المصطفى ﷺ، ذلك العصر الذي عاش فيه الانسان ينتقل من مجد إلى فخر الى نصر متطلعاً الى

(*) جريدة الاهرام في ٢٨/٧/١٩٨٥

أعظم مثل الحياة وأكرم قيم الفضائل يضيء طريقه دين القيمة ويهديه الى
غاياته الرفيعة شريعة كريمة يقول الشاعر الدكتور شندي:

يا مصطفى اني شددت ركابي سعيًا إليك ألوذ منك بباب
وتركت أبنائي وأحبائي الى الـ أغلى من الأبناء والأحباب
إلى أن يقول:

ولقد مدحتك يا حبيب فعزّي اصلي وطارت للذرى انسابي
والفخر افعم جانبي واعرقت مما امتدحتك في الورى اعقابى
يا «مصطفى» اني نذرت كهولتي وقفًا عليك كما نذرت شبابي

ويصوّر الدكتور شندي في هذه القصيدة الطويلة القيم المكتسبة من
السيرة العطرة يستهدي بها الانسان في القرن الخامس عشر وما يليه من قرون
يقول من قصيدة «في مهجر الرسول»:

واشدت بالعلم الحكيم لنتروي من نبعه واشدت بالعلماء
والحلم قد مجدته وحمدته وكم امتدحت مكارم العلماء
والصبر قد عظمت اجر دعائه وضمنت اجرهم لدى الارزاء
خلق هو الاسلام انت فقيهه ولنعم ما شرعت للفقهاء

وفي صفحات الديوان التي تزيد على الثلاثمائة صفحة قصائد مشرقة
تصدر عن رؤيا اسلامية تعيد للشعر منزلته السامية في تصوير الحياة والتعبير
عن مواكبها تعبيراً يقف منه الشاعر موقف المشارك في هذه المواقب الحياتية لا
المشاهد المتفرج عليها. ذلك أن شاعرنا الدكتور شندي يعبر في قصائده عن
الاصالة الأدبية موضوعياً وتعبيرياً إذ إنّ هذه الاصالة الأدبية التي يصدر عنها
شاعرنا انما تنمو من التفكير والتأمل وتستمد مادتها من واقع الحياة أو مما فوق
الواقع في إطار ثقافته وعقيدته وترتدي القصيدة في التعبير عن ذلك جميعاً ثوباً
جديداً متميزاً. يقول الشاعر من قصيدة «النيل الخالد» مخاطباً «النيل»:

وقامت على واديك أولى حضارة اطلت على الدنيا منار رشاد
اضاءت ظلام الفكر في ليل جهله فهبت غوافي العلم بعد رقاد
ولاح بها التوحيد يجلو بنوره غياهب شرك شاع في ظل الحاد
ولولاك ما قام البناء موطداً وما ظلّ عبر الدهر ثابت الأوتاد

ان «اصالة» مصر الموحدة المؤمنة، تعبر هنا عن الاصالة الأدبية التي تشير - كما يقول استاذنا السحرتي رحمه الله - الى جدة الفكر والنوارنية في التعبير لابداع أدب حي باق على الزمن، أدب رقرق مضيء ينبثق من الروح ومن انفعالها الخلاق فينشر الفرحة في الأذهان والقلوب إذ من الروح يشرق ضوء باهر وتغطي سحابة مضيئة لطيفة وجه الأرض - كما يقول الشاعر الانجليزي كولريديج. والفكرة الجديدة أو الفكرة الصافية التي ارتدت ثوباً جميلاً مضيئاً هي الفكرة الأصلية التي ترقد في النور وتعيش في الخلود وتعني بدورها جوهر ما تعنيه بحديثنا اليوم عن «الأدب الاسلامي».

مصطفى محمود

بين أدب الرحلات وأدب الآخرة(*)

ليس الإنسان فيلسوفاً بالطبيعة، ولا فيلسوفاً بالفطرة، وإنما هو فيلسوف عندما يوجد ما يدعو به إلى التفلسف، فالفلسفة استجابة ذهنية، كما أن الشعر استجابة وجدانية، لما في الواقع من دوافع ودواع، أو هي تعبير عن ذوات العقول كما أن الشعر تعبير عن ذوات النفوس.

بهذه الكلمات يستهل الأستاذ جلال العشري كتابه عن «مصطفى محمود شاهد على عصره»، وهي كلمات توحى بما يشتمل عليه الكتاب من آراء وما يقوم عليه من أفكار ينتظمها منهج نقدي تميز به جلال العشري في العديد من الدراسات والكتب الأخرى، وهو المنهج الذي يفيد من ثقافته الفلسفية، افادة تجعل من النقد استجابة ذهنية للابداع الأدبي الذي هو في الأصل استجابة وجدانية، وهو المنهج الذي تمكن عن طريقه من اكتشاف عالم مصطفى محمود الرحب، بحيث نذهب معه إلى أن مصطفى محمود لم يتأثر ولم يقلد، وإنما قد استطاع أن يحيا «الثقافة الانسانية الفكرية» وأن يمثلها ويستفيد منها، فترددت في كتاباته اصدااء العصر. وتشكلت أفكاره بكل ما أسهم في تكوينها من حقائق أصيلة ووقائع معاصرة، ومنها يكن من أمر الأفكار التي تشابهت مع أفكار مصطفى محمود - كما يقول المؤلف - والأصدااء التي ترددت في كتبه وكتاباته، فإن الذي لا شبهة فيه ولا شائبة أن مؤلفاته ليست مجرد مرآة

(*) الاهرام ١٤/١/١٩٨٠ -

انعكست على صفحاتها قراءاته، وإنما هي قد اشتملت على الكثير من الخطرات الفلسفية، والمبادئ الأخلاقية، والنظرات الصوفية، هذا بالإضافة الى الآراء التي يمكن أن يكون لها أثر في حياتنا الاجتماعية. ويتضح عالم مصطفى محمود من خلال المنهج الذي رسمه المؤلف لكتابه، حيث ينقسم الكتاب إلى أربعة أبواب، كل باب منها يؤدي بنا الى عالم مصطفى محمود، فالباب الأول عنوانه: «العلم والايمان» يتحدث فيه عن العلم والفلسفة والتصوف، أما الباب الثاني فهو عن الأدب والفن أو (الإنسان) وفيه يتحدث عن القصة القصيرة والرواية والدراما. و«أدب الرحلات» هو عنوان الباب الثالث حيث يتحدث عن العالم: المدينة - الغابة - الصحراء. وأخيراً: رحلة الرحلات أو أدب الآخرة: الطريق الى الكعبة - رأيت الله - سدرة المنتهى. ذلك أن الفكر عند مصطفى محمود كائن حي له يدان، على حدّ تعبير المؤلف، يسراه العلم، ويمناه الفلسفة، أما التصوف فهو قلب البطائر الخفاق، فعصرنا هو عصر الفكر.. لا الفكر النظري الخالص الذي يبدأ أو ينتهي في رأس صاحبه. ولكنه الفكر المخطوط بالعاطفة الممزوج بالوجدان.. الفكر الذي يخرج من العقل لا ليخاطب العقل بل ليتلقفه الاحساس فيحيله الى صورة ترى، وكلمة تسمع، وحركة تدرك بالوعي والشعور، وقاعدة لاطلاق هذه المحاولة. وكأنما يتمثل عبارة الشاعر الصوفي الكبير محمد اقبال:

«لا يتيسر فهم الكتاب الكريم حتى يتنزل على المؤمن كما تنزل على النبي».

ذلك هو الباب الأول لاكتشاف عالم مصطفى محمود، أما الباب الثاني فهو باب الانسان أو الأدب والفن، حيث المتناهي في الصغر والمتناهي في الكبر، هما المداران اللذان يدور في فلكهما أدب مصطفى محمود كما دار فيهما فكر مصطفى محمود عن الوعي كأداة للمعرفة، والانسان كموضوع للمعرفة. انطلق محمود في أدبه وكتاباته سواء الفلسفي منها على مستوى التفكير أو

الأدبي على مستوى التعبير.. وهو - كما يقول المؤلف - لم ينطلق انطلاقاً أي كاتب تقليدي يقول ما عنده ثم يستدير ليقول ما عند الآخرين، وإنما انطلق بفنيته الهائلة التي جمع فيها بين احساس الأديب وإدراك الفيلسوف، ومزج هذين البعدين بأسلوب عصري جديد فيه عمق الفكرة ودفء العبارة. فيه البصر الذي يوحى بالبصيرة، والمادي الذي يؤدي إلى المعنوي، والرؤية التي تلتقي بالرؤيا كأروع ما يكون اللقاء، فهو يتعاطى الأشياء بعقله، ثم يعيها بوجوده، ثم يجسدها بكلمة فإذا هي مسرحية أو رواية قصة قصيرة..

ومن هنا كان فن مصطفى محمود غير قابل للتمذهب، يعني المؤلف أننا لا نستطيع أن ندرجه تحت مذهب أدبي معين أو نطلقه وراء فيلسوف بالذات.. فهو ابن حياة.. استطاع أن يفلسف حياته ويحيى فلسفته وأن يتخذ منها جميعاً مادة لكتابه في الأدب والفن: في القصة القصيرة والرواية والدراما وأدب الرحلات.

إن كتاب جلال العشري في نهاية الأمر تأكيد لتيار «الاصالة والمعاصرة»، الذي يروده في كتاباته.. الاصالة في العودة إلى تراثنا الفكري والروحي الأصيل، والصدور عنه بما يتوافق ومتطلبات الواقع وروح العصر.

الشعر الاسلامي والنور الاعظم (*)

يقول الفنان «رودان» في صدد حديثه عن دور الفكر في الفن: إن الفن هو التأمل، هو متعة العمل الذي ينفذ الى صميم الطبيعة، ويستكشف ما فيها من عقل يبعث فيها الحياة. إنه فرحة الذكاء البشري حين ينفذ بأبصاره الى أعماق الكون، لكي يعيد تشكيله مرسلأ عليه أضواء من الشعور.

هذه النظرة الصائبة، تؤكد لنا أن الشعر وألوان الفنون الأخرى، تنقلنا الى عالم الصور النقيّة، وفي فن الشعر خاصة، يجد القارئ لغة رمزية تعينه على الكشف عن جوانب مجهولة من التجربة الحيّة، ولذلك ينطلق مفهوم الأدب الاسلامي من العقيدة الصحيحة التي تؤكد كرامة الانسان وحرّيته ومسئوليّته، والتي تنبع منها قيم الحق والعدل والاحسان والخير.

وفي ضوء التحليل الوظيفي، يتغيا الأدب الاسلامي بناء الشخصية الاسلامية المتوازنة، وتكوين المجتمع الاسلامي المتناسك المتكافل. ذلك أن الانسان قد خلق ليعبد الله، والنشاط الانساني لا يتّصف بهذا الوصف محققاً لهذه الغاية التي يحددها القرآن الكريم بأنها غاية الوجود الانساني إلا حين يتم هذا النشاط وفق المنهج الالهي لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١).

وتأسيساً على هذا الفهم فإن الشعر وفنون الأدب في الاسلام ينبغي أن

(*) الاهرام ١٩٨٨/٤/٣

(١) سورة الذاريات آية ٥٦

تدعو الى نشر عقيدة التوحيد كما تدعو الى العبودية الخالصة لله وحده لا شريك له، وفي ذلك تأكيد على حرية الانسان من كافة القيود الخارجية كالسلطات الغاشمة والقيود الداخلية التي تتمثل في الغرائز والشهوات.

وفي الأيام المباركة التي نتنسم فيها أريج المناسبات الاسلامية الخالدة نطالع معاً الديوان الجديد للشاعر عاطف عامر بعنوان «سرّ الاله: النور الأعظم» قصائد شعرية في نور حب الله.

وهي قصائد في هذا الاطار الاسلامي للفن والأدب، تستهدف السمو باهتمامات الناس وعقولهم ووجدانهم وسلوكهم - وبث روح الالفه والمودة والرحمة والتعارف والتآلف والانسجام بين سائر المسلمين.

لم يقتصر تأثير «الاسراء والمعراج» على الأدباء والشعراء المسلمين وإنما امتد ليؤثر في الآداب العالمية، فكوميديا دانتي التي تنشد الخلاص عن طريق الحب والفيض الالهي، تمثل رحلتها - على حدّ تعبير استاذنا المرحوم د. غنيمي هلال - رحلة كل نفس في هذا العالم الأرضي.

وها هو شاعرنا عاطف عامر، يرحل بنا في «نور حب الله» من خلال قصائد شعرية تؤكد أن عالم الانسان عالم أخلاقي يعرف الحقيقة والقيمة والمثل الأعلى؛ ومن هذه المنطلقات يسعى في شعره الاسلامي الى حراسة هذه القيم والتزام منهج الله تعالى في شئون الحياة وعلى ذلك يصبح الأدب الاسلامي أدباً ملتزماً بعقيدة الاسلام فيما يعالج من موضوعات وهو يعمل على نشر تلك العقيدة، وتعميق الوعي بها، فالأدب يشتق وظيفته من وظائف المجتمع الاسلامي نفسه كما أرادها الله تعالى.

يقول الشاعر:

سجد الوجود حب ذاتك طاعة وسجدت شوقاً في نعيم رضاك

وفي القصيدة الرئيسية في الديوان يقول:

سرّ الاله.. أراه في أنواره بصيرتي.. والسر نور الحكمة

سرّ الاله.. فخلق نور محمد قوسين أو أدنى لنور الرؤية
نور المرقى صاعداً لحبيبه الرحمن منتشياً بنور النظرة
يا من رأى نور الاله بليلة ال معراج نوراً نلت أبهى طلعة
درجات نور قد علا للمنتهى لرفيعة وفصيلة ووسيلة

وهكذا يؤكّد لنا الشاعر بديريته الفنية، أن الشعر الاسلامي حينما ينطلق
من الايمان الصادق يستدعي العمل الصالح، قال القسطلاني:

الإيمان هو التصديق بالقلب، والاعتراف باللسان - وتقرّره الأعمال
الصالحة واجتناب الناهي. فإذا زنى، أو شرب الخمر، أو سرق، ذهب نوره
وبقي في الظلمة فإن تاب رجع إليه. والمستقرئ لآيات القرآن الكريم قلّما
يجد فعلاً أو وصفاً مشتقاً من الإيمان الا وهو مشفوع بعمل الصالحات ومن
ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً﴾^(٢).

ومن هنا ينبهنا الشيخ عبد العزيز جاويز رحمه الله، الى أن الله تعالى
يوقظ العقول الى أن مجرد الإيمان في اللغة أي الاعتقاد، لا يكفي في الحاق
صاحبه بفئة المؤمنين حتى يقرن اعتقاده بصالح الأعمال. وقد ضمن الله تعالى
الامن والهدية لمن لم يشب إيمانه بظلم ولا جور فقال: ﴿الذين آمنوا ولم
يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الامن وهم مهتدون﴾^(٣).

في اتجاه هذا النور الأعظم يسير بنا الشاعر عاطف عامر حينما يقترن
العلم بالعمل، ويصبح سر الجهاد وسر السلام، وسر الوجود، يقول:

جمعت من نور السماء قصيدة وبنيت أفكارى من الومضات
حلقت في دنيا البيان ببردة وخلعتها حتى تنال سبائي

وهكذا خلق الشاعر ببردته الجديدة بما يمتلك من عدّة فنية الى عوالم

(٢) سورة التغابن آية ٩؛ وسورة الطلاق، آية ١١.

(٣) سورة الأنعام آية ٨٢

من السمو تؤكد خاصية الفن التي تحدث عنها «برجسون» والتي تتيح للشاعر أن يرى العالم في صفاته الأصلي ويدرك أشكاله وألوانه وأصواته؛ وبمقتضاها يمتلك الشاعر مقدرة صوفية على الاتحاد مع قصيدته، و«يملك قدرة هائلة على ادراك ما يفوتنا في العادة ادراكه لأننا مشغولون بالعمل والتصرف على حين أنه هو مستغرق في النظر والتأمل».

قضية الأزهر والوزير المسئول عن تطبيق الشريعة(*)

حرص الأهرام أن يشرك في قضية القرآن الكريم الاستاذ ا. أنور أبو سحلى وزير العدل فهو الى جانب وظيفته مسئولاً عن ا تطبيقها أديب يدرك قيمة الكلمة وأهميتها وهو من المعروفين بإيمانهم ذلك الإيمان القائم على الثقافة والدراسة والفهم.. فلم يكن عجباً أن هذا الحديث الذي أدلى به للدكتور عبد العزيز شرف: ث. أ..

من الأحاديث التي رويت عن النبي ﷺ - حديث يلخص الاجتماع في كلمات معدودة وهو قوله عليه الصلاة والسلام «كما تكونوا عليكم»..

ومن آيات الصديق في هذا الحديث الحكيم، كما يقول العقاد ر- أنه يصدق على كل حالة اجتماعية تتمثل فيها صفات الأمم، ولا يقف مشابهة الحكام للمحكومين أو عند مشابهة المعلمين للمتعلمين..

هذا الحديث الشريف، يلح علينا الآن ونحن نفكر في أمر الأزهر سيما بعد الحملة التي أثارها الأستاذ ثروت أباظة على هذه الصفحة تساءل البعض: ما شأن صفحة الأدب بالأزهر وقضاياها: وهذا التساؤل نذكر من جديد أن الأزهر قد أقيم لغرضين أولهما أن يحفظ ما عساه أن من آداب اللغة العربية لأنه بغير اللغة لا يمكن أن يفهم أحد القرآن وثانيهما: أن يهدي الناس الى أقوم السبل في أمر دينهم، فهل هو قارئ الرسالة كما قام بها في تاريخه المجيد؟

(*) الأهرام - ١٩٧٩/١٢/٧

نظام رائد وقلة ممتازة

طرحَت هذا السؤال على العالم المحقق المستشار أنور أبو سحلى وزير العدل، فقال بداءة:

- «الأزهر» - وهو أقدم جامعة في العالم - كانت بصماته على العلماء في كل أرجاء العالم الاسلامي وغير الاسلامي.. لأنَّ الفئة الممتازة من علماء الأزهر ومن درسوا فيه وانتشروا في أرجاء العالم كانت لهم آثارهم ومؤلفاتهم التي غزت الفكر في الشرق والغرب.. ولم يصل الى مصاف الأزهر في العالم كله معهد أو جامعة، حتى لقد أصبح الأزهر هو القبلة الثانية للمسلمين، والقبلة الأولى لطلاب العلم في العالم كله.

«ونظام التدريس في الأزهر بالاسلوب الذي بدا فيه منذ ألف عام كان نظاماً رائداً رائعاً.. لأن الأزهر كان يفتح أبوابه لكل طلاب العلم دون قيد أو شرط.. وهذا هو العالم بمفهومه الحقيقي كما أراد له عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين أن يكون كالماء والهواء.. فلا يصح أن نضع قيوداً أو شروطاً لطلاب الماء والهواء».

ويستأنف وزير العدل حديثه بهدف احقاق الحق للأزهر:

تطوير الأزهر: صدمة للعلم

- «إنَّ بعض الآراء تنادي اليوم بعد ألف سنة من انشاء الأزهر بنفس نظام الأزهر في الجامعات الحديثة، وبأنَّ تفتح هذه الجامعات والنظرية منها خاصة لطلاب العلم دون قيد أو شرط ذلك أن الأزهر سجل بنظامه، الرائد آثاره الرائعة في كل أنحاء المعمورة، وفي كافة فروع العلم، ومنه خرج الفقهاء والفلاسفة»..

ولهذا فعندما صدر قانون تطوير الأزهر في أوائل الستينات كان صدمة

لكل من عرف قدر الأزهر وقيمته العلمية، لأن الأزهر كان يجب أن يبقى كما هو، وأن يظل كما هو كعبة للعلم يقصدها من يريد من كافة أنحاء العالم دون تقييد بشرط المجموع أو شرط الحصول على مؤهل معين.

«وكم من طلاب علم لم يحملوا مؤهلاً دراسياً للالتحاق بالجامعات قصدوا الأزهر ونبغوا فيه وخرجوا منه يملأون آفاق الدنيا علماً ونوراً»..

«لقد تخرج سعد زغلول من الأزهر وتخرج غيره من العظماء والفقهاء والسياسيين من الأزهر ونبغوا فيما عملوا فيه»..

«وليس أدل على أن نهل العلم لا يحتاج الى مؤهل خاص من أن المرحوم المفكر الكبير عباس محمود العقاد لم يحصل على مؤهل عال أو متوسط من المدارس أو الجامعات».

الأزهر والعودة الى نظامه

ويطالب وزير العدل بأن يعود الأزهر الى نظامه الأصيل. يقول:

«وحينما أطالب بذلك فإنما أطالب بواقع لمسناه على مدى ألف سنة»..

ولهذا كما قلت كان «تطوير» الأزهر أمراً أريد به شل حركة الأزهر، ووضع القيود في قدميه ويديه، حتى لا ينطلق الأزهر كما كان اشعاعاً ونوراً للعالم كله..

«ونتائج هذا ظاهرة للعيان.. فأين أبناء الأزهر الذين كانوا يملأون العالم الاسلامي والأفريقي والآسيوي بل أوروبا بعلمهم وفقههم ونورهم.. وكلهم من أبناء الأزهر؟»

«واني لأنادي اليوم بأن يعود الأزهر كما كان حراً طليقاً من كل قيد، مفتوحاً لكل طلاب العلم من كافة أنحاء العالم.. ينهلون من نبعه ما يستطيعون أن.. يفاخروا به الدنيا وأن يملأوا به العالم علماً ونوراً».

لغة أهل الجنة

«ويضيف الأستاذ أنور أبو سحلى في تأكيد دعوته الى عودة الأزهر الى نظامه الأصيل:

«ونحن اليوم أحوج ما نكون الى علماء الأزهر بعد أن استقلت دول أفريقيا وآسيا، وأغلب شعوبها من المسلمين الذي يتشوقون الى معرفة دينهم وتفهم مبادئه السامية والى تعلم لغة القرآن.. لقد قابلت في إحدى رحلاتي في الخارج شاباً مسلماً من هذه الدول يعرف القليل من اللغة العربية، وجدته يتلو القرآن بصعوبة.. وعندما تحدثت معه.. وعلم أنني مصري أتحدث العربية قال: «إننا نحسدكم يا من تتحدثون بالعربية.. لأنكم تتحدثون بلغة الجنة.. لغة القرآن الكريم.

الأزهر وأبناء الدول الاسلامية

«لهذا فإنني أنادي بأن يفتح الأزهر أبوابه على مصراعيها لأبناء هذه الدول الاسلامية وللمسلمين من كافة أنحاء العالم.. ليتعلموا في كعبة العلم ويعرفوا قرآنهم ودينهم ليعودوا الى أهلهم محملين بذلك النور السماوي فينشروه بين وديان بلادهم وبين أبناء الاسلام في كافة أرجاء العالم..

وليستطيعوا أن يقرأوا القرآن الكريم بلغته الأصلية.. وليستطيعوا التحدث بلغة الجنة.

وهذه هي رسالة الأزهر السامية التي لا تدانيها رسالة أخرى في عالمنا اليوم.

«إن نشر القرآن ومبادئه السامية واخلاقياته العالية هي أكرم رسالة يمكن أن تكون في هذا الوجود؟

«إننا بنشر القرآن ولغة القرآن ومبادئ القرآن انما تنشر الفضيلة والسمو والعلو في هذا العالم»..

«وأظن أن هذه أعظم رسالة لأي مصلح في هذا العالم»..

الأزهر: هل يعود كما كان

وعلى هذه الحثيات، يطالب وزير العدل بأن يعود الأزهر كما كان.. فهو يقول في وضوح..

«قبلة مشرقة عالية تفتح ذراعيها لأبناء العالم كله من المسلمين وغير المسلمين.. ممن يريدون أن ينهلوا من علوم القرآن الكريم ومبادئه السامية»..
ويا حبذا لو جند لتدريس العلوم القرآنية في هذا المعهد العالي السامي نخبة من علماء الاسلام في العالم كله.. يجيدون اللغات التي يتحدث بها أبناء الاسلام وغير أبناء الاسلام في العالم.. لينشروا القرآن الكريم ويعلموه لطالبي العلم بكافة اللغات..

العلم ليس له سن تقاعد.. فلماذا لا نستعين
بالعلماء الذين أحيلوا للمعاش؟

«وحينها يستجاب لعودة الأزهر الى أصوله فإنني أرى الافادة من العلماء الذين هم على قيد الحياة.. والذين حرم منهم الأزهر بسبب الاحالة على المعاش.. لأن العلم ليس له سن تقاعد.. وهؤلاء من أعلم الناس برسالة الأزهر.. فلا ينبغي أن نحرم منهم في الجهاد الأكبر»..

«الجهاد الأكبر في عالمنا اليوم.. جهاد نشر الفضيلة.. نشر أسمى المبادئ في الدنيا كلها»..

«ذلك هو رأيي في رسالة الأزهر.. وجامعة.. ومبادئ الأزهر»..

مصر العروبة: مصر الأزهر

وبعد أن يبسط الوزير رأيه في رسالة الأزهر وجامعته، يجيب على السؤال الذي طرح في بداية هذا الحديث، لماذا نهتم بالأزهر وقضاياه، يقول الاستاذ أنور أبو سحلى:

«مصر هي: مصر العروبة.. هي مصر القرآن الكريم.. هي مصر الأزهر.. هي مصر الفقه الاسلامي..»

«وبغير مصر.. لا عروبة ولا علوم اسلامية.. صحيح أن القرآن الكريم باق ومحفوظ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(١).

«ولكن مصر هي: الفقه الاسلامي.. هي مصدر الاشعاع الاسلامي في العالم كله ما دام فيها الأزهر بنظامه القديم لا الأزهر بنظامه «المتطور» المسوخ».

وهكذا يختتم وزير العدل الحديث حول «قضية» الأزهر على أساس من الأدلة والبراهين، ويحيى نداؤه لعودة الأزهر الى نظامه الأصيل مبنياً على أدلة منطقية..

ترى: هل نستجيب للنداء..

(١) سورة الحجر آية ٩

اصحاب

■ أول دراسة باللغة العربية عن «جارودي»

الإنسانية الحائرة بين الشك واليقين (*)

الإنسانية حائرة - ولا ريب - اليوم.. بين أزمت الحضارة وتناقضات الفكر، ومشكلات الحياة، وبين دعوات السكينة واليقين والإيمان والسعادة الروحية.. الإنسانية، ومعها الحياة نفسها، والحضارة كلها، وأجيال الشباب، وجماعات المفكرين وجماهير الناس حائرة بين قيم الأرض ومثل السماء.

وليست هذه الحيرة بالأمر المجهول، ولا بالشيء الذي لا يصدق ولا بالغرض الذي يفرضه الكتاب.. المثل موجود، والحقيقة ها هنا.. رجاء جارودي هذا المفكر الفرنسي الأوروبي الكبير صاحب الفكر الماركسي الحاد، والعضو في المكتب السياسي للحزب الشيوعي الفرنسي، الذي أخذ منذ عام ١٩٥٦ يناقش الماركسية بينه وبين نفسه أولاً، الماركسية الجامدة التي تحجّرت في قوالب بعينها منعته من الاستجابة لروح العصر، فأجرى حواراً فكرياً معها، ثم وجدناه ينقدها على نحو ما نراه في كتابيه «نظرات حول الانسان» و«ماركسية القرن العشرين».

ثم صار ينقضها نقضاً تاماً، بعد ذلك. وهذه الرحلة الطويلة من حيرة الشك الى سكينة اليقين تمثل رحلة العديدين من المفكرين والعلماء، والكثيرين من الجماهير وبخاصة الشباب، وهي صورة واضحة للحيرة الكاملة، التي تسود الإنسانية في عالمنا المضطرب اليوم.

(*) جريدة الاهرام في ١٠/٦/١٩٨٤

وفي كتاب جارودي «حوار الحضارات» وكتابه الآخر «نداء الى الاحياء» وكتابه الأخير «الاسلام دين المستقبل» يؤكد جارودي أن الحيرة التامة التي تعيش فيها الانسانية اليوم وهي حيرة التناقضات الكبيرة بين الفلسفات والنظريات والأفكار والمبادئ السائدة قد فشلت في علاجها كل المذاهب الاجتماعية والفلسفية والسياسية المقررة.

عن فكر جارودي ومسيرته الطويلة الى الإيمان حتى اعتنق الاسلام صدر أخيراً كتاب قيم للاستاذة أمينة الصاوي والاستاذ الدكتور عبد العزيز شرف سيكون له صدى كبير في حياة كل انسان معاصر.

في هذا الكتاب الجديد نسمع «جارودي» يصبح بملء فمه ليقول للناس: إن الاسلام هو الدين الحق الذي أنزل للناس كافة في كل مكان وزمان، وإن عقيدة التوحيد هي العقيدة المثلى، التي لا يصل إليها الباطل من بين يديها ولا من خلفها. وإن مستقبل العالم يكمن في الاسلام؛ فالحلول الاسلامية لكل مشكلات الحياة هي وحدها القادرة على إنقاذ المجتمع الانساني من كل المشكلات العويصة التي تأخذ بخناقها، ومن كل الأزمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تتقاذفه بضراوة، وأن المنهج الاسلامي هو المنهج القويم الذي يتحتم على الانسانية أن تنهجه وأن تسير في هديه لتحقيق أملها في الحياة الكريمة الآمنة القائمة على العدل والسلام.

ويؤكد جارودي بعد بحوث طويلة مستفيضة في رحلته الى الله، أن الاسلام وحده هو القادر على انقاذ البشرية في حاضرها ومستقبلها مما يحيق بها من أخطار. وأنه هو وحده الذي يقدم للانسانية المنهج القويم في الابداع المادي والروحي.

ثم يؤكد في نهاية الأمر للانسانية جميعاً أن رحلته عبر الطريق الى الإيمان هي خطوة في الطريق الطويل للانسانية نحو الهداية، وأن الناس جميعاً عائدون الى الله، وإلى المنهج الاسلامي القويم في النظر، والفعل، في النظرية والتطبيق، على السواء.

يقول جارودي: إنَّ الاسلام هو الحل الوحيد لتناقضات الحضارة المعاصرة ولتناقضات حضارة المستقبل كما كان في الأمس صانع الحضارة الانسانية.

ومن خلال فكر «رجاء جارودي» ومسيرته الطويلة نحو الايمان يرى أن الغرب قد أخفق تماماً، بكل أفكاره وايدولوجيته وأن الانسان الغربي قد فقد كل علاقة له مع الله والطبيعة والمجتمع، ويؤكد جارودي في كتابه «الاسلام دين المستقبل» أن الانسان الغربي لم يستطع أن يعيش سعيداً من قبل ولا من بعد، وأن روح الاثرة والفردية الاجتماعية تسيطر عليه، وأن الاسلام يربطه كل شيء بالله، أي نظرتة الى كل ملكية أو سلطة أو معرفة أو محاكمة عقلية، قادر على أن يكون منبع تحرر ونضال ضد كل أشكال التسلط والعبودية المفروضة على الانسان والانسانية بحجج واهية مزيفة، تبعدهما عن الاصاله والبناء الخلاق.

ويؤكد جارودي أن وعي الغرب بكونه مديناً للحضارات الأخرى هو الشرط الوحيد لانقاذه من الانقراض وأن الاسلام هو الحل الوحيد لأنقاذ البشرية التي تقف الآن على المنحنى الخطر في مواجهة المشكلة الجوهرية التي تفرض نفسها على كل فرد منا في نهايات القرن العشرين، ويتوقف على حلها احتضار العالم أو بعثه من جديد.

وفي كتاب جارودي «ماركسية القرن العشرين» يؤكد هذا المفكر الكبير خرافة النظريات الماركسية في كل شيء وكل جانب من جوانب الحياة.

ولو أخذنا نستعرض آراء جارودي في الاسلام من كل الجوانب: الانسان والمجتمع والمرأة والعمل والاقتصاد والحياة.. لأعيانا ذلك.

د. محمد عبد المنعم خفاجي

رجاء جارودي وحضارة الاسلام(*)

عندما قال عبارته المشهورة: لقد أفلست الحضارة الغربية، والعالم مهدد بالانهيار، ولا رجاء إلا في حضارة الاسلام، اهتز الملحدون كما لم يهتزوا من قبل، وأصيب الماركسيون بما يشبه المسرى الكهربائي في فكرهم القائم على إلقاء الأديان جميعها خارج حدود مذهبهم، بل إن فكرهم يتنكر لكل عقائد وتعاليم السماء، لا فرق بين دين ودين، أو بين نبي ونبي.. ولذلك فإن صدور هذا الكتاب في هذه الفترة يعد توفيقاً من الله للكاتبة والمفكرة الاسلامية، الاستاذة أمينة الصاوي التي جسدت التاريخ الاسلامي في مسلسلاتها الدينية، وأشعت بعقلها وقلبها ووجدانها وثقافتها في سماء الفكر الاسلامي، حتى لم يعد بيت مسلم إلا وللکاتبة الاسلامية أمينة الصاوي أثر في نفوس أهله.. ولعلها وقد شاركت في تأليف هذا الكتاب القيم زميلاً عزيزاً هو الدكتور عبد العزيز شرف، إذ أسهم معها في حمل هذا المشعل المضيء، فإننا ننتظر من استاذ النقد الأدبي في مصر أن يخطو - منفرداً أو مشتركاً - خطوات أخرى على طريق الفكر الاسلامي، حتى ننتفع به كاتباً اسلامياً، كما انتفعنا به كاتباً وناقداً أدبياً.

وهذا الكتاب لا يمثل مرحلة من الشك الى اليقين - كما يقول المؤلفان الفاضلان - وإنما يمثل حقيقة دامغة لكل من زعموا أن الاسلام انتشر بالسيف، أو ساد بالقوة، أو انتظم الشعوب بالعنف، فهذا الرجل الذي كان من أكبر كتاب النظرية الماركسية، دخل الاسلام عن عقيدة واقتناع وثقة.. لم يرغبه

(*) جريدة الاخبار في ١٠/٥/١٩٨٤

أحد، ولم تقهره قوة.. وإنما وجد في الاسلام المنقذ للبشرية من الدمار الى الحياة، ومن الظلمات الى النور، ومن الهاوية الى أعلى قمم الانسانية. مدنية وحضارة وتقدماً وعمراناً.

والمؤلفان بوصفهما من صفوة حملة القلم، استطاعا أن يقدموا كتاباً متين البنیان، راسخ الدعائم، فقد عرضا فيه كيف بدأ رجاء جارودي يتلمس الطريق الى النور والى المستقبل المضيء، بعد أن غربت شمس الحضارة الأوربية، وأفلست أسواقها، فوجد عقله يدلف بخطوات فكرية تأملية نحو الاسلام.. وكان هذا بالطبع تفكيراً غريباً على رجل كان أو عاش لا يؤمن بالروحانيات، ولا بعقائد السماء، وإنما وقف عقله عند وثنية المادية.. فهاذا فتح عقله لينظر الى أفق جديد ينفض فيه تراب الوثنية المادية عن عقله، ويصقله بعقيدة جديدة مصدرها السماء، لقد سلط المؤلفان الضوء على كل خطوة في هذه الرحلة المباركة.. وقد اقتضاهما المنهج العلمي لدراسة هذه الرحلة أن يقسما الكتاب الى سبعة أبواب.

تناول المؤلفان في الباب الأول: الفكر الاوروبي وعبقريته الاسلام، حيث استعرضا اتجاهات مفكرى العالم نحو الدين الحنيف، وآرائهم المختلفة فيه وحوله.. وانتهيا الى دراسة الرحلة الجارودية من الشك الى اليقين.. وقد استعرضا أهم كتبه التي تمثل علامات مميزة على طريق الرحلة من القلق والضباب الى سكينة النفس ونور الايمان.

وفي الباب الثاني تحدّث المؤلفان عن الماركسية ونقد جارودي لها. أما الباب الثالث فيكشف عن حقيقة الشيوعية بوثائق لا تتأق الا عن طريق فكر مستنير كفكر جارودي يؤيد موقف الاسلام من الشيوعية والمذاهب الهدامة.. وفي الباب الرابع يتناول المؤلفان فكر جارودي في مجال الكشف عن أباطيل الصهيونية وزيفها، كما كشف ضلال الشيوعية وسمومها.. أما الباب الخامس فهو مخصص لدراسة الفكر الاسلامي عند جارودي، والذي أدى

اقتناعه به شكلاً ومحتوى الى أن يؤكد أن الاسلام هو الحل الوحيد لمشكلات البشرية، وانقاذ الانسانية من الهاوية.

ويختتم المؤلفان كتابها هذا بباين مستفيضين عن الاسلام ومستقبل الحضارة من خلال ما تكشف عنه الرؤيا الفكرية للمفكر الكبير جارودي، الذي يؤكد لنا أن الاسلام فيه مستقبل الحضارة الجديدة، ذلك أن الحضارة تنبع من الاسلام: عقيدة ومنهج حياة.. وأكد جارودي أن مصير المعمورة مرهون بالاسلام..

* * *

هذه لمحات خاطفة على كتاب يعد كتاب الموسم فكراً واداء فهو ليس سيرة حياة رجل اعتنق الاسلام، وخلع رداء المادية، ليلبس ثوباً من النور والطهر والشفافية، وإنما هو دليل هاد لمن يريد أن يفتح عقله وقلبه، ليدرس الدين الحنيف، دراسة واعية متأنية.. فالعقائد لا تفرض بالقوة ولا بالارهاب، وإنما تبزغ في القلب اذا ألقى اليه العقل باشارة ضوئية بعد تأمل وتدبر وتفكير وروية وتأن وأولاً وأخيراً بعد أن تفتح له السماء أبواب الايمان.

عبد المنعم قنديل

رجاء جارودي وحضارة الاسلام(*)

الاسلام هو الحل الوحيد لانقاذ البشرية.

هذه الجملة هي خلاصة ما توصل إليه المفكر الفرنسي العالمي روجيه جارودي أو رجاء جارودي بعد أن أعلن اسلامه.

وهذه الجملة أيضاً هي المحور الذي يدور حوله كتاب «رجاء جارودي.. وحضارة الاسلام» للدكتور عبد العزيز شرف وأمينه الصاوي.. والمؤلفان يحاولان في هذا الكتاب تتبع الرحلة الجارودية من بدايتها في دياجير الظلام، الى منتهاها في عالم النور، في رجااب الاسلام.

منذ سنوات أعلن جارودي أنه لم يعد يستطيع التزام الصمت، بعد أن لاحظ أزمة الحركة الشيوعية، ولم يلبث ان أعلن «الحقيقة كلها» في كتاب يحمل هذا العنوان، وحاول فيه أن يواجه ما اسماه بالمشكلة الجوهرية التي تفرض نفسها على كل فرد منا في نهاية القرن العشرين، وان إدراك هذه المشكلة وشعور الشخص بأن المرء مسئول عن حلها يعتبران شيئاً واحداً، ويتوقف على ذلك احتضار عالم أو بعثه من جديد.

هذه المشكلة الجوهرية في فكر جارودي هي التي قادت الى الاسلام.. ذلك أن جارودي قد نته الى الطريق المسدود الذي تسير فيه الشيوعية، وكان في مسيرته الفكرية حريصاً على دراسة وسائل الخروج من هذا الطريق

(*) جريدة اخبار اليوم في ١٦/٦/١٩٨٤

المسدود.. فإنّ جارودي كمفكر كان لا يستطيع أن يؤمن بشيء إلاّ وعيونه مفتوحة.

وبهذه العيون المفتوحة استقرأ روح عصره، ومن استقرائه ذهب الى أن التغييرات الكبرى المعاصرة يساعد إدراكها على اجتناب عدد من الأخطاء في ميدان الثقافة، ومنها خطأ الاعتقاد بأن الظروف الاقتصادية والاجتماعية للشيوعية يؤدي بالضرورة الى قيام بنيتها الفوقية، وأن الإنسان سيتغير بصورة آلية - ومنها خطأ الاعتقاد بأن الثقافة ليست أكثر من وسيلة لتحقيق الأهداف القصيرة الأجل في خطة اقتصادية أو مشروع سياسي.

ويرى جارودي في انحسار الاستعمار عن قارتي آسيا وأفريقيا مغزى تاريخياً عميقاً. وهو ان الغرب لم يعد وحده مركز المبادرة التاريخية، كما لم يعد وحده مبتدع القيم والحضارة والثقافة.. وهو لذلك يؤكد بعد اسلامه ان «وعي الغرب بكونه مديناً للحضارات الأخرى هو الشرط الوحيد لانقاذه من الانقراض».

ويقول: «إنّ الاسلام هو الحل الوحيد لانقاذ البشرية» التي تقف الآن على المنحنى الخطر في مواجهة المشكلة الجوهرية التي تفرض نفسها على كل فرد منا في نهاية القرن العشرين، ويتوقّف على حلّها احتضار العالم أو بعثه من جديد.

وينقسم كتاب «رجاء جارودي.. وحضارة الاسلام» الى سبعة أبواب.. يتناول الباب الأول الفكر الأوربي وعبقورية الاسلام، ويستعرض اتجاهات مفكري العالم نحو الدين الخفيف، وآراءهم المختلفة به وحوله ورحلة جارودي من الشك الى اليقين، وأهم كتبه التي تمثل علامات مميزة على طريق الرحلة من القلق والضباب الى حقيقة النفس ونور الايمان.

وخصص المؤلفان الباب الثاني لدراسة الماركسية ونقد جارودي لها، ثم نقضه إياها. وفي الباب الثالث يصل الى «الحقيقة كلّها» وفي الباب الرابع

ننتقل مع جارودي الى كشف جديد للقناع المزيف للصهيونية وأضاليلها استمراراً لمنهج النقدي المستنير في كشف الحقيقة كلها. أما الباب الخامس فهو لدراسة الفكر الاسلامي لدى جارودي، والذي أدى اقتناعه به شكلاً ومحتوى الى ان يؤكد ان «الاسلام هو الحل الوحيد». ثم يختتم الكتاب ببابين مستفيضين عن الاسلام ومستقبل الحضارة من خلال ما تكشف عنه الرؤيا الفكرية لجارودي، الذي يؤكد ان الاسلام فيه مستقبل الحضارة الجديدة، وذلك ان الحضارة تتبع مع الاسلام عقيدة ومنهج حياة.

ولذلك يشير جارودي باعجاب الى الحديث النبوي الشريف «رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر». ويعقب عليه قائلاً: «يعد هذا الحديث النبوي الشريف درساً هاماً لكثير من الثوريين الذين يحاولون تغيير كل شيء ما عدا أنفسهم».

وهذه الحضارة الجديدة هي حضارة الاسلام التي تتبع - كما يذهب الى ذلك جارودي - من القرآن الكريم والسنة الشريفة «فهذا الدين ينبذ الازدواجية المزيفة في شئون العقيدة أو السياسة أو المجد أو الدولة، ولا شك في مقدرة الاسلام على السيطرة على الأزمة الحضارية المعاصرة.. حيث مصير المعمورة مرهون بالاسلام».

محمد الزرقاني

أحدث كتاب بالعربية عن «جارودي»

يترجم الى الفرنسية(*)

(رجاء جارودي وحضارة الاسلام) أحدث كتاب صدر هذا الأسبوع عن المفكر العالمي جارودي بقلم أمينة الصاوي والدكتور عبد العزيز شرف وكتب مقدمته فضيلة الشيخ أحمد حسن الباقوري، رئيس ومدير جمعية ومعهد الدراسات الاسلامية بالقاهرة بقوله أن هذا الكتاب جليل القدر عن جارودي في حياته الحافلة بجلال الأعمال التي لا ينهض بها إلا أصحاب العزائم، والأحرار. وتقول امينة الصاوي:

● هذا الكتاب نهديه الى الحيارى الظالمين السائرين في بيداء الحياة وهجيرها كطريق أو وسيلة من وسائل الوصول إلى اليقين وإلى مرفأ السلام والأمن والطمأنينة والدين الحق.

ولقد بدأ تفكيري في تأليف هذا الكتاب عن جارودي عندما التقيت به وقت ان زار مصر في الاحتفالات بعيد الأزهر ووقفت أسأله عن رأيه في نظرة الاسلام للمرأة. فقال لي ان الاسلام جاء بتشريع شامل كامل يحدد مكافأة المرأة وكيف ان الاسلام كرمها وأكرمها وحفظ لها حقها كابنة وزوجة وأم. وقد لفتت نظري آراء جارودي هذه وجعلتني أحس بصدقه وعلمه ففكرت في تأليف هذا الكتاب. وعندما علم الدكتور عبد العزيز شرف بهذه النية طلب مني أن يشترك معي في تأليفه. وقد وفقنا الله وكان هذا الكتاب.

(*) جريدة الاخبار في ١٩٨٤/٥/٩

في نفس الوقت أرسلت نسخة من هذا الكتاب الى المفكر العالمي رجاء جارودي وستترجم الى الفرنسية. وقد علم بانجاز هذا الكتاب في أثناء زيارته للعراق للمشاركة في مهرجان الأمة الشعري ورحب به وطلب ارسال نسخة إليه.

ويقول الدكتور عبد العزيز شرف:

• هذا الكتاب الذي شرفت بالمشاركة في تأليفه مع الزميلة أمينة الصاوي يمكن أن يندرج ليس تحت عنوان التراجم والسير بالمعنى المألوف للشخصيات وإنما بمعنى الترجمة بفكر شخصية. وهو منهج ينحو نحو المنهج العلمي.

وعن هذا الكتاب يقول الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي:

• هذا كتاب هام من كتب الدعوة الاسلامية وهو يعكس فكر جارودي المضيء الذي اكتشف في الاسلام ثروة هائلة.. وهو كتاب يجب أن نقرأه بعناية وتأمل لأنه ذو أثر كبير في خدمة الاسلام.

جارودي وحضارة الاسلام(*)

الانسان.. أولاً وأخيراً.

الانسان هو الغاية كلها من المذاهب والنظريات والمبادئ .. سعادته، وأمنه، وطمأنينته، ورفاهيته. هي كل ما يريد دعاة الاصلاح، ورواد الفكر، الوصول إليه.

وكل ما يبدد أمل الإنسان وحلمه بحياة أفضل، هو صرخة مدوية - ولا ريب - في وجه العصر جاءت أخيراً في هذا الكتاب «رجاء جارودي وحضارة الاسلام».

تأليف الكاتبة أمينة الصاوي ود. عبد العزيز شرف.

إنّ المشكلات التي تضعها أمام الإنسان قدراته الكبيرة، التي زودته بها العلوم والتكنولوجيا لتجعل من الحتم البحث في العودة الى النبع أمراً ضرورياً. هذا النبع، لم يجده مثل «رجاء جارودي» - بعد رحلته الطويلة المضنية - إلا في الاسلام، الدين الذي يقف من مشكلات الحضارة موقفاً إيجابياً، في الوقت الذي يحذر الانسان من انخداعه بمتع الحياة، ومن أن تصبح له فتنة، ويصبح مفتوناً بها، يركز نظره في الحياة إليها وحدها، ويقصر نشاطه وسعيه على تحصيلها، تاركاً الهدف الأساسي في الحياة كلها، والوجود كله، وهو الايمان بالله، سبحانه وتعالى، مالك الملك، ذي الجلال والاکرام.

(*) الاهرام في ١٥/٥/١٩٨٤.

وخلال الرحلة الطويلة، والمسيرة الدائبة التي سار فيها رجاء جارودي، هذا المفكر الفرنسي الغربي الكبير، من الماركسية، الى الشك في الماركسية، الى نقدها، الى نقضها الى الايمان بالاسلام، واليقين بأنه دين الحضارة الانسانية، اليوم وغداً وبعد غد، الى السكينة الشاملة بأنه الدين الأمثل القادر على علاج أزمات الانسان والحياة والحضارة المعاصرة، والقادر وحده على تجديد الحياة، وبناء الانسان، وتحقيق آمال البشرية.

وإذا كان «رجاء جارودي» في رحلته الفكرية الطويلة الشاقة، عبر المذاهب الفلسفية والاجتماعية، كان يركز على مشكلة الإنسان، فإنه عند شاطئ اليقين أدرك أنّ إنسان القرآن الكريم هو الهدف المنشود من وراء رحلته الفكرية.

هذا الفكر المتجدد لرجاء جارودي، هو الذي صدر عنه أحدث كتاب وأخطر كتاب في الوقت نفسه، وهو كتاب «رجاء جارودي وحضارة الاسلام للمؤلفين الدكتور عبد العزيز شرف، والاستاذة أمينة الصاوي.

وفي سلامة منهج، ووضوح أسلوب، وقوة حجة يمضي المؤلفان الفاضلان في أبواب كتابها السبعة: الفكر الأوربي وعبقريّة الاسلام - الماركسية ونقد الماركسية - الحقيقة كلّها - أضاليل اليهودية - الاسلام هو الحل الوحيد - الاسلام ومستقبل الحضارة - من شك الى سكينة الايمان.. ثم تأتي الخاتمة: المحور هو الانسان.

والكتاب، ولا ريب، من أجل ما يمكن أن يقرأه كل الناس في يومنا الحاضر، وفي كل وقت، وفي كل زمان ومكان.

لقد صدر في وقته المناسب، ولسد حاجة الشباب الحائر بين الشك واليقين.

د. محمد عبد المنعم خفاجي
رئيس رابطة الأدب الحديث

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الاهداء	٥
- الاشكال الاتصالية في الدعوة الاسلامية	٧
- الاتصال الجمعي في الاعلام الاسلامي	٢٠
- الاعلام الاسلامي بين الاعلام الانساني والاعلام الدولي	٣٨
- الاسس الاعلامية للادب الاسلامي	٥٠
- الاعلام الاسلامي وهندسة العادات والتقاليد	٦٦
- الرسول ومنهج الدعوة	٧٧
- الاسوة الحسنة ووظائف الفن الروائي	٩٨
- الادب الاسلامي ومواكب النور	١٠٣
- توفيق الحكيم والادب الاسلامي	١٠٩
- محمود حسن اسماعيل والشعر الاسلامي	١١٣
- صلاة العيد.. والاعلام الاسلامي	١٢٦
- الخطابة وبلاغة الاتصال	١٢٩
- ﴿ان كيد الشيطان كان ضعيفا﴾	١٣٩
- الاعلام في القرآن الكريم	١٤٤
- توظيف التراث الاسلامي في الأدب	١٤٧
- الاعلام القرآني ورسالة الامة العربية	١٥٠
- عبد المنعم خلاف.. والعقل المؤمن	١٥٤

الموضوع	الصفحة
الدولة الاسلامية على عهد الرسول	١٥٨
الاسلام والابداع الفني	١٦٠
الدعوة.. والدعاة.. اسباب التخلف ومنهج التطبيق	١٦٢
التفكير فريضة اسلامية	١٦٤
الشخصية الاسلامية	١٦٦
التفسير الاسلامي للتراجم الأدبية	١٧١
الشعراوي والادب الاسلامي	١٧٥
مواكب الحياة.. والشعر الاسلامي	١٧٨
مصطفى محمود.. بين ادب الرحلات وأدب الآخرة	١٨١
الشعر الاسلامي والنور الاعظم	١٨٤
قضية الازهر.. والوزير المستول عن تطبيق الشريعة	١٨٨
اصداء	١٩٥
اول دراسة باللغة العربية عن جارودي	١٩٤
رجاء جارودي وحضارة الاسلام	١٩٧
رجاء جارودي وحضارة الاسلام	٢٠٠
احدث كتاب بالعربية عن جارودي	٢٠٣
جارودي وحضارة الاسلام	٢٠٥
الفهرس	٢٠٧

